رَوَائِعُ الْبَيَانِ

فِي تَدَبُّرِ وَتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تفسير سورة البقرة من آية: ٢١١ إلى آية: ٢١٥

لأم تميم

عزَّة بنت محمد

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ
ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا
كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا
ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ
لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ
فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ
سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧
وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ
أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ ﴾

{وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ} كل طائفة تنفي الخير عن الطائفة الأخرى، وقال أكثر أهل العلم: إن سبب نزول الآية كما ورد عن ابن عباس: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى ابن مريم وبالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران من النصارى: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما: {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء}، إلى قوله: {فيما كانوا فيه يختلفون}(١).

- في هذه الآيات أبطل الله عز وجل ادّعاء أهل الضلال بأنهم أهل الاختصاص بالرحمة! كما أبطل ادّعاءهم بأنه لن يدخل الجنة غيرهم، فأثبت الله عز وجل أن هذا الكلام باطل، وأن الجنة والرحمة للمحسنين {بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ..}.

وَ{شَيۡءٖ}: كلمة (شيء) تطلق على أي موجود صغيرًا كان أو كبيرًا، وهذا نوع من أنواع المبالغة الشديدة منهم، وكأن كل طائفة تنفي عن الأخرى امتلاكها لأي شيء.

{وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ} جملة حالية؛ فالله سبحانه وتعالى يُبيّن

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١٠٩٧).

حالهم، فبالرغم من وجود العلم والكتاب لديهم إلا أنهم وقعوا في مثل هذه الدعاوى الباطلة، وهذا أعظم في التوبيخ وأشد في التقريع لأنه خرج من أهل علم!

فائدة:

هذه الآية تنبئ عن أنه مَن أتى شيئًا من معاصي الله على علم منه بنهي الله عنها، فمصيبته في دينه أعظم من مصيبة مَن أتى ذلك جاهلًا به.

{ٱلْكِتَـٰبَ} قيل: المراد به جنس الكتاب. وقيل: المراد به التوراة والإنجيل.

{كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}: سؤال: مَن هم الذين {لَا يَعْلَمُونَ}؟

الجواب: جماهير العلماء على أنهم (كفار العرب) لأنه لم يكن عندهم كتاب، فكانوا جاهلين. وقيل: طائفة من اليهود والنصارى لديهم جهل.

{مِثْلَ قَوْلِهِمْ} إن كان المراد (كفار العرب) كما ذكرنا فالمعنى أن فِعْل اليهود والنصارى مشابه لفعل الجاهلين من كفار العرب؛ فبالرغم من أن اليهود والنصارى أهل علم وكتاب إلا أنهم أصبحوا مثل مشركي العرب في الجهل وتكذيب النبي ﷺ وتوليتهم عنه. وإن كان المراد (الجاهلين من اليهود والنصارى) فهم أيضًا شابهوا

فِعلهم، فأصبحوا سواءً في الجهل.

{فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ} فالله يقضي يوم القيامة فيفصل بين هؤلاء المختلفين بعدله سبحانه، وما كان يحق لهم فعل ذلك لأنهم أهل كتاب- وإن كانوا حرّفوه- لكنه كان كتابًا من عند الله.

قوله تعالى: {وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤}.

{وَمَنۡ أَظۡلَمُ} الاستفهام بـ (مَن) إنكاري. و(الظلم) هو: الجور ومجاوزة الحد؛ وهو(أخذ- منع) حق الغير بغير رضا نفس.

{مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ} إضافة (المسجد) إلى (الله) إضافة تشريف لهذه المساجد التي يُذكر فيها اسم الله.

فائدة:

معنى (إضافة التشريف) أن هذه المساجد لها منزلة عظيمة عند الله عز وجل، فلا ينبغي التهاون في عدم الارتباط بالمسجد، فينبغي الحرص على ربط الأولاد بالمسجد من صلاة وحفظ قرآن.

كما أن عمارة المساجد دليل الإيمان كما قال تعالى في سورة التوبة: { إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ

ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨} فلا بُد لمساجد الله أن تُعَمّر، وما ضَيَّع المسلمين إلا بِبُعدهم عن المساجد!

وقال رسول الله ﷺ: «**مَن تَطَهَّرَ في بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إلى بَيْتٍ مَن بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً من فَرَائِضِ اللهِ، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إحْدَاهُما تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً**»[(١)].

{وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ} سؤال: مَن الذي منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه؟ الجواب: للعلماء ثلاثة أقوال:

١- روي عن جُملة من السلف أنهم: (النصارى) وقالوا إنهم كانوا يطرحون الأذى في بيت المقدس ويمنعون الناس أن يصلوا فيه؛ وذلك من شدة كرههم لليهود.

٢- قالوا هُوَ (بُخْتَنَصَّر وَأَصْحَابُهُ) خَرَّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النَّصَارَى.

٣- فريق من العلماء قال: إن هَؤُلَاءِ هم (الْمُشْرِكُونَ) الَّذِينَ حَالُوا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخل مَكَّةَ؛ وكان ذلك يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ حتى اضطر النبي ﷺ أن ينحر هديه، فأعظم خراب هو منعهم للمسلمين إقامة شعائر الدين من حج وعمرة وصلاة في بيت الله الحرام.

---

(١) صحيح مسلم (٦٦٦).

* وهذا القول الثالث انتصر له ابن كثير، وكان رده على القول الأول أن مَنْع النصارى لليهود من الصلاة في بيت المقدس شيء لا يُذَمُّوا على فعله؛ فَذِكْر اليهود لاسم الله في بيت المقدس أمر لا يحبه الله ولا يرضاه؛ فهم الذين قالوا {عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ} - تعالى الله عما يقولون- وحرّفوا التوراة وابتعدوا عن الدين.

{وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ} السعي: هو الاجتهاد وبَذْل الوسْع؛ سواء حسي أو معنوي.

وقفة:

وردت بعض الآيات في القرآن عن أظلم الناس مثل: { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ... ﴿٣٢﴾} [الزمر]. { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ.. ﴿٥٧﴾} [الكهف]، والآية التي نحن بصددها الآن { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ} فمَنْ أظلمهم؟ وكيف نجمع بين الآيات؟ قولان لأهل العلم:

القول الأول: تخصيص كل موضع بمعنى صلته؛ فمثلًا في قول الله تعالى { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ} أي لا أحد من المانعين أظلم ممن منع مساجد الله؛ فهذا يخص جماعة المانعين، وقوله تعالى { فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ} أي لا أحد من المكذبين أظلم ممن كذب على الله؛ فهذا يخص جماعة

المكذبين... وهكذا تخصيص كل موضع بموضع صلته.

القول الثاني: هناك قاعدة تقول (نفي التفضيل لا يستلزم نفي المساواة)، فما معناها؟

مثال للتوضيح: عندما أقول: لا يوجد مَن هو أقوى من الشافعي-مثلًا- في الفقه، هل ينفي ذلك دخول أحمد ومالك.. وغيره؟!! لا.. لا ينفي ذلك، فهم أيضًا أقوياء.

- إذًا نفي التفضيل لا يستلزم نفي المساواة. كذلك عند الجمع بين هذه الآيات يكون المعنى أن كل الظالمين متساوون في الأظلمية؛ فكلهم ظالمون وإن كان هناك تفضيل؛ فنفي التفضيل لا يستلزم نفي المساواة. ولا تعارض بين القولين.

{مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ} فيها قولان للعلماء:

القول الأول: الجملة خبر بمعنى الطلب؛ أي لا تمكّنوا هؤلاء الظلمة الذين منعوا مساجد الله من تعميرها بالصلاة والذكر -إذا قَدَرتم عليهم- إلا أن يدفعوا الْجِزْيَة عن يد وهم صاغرون، أو يكونوا تحت الْهُدْنَة، فعلى المسلم أن يكون عزيزًا دائمًا.

- لذلك لَمَّا فَتَحَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مَكَّةَ أَمَرَ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه بَعَثَهُ في الحَجَّةِ الَّتي أَمَّرَهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهَا قَبْلَ حَجَّةِ الوَدَاعِ في رَهْطٍ يُؤَذِّنُونَ في النَّاسِ: «**أَنْ لا يَحُجَّنَّ بَعْدَ**

العَامِ مُشْرِكٌ ولَا يَطُوفَ بالبَيْتِ عُرْيَانٌ»[(١)].

القول الثاني: الجملة بشارة من الله للمسلمين؛ أنهم سيُنْصَرون على المشركين وأنه سيُعَز الإسلام والمسلمون، وسيكون المسجد الحرام بأيدي المسلمين لا يدخله أحد إلا بإذنهم. وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام.

{لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (الخزي) العار والفضيحة وبه معنى الذل والانكسار، والجزاء من جنس العمل؛ فكما صدّوا المسلمين عن المسجد الحرام سلّط الله عليهم الذل والخزي في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾}.

{وَلِلَّهِ} اللام للمُلك والاختصاص. فالله يملك كل شيء، وهو وحده لا شريك له، فلا أحد يشاركه في ملكه.

سؤال: وردت كلمتي المشرق والمغرب في هذه الآية {وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ} بصيغة المفرد، ووردت أيضًا بصيغة المثنى في قوله تعالى { رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾} [الرحمن]، وبصيغة الجمع { فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾} [المعارج] فكيف الجمع بين الآيات؟

(١) صحيح البخاري (٤٦٥٧).

١- **قيل**: أما (المشرق) بصيغة المفرد فلا ينافي المشارق ولا المشرقين؛ فالعلماء يقولون عنها (مفرد محلّى بـ (ال)) فهي للجنس الشامل الواحد والمتعدي، فيصح إطلاقها على الواحد والمتعدي.

٢- **وقيل**: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ هو شروق الشمس، وغروب الشمس.

٣- **وقيل في صيغة التثنية**: إن الشمس لها مكان معين في الشتاء؛ فتشرق من أقصى الجنوب، وفي الصيف من أقصى الشمال، وكذلك الغروب، فيكون لها بذلك (مشرقان) و(مغربان).

٤- **وقيل في صيغة الجمع**: أي مشارق الشمس على مدار العام؛ فالشمس تشرق من أكثر من موضع على مدار العام، وتغرب أيضًا من أكثر من موضع على مدار العام.

٥-**وقيل أيضًا في صيغة الجمع**: إن هناك أشياء كثيرة تشرق مثل الشمس والقمر والنجوم.

﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ لهذه الآية أقوال عند العلماء:

القول الأول: قيل: إنها منسوخة بقوله تعالى ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ..... ١٥٠﴾ [البقرة] وستأتي هذه الآية معنا لاحقًا.

كثير من العلماء ردّوا هذا القول وقالوا إنها ليست منسوخة ولكنها نزلت فيمن نَوَى أن يصلي صلاة النافلة على الراحلة في

السفر، فله أن يصلي في أي اتجاه واستدلوا بحديث: «كَانَ عبدُ اللَّهِ بنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يُصَلِّي في السَّفَرِ علَى رَاحِلَتِهِ، أيْنَما تَوَجَّهَتْ يُومِئُ»[١].

(يومئ) أي يشير برأسه.

القول الثاني: قيل: هي القبلة؛ فقبلتكم كلها واحدة حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها.

القول الثالث: قيل: مواطن الصلاة وليست القبلة؛ لأن الله ذكرها بعدما ذكر المانعي مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فأراد الله أن يخبرهم أنه يصح لهم الصلاة في أي مكان.

* وشاهد هذا القول الثالث: حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال رسول الله ﷺ: «**جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ**»[٢].

وكلها أقوال لأهل علم معتبرين لكن أكثر أهل العلم على أن هذه الآية ليست منسوخة ولكنها باقية في صلاة النافلة.

{تُوَلُّواْ} تتجهوا.

{فَثَمَّ} بمعنى هناك؛ إشارة إلى الجهة التي ستتجهون إليها، وهي ظرف.

{فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ} تقديم الظرف للاختصاص؛ أي أن الأرض لله

---

(١) صحيح البخاري (١٠٩٦).

(٢) صحيح البخاري (٤٣٨).

تعالى فقط لا لغيره. وأهل السنة والجماعة يثبتون الوجه لله إثباتًا يليق بجلاله وكماله؛ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والسؤال: هل المقصود بالوجه هنا وجه الله الذي يثبته أهل السنة والجماعة أم المقصود شيء آخر؟

الجواب: للعلماء - السلف والخلف - من أهل السنة قولان:

- **الأول:** المراد به الوجه الحقيقي.

- **الثاني:** قال آخرون: المراد به: الجهة؛ لأن الجهة تأتي بمعنى الوجه، فأي مكان تتجه إليه هو جهة الله عز وجل؛ فالله محيط بكل شيء.

والراجح هو القول الأول وهو الوجه الحقيقي وليس الجهة؛ فإذا وجد نَص يوجد فيه احتمال لمعنًى ظاهر، واحتمال لمعنى مؤول؛ فالأَولى للاحتمال الظاهر، كما يرجح هذا القول أيضًا حديث طويل؛ الشاهد فيه قوله: «**فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ**»(١).

* ومعنى (يَنصبُ وجهَه) أي يُقابل وجهه وجه عبده، لكن لا ندري الكيفية أو الصفة؛ فصفات الله على الوجه الذي يليق به سبحانه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٨٠٠) والترمذي وغيرهما، وصححه الألباني.

{إِنَّ ٱللَّهَ} اسم الجلالة سبحانه له الأسماء الحسنى والصفات العلا.

{وَٰسِعٌ عَلِيمٌ} من معاني اسم الله الواسع: يوسع على عباده في دينهم فلا يكلفهم ما ليس في وسعهم، ولا يكلفهم ما لا يطيقون. وقيل: (الواسع) أي يَسَع بعلمه كل شيء- وهذا لا ينافي المعنى السابق- {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾} [طه]. وقيل: هو الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء؛ فهو الجواد الكريم الذي يعطي بلا حساب. وقيل: واسع المغفرة لا يتعاظمه ذنب؛ فمهما كان الذنب عظيمًا فهو واسع المغفرة تبارك وتعالى. وقيل: المتفضل على العباد والغني عن أعمالهم؛ فيتفضل عليهم بالتكليف حتى يطيعوه، فيرضى عنهم وينعمهم في جنات عرضها السماوات والأرض ويجزل لهم العطاء.

قوله تعالى: {وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾}.

{وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا} مَن الذين قالوا اتخذ الله ولدًا؟ المغضوب عليهم وهم (اليهود)، والضالون وهم (النصارى)؛ {وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾} [التوبة].

فَعَل اليهود والنصارى نفس فعل الكفار الذين ادّعوا من قبل

البنات لله {وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ... ﴿٥٧﴾} [النحل] وهذا ضلال مبين؛ فبيّن الله سبحانه وتعالى كذبهم وفعلهم المشين بادّعائهم الولد لله عز وجل وهو الغني عن العالمين.

- وفي الحديث القدسي أن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللَّهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ، فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا**»(١).

فتعالى الله عما يقول الظالمون الكافرون الجاحدون علوًّا كبيرًا.

{بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ} (بَلْ) حرف إضراب؛ يضرب عن القول الفاسد وعما تقتضيه مقالتهم الباطلة، بل الله سبحانه لا يشابه أحدًا من خلقه في أي شيء، لا من قريب أو من بعيد، وكل هذا الذي سيأتي ردٌّ على قولهم.

سؤال: (مَا) اسم موصول لغير العاقل، {كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ} جاءت بصيغة جمع المذكر الخاص بالعقلاء. فكيف الجمع؟

قيل: السماوات والأرض يوجد بها العقلاء وغير العقلاء، فغلّب الاسم الموصول لغير العقلاء، وقال (ما)، أما عندما تكلم الله عز وجل عن العبادة والقنوت والطاعة فغلّب جمع المذكر الخاص بالعقلاء فقال (قانتون)، فالطاعة مرتبطة بالعاقل.

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٨٢).

وقيل: إن تغليب (ما) لغير العقلاء لأن جميع الخلائق ضعفاء عاجزون لا يملكون شيئًا؛ فحتى العاقل منهم لا يملك شيئًا كغير العاقل.

{كُلٌّ} التنوين عوض عن مضاف إليه؛ فحذف المضاف إليه وعوض عنه بالتنوين أي (كل ما في السماوات والأرض).

{لَّهُ قَٰنِتُونَ} لا شيء يعجزه سبحانه.

ملحوظة هامة جدًّا: في الآية حجة قوية على نفي الولد له سبحانه وأن كل مَن في السماوات والأرض قانتٌ لله { وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا... ﴿١٥﴾} [الرعد] فأي مصنوع لا بُد له من صانع، وأي مخلوق لا بد له من خالق. وقد قدّر الله على الخلق التزاوج لبقاء النوع الإنساني وليبقى الولد؛ وهذا الولد هو البذرة التي يستمر بها النوع الإنساني، لكن بعض المخلوقات مثل الشمس والقمر والأجرام السماوية والبحار لم يجعلها الله تحتاج إلى استخلاف، بل جعلها قائمة بإذنه سبحانه؛ فالشمس ليس لها ذرية وهي لا تحتاج إليها، وكذلك البحار والأجرام وبعض مخلوقات الله.

- فإن كان الله عز وجل باقيًا، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ففيمَ يحتاج الولد؟!!! إذا كانت بعض مخلوقات الله لا تحتاج للولد، فكيف يحتاج إليها مَن خلق تلك المخلوقات جميعًا؟!!

قوله تعالى: { بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ

لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾}.

{بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ} أي خالقها ومبدعها على غير مثال سابق.

- فالله سبحانه وتعالى يدعو هؤلاء الذين يقولون إن له ولدًا أن ينظروا ويتفكروا في السماوات والأرض لعل ذلك يردّهم عن ضلالهم.

فائدة:

البديع هو الذي ابتدع شيئًا على غير مثال سابق، وكذلك من خالف أهل السنة والجماعة نقول عنه مبتدع لأنه أتى بشيء في الدين لم يسبقه إليه الصحابة ولا التابعون ولا السلف.

{وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا} القضاء هو إتمام الشيء قولًا وفعلًا؛ فالقول مثل قوله تعالى: { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ... ﴿٢٣﴾} [الإسراء] أي كتب وحكم وأتَمّ القول دون رجعة. أما الفعل { فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ.... ﴿١٢﴾} [فصلت].

شبهة: سألوا ابن تيمية سؤالًا في آية {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ} (فقالوا: إن كان المخاطب موجودًا، فتحصيل الحاصل محال، وإن كان معدومًا فكيف يتصور خطاب المعدوم؟).

معنى سؤالهم: عندما نقول (كن) فأنا أخاطب أحدًا موجودًا

بالفعل، فهذا تحصيل حاصل (وهو محال لأنه موجود بالفعل) فإذا كان هذا معدومًا أصلًا وغير موجود فكيف سأخاطبه؟!

رد شيخ الإسلام ابن تيمية: لا بُد أن نُفَرِّق بين (خطاب التكوين) وهذا الذي لا يطلب به سبحانه فعلًا من المخاطب؛ لأن المخاطب به لم يوجد بعد وليس له فعل أو قدرة أو إرادة، وبين (خطاب التكليف) الذي يطلب به من المأمور فعلًا أو تركًا يفعله بقدرة وإرادة، وإن كان ذلك جميعه بحول الله وقوته.

بصورة أوضح: هناك فرق بين الوجود الذي هو الثبوت العَيني (أي عين الشيء موجود؛ فمثلًا هذا الشخص موجود أمامي). وبين الوجود الذي هو الثبوت العلمي (أي أن هذا الشيء معلوم عند الله قبل إبداعه وقبل توجيه الخطاب إليه وقبل كل شيء؛ لأنه قدّره قدرًا مقضيًّا، وكتبه عنده في اللوح المحفوظ).

* وهذا الثبوت العلمي هو المراد من قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾} [النحل].

ولمزيد من التوضيح:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال رسول الله ﷺ: «**كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ:**

وَعَرْشُهُ علَى المَاءِ»[١].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه؛ قال رسول الله ﷺ: **«كانَ اللَّهُ ولَمْ يَكُنْ شيءٌ غَيْرُهُ، وكَانَ عَرْشُهُ علَى المَاءِ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كُلَّ شيءٍ، وخَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ»**[٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»**[٣].

نصوص كثيرة جدًّا تُبين الوجود العلمي الكلامي الكتابي، إذًا قدّر الله كل شيء وأمر القلم يكتبه؛ فهو مكتوب في اللوح المحفوظ وذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

- عندما يقول (كن) فهو خطاب للشيء المعلوم المكتوب فيصبح حقيقة موجودة، وبهذا فلن يكون المخاطب تحصيل حاصل، فالخطاب متوجه للإرادة التي أرادها الله وأثبتها الله في اللوح المحفوظ، فيُقال لها كن فيكون.

- إذًا فالمخلوق قبل أن يُخلق كان معلومًا مخبرًا عنه مكتوبًا، فهو شيء باعتبار وجوده العلمي الكلامي الكتابي، وإن كانت حقيقته

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٣).
(٢) صحيح البخاري (٣١٩١).
(٣) صحيح أبي داود (٤٧٠٠).

التي هي وجوده العيني ليس ثابتًا في الخارج.

- بل إن جميع المخلوقات لا توجد إلا بعد وجودها في العلم والإرادة أولًا، وعندما يقول الله (كن) يصبح موجودًا في الواقع.

- فإذا استطعنا التفريق بين الثبوت العيني والثبوت العلمي لفهمنا المسألة وزالت الشبهة.

قوله تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨}.

{وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ} سواء من أهل الكتاب أو غيرهم فاللفظ عام.

تجرأوا على الله الخالق واستكبروا على الرسل، فقالوا: لِمَ لا يكلمنا الله دون واسطة؟ {يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ... ١٥٣} [النساء] إلى غير ذلك من تكبرهم وتبجحهم وتعنتهم وعدم أخذ الأمر من الله بسكينة وطاعة، وكان هذا حالهم دائمًا.

شبهة: قد يقول قائل: لماذا بالفعل لم يكلمهم الله كلامًا مباشرًا بصوته كما كلّم موسى؟ أو تأتيهم علامة حسية خاصة بهم أمام أعينهم؟

الرد عليهم من وجوه:

١- يكفي المكلَّف والسعيد دليلًا واحدًا فقط لحصول اليقين، أما صاحب الهوى والشقيّ والمعاند فلا يكفيه ألف دليل؛ { وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَ لَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ... ﴿٥١﴾} [العنكبوت].

٢- الله يعلم مِن قلوبهم أنهم أهل عناد وجرم وإن أعطاهم البينات الواضحات {وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾} [الأنفال].

٣- كثرة المعجزات والآيات تقدح في كونها معجزة، فلا ينبغي للمعجزات أن تكون كثيرة متكررة.

{تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۘ} ومثل قولهم هذا قالته الأمم السابقة المكذِّبة من قَبلُ لرسلها، وإن اختلفت أزمنتهم وأمكنتهم، والآن العلمانيون والمعاندون يفعلون نفس الشيء، نفس الشُّبُهات ونفس الصفات.

{قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ} فأهل العلم وأهل البصيرة وأهل اليقين هم الذين إذا ظهرت لهم الآيات البينات الواضحة لا يعتريهم شك، ولا يمنعهم عناد.

سؤال: كيف الجمع بين قوله تعالى في هذه الآية أن الآيات البينات للموقنين، وبين قوله تعالى { هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ.. ﴿١٣٨﴾} [آل عمران] ومثلها بعض الآيات التي تبين أن الآيات البينات للناس

جميعًا؟ فهل هي للموقنين فقط أم لعامة الناس؟

الجواب: البيان للجميع لكن الانتفاع خاص بالمتقين الموقنين الذين لم يخالطهم شك ولا ريب؛ فهؤلاء هم المنتفعون بالآيات.

قوله تعالى: {إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩}.

جملة معترضَة بيّنت حال المشركين وأهل الكتاب، وفيها إيناس للنبي ﷺ بما لاقاه من ألم وتعب، وأسفه على عدم استجابة أهل الكتاب له؛ فأنت قد بَلّغت الرسالة على أكمل وجه ولن يسألك الله عن الذين لم يؤمنوا بك من أصحاب الجحيم، فليس عليك إلا البلاغ المبين، وفي الآية تمهيد للتيئيس من اليهود والنصارى؛ لأنه قال في نهاية الآية إنهم أصحاب الجحيم.

{إِنَّآ} الضمير للعظمة.

{أَرۡسَلۡنَٰكَ} فيها تشريف للنبي ﷺ بتوجيه الخطاب إليه مباشرة.

{بِٱلۡحَقِّ} الإسلام والقرآن، والنور المبين الذي جاء به النبي ﷺ شريعة ملك الملوك التي لا يوجد ما هو أحسن ولا أعظم منها.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ
مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي
جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى
ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ
وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ
فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي
ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ
مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ
وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ
مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا
ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ ﴾

{وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ} آيات في بيان شدة شكيمة اليهود والنصارى، فهُم أشد من المشركين عنادًا وإصرارًا على المخالفة والشقاق.

تبين الآيات أن الرسول ﷺ قدّم كل ما لديه، وانزاحت العلّة من قِبَله، وليس لهم عذر في إصرارهم على الكذب والتكذيب.

ففي الآيات قطْع الطمع والإياس من استجابتهم للنبي ﷺ، فلن يرضوا سواء خليت بينهم وبين دينهم الذي حرّفوه، أو أن تكون مسلمًا ومعك القرآن وأن يظلوا كما هم على ملتهم المحرَّفة ويتم التعايش في سلام! فلن يرضوا عنك أبدًا حتى لو فعلت هذا؛ لأنهم أصرّوا وتشدّدوا في طلب الباطل حتى أنهم يريدونك أن تتبعهم. وهذا يدل على شدة عداوتهم للنبي ﷺ.

{وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ} لا النافية بين معطوفين تأكيدًا لهذا النفي؛ فلم يقل (ولن ترضى عنك اليهود والنصارى) بل قال (ولا النصارى) لتأكيد أنه لا يمكن أن يقع هذا الرضا عنك من قِبَل اليهود أو النصارى.

فلن يرضى اليهود عن النبي ﷺ إلا بثلاثة أمور:

١- ترك الإسلام. ٢-الكفر بالنصرانية. ٣-الإيمان باليهودية.

ولن يرضى النصارى عن النبي ﷺ إلا بثلاثة أمور:

١- ترك الإسلام. ٢-الكفر باليهودية. ٣-الإيمان بالنصرانية.

فائدة:

أهل الباطل (عصاة المسلمين) لن يرضوا عن أهل الحق حتى يستجيبوا لطريق المعصية!

{قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ} قل يا محمد ﷺ مجيبًا لهم - في عدم رضاهم وعنادهم- إن هدى الله هو الهدى.

{هُوَ} ضمير فصل يفيد الحصر؛ فكأنه حصر الهداية في الإسلام وليست اليهودية ولا النصرانية ولا أي شيء غير دين الله تبارك وتعالى.

{وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ} الآية بها أسلوب قسم وأسلوب شرط، وعندما يجتمعان يُحذف الجواب المؤخر منهما.

{وَلَئِنِ} اللام للقسم والتقدير أي (والله لئن اتبعت أهواءهم). وجواب القسم هو {مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ}.

أداة الشرط (إنْ) في (لئن)، أما جواب الشرط؛ قيل: إما محذوف. وقيل: لا يُحتاج لجواب الشرط لإتمام الكلام (هذا هو الراجح).

ومعنى الآية: أي إن اتبعت أهواءهم الزائغة الصادرة عن شهوات النفس والعناد والكفر بعد أن أتاك الدين الحق المُنزّل عليك بالوحي ليس لك من مُعِين يعصمك أو يذب عنك. والخطاب لأمته

أَوْلى.

سؤال: هل يجوز الخطاب للنبي ﷺ بهذه الصورة، وهل معناه أنه من الممكن أن يقع منه مثل هذا؟!

الجواب: يجوز لأن هناك قاعدة تقول: (الشرط لا يستلزم منه وقوع المشروط) وقد سبق التفصيل فيها.

{بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ} الجملة تدل على مسألة عظيمة: أن الله سبحانه وتعالى لا يعاقب أحدًا إلا بعد نصب الأدلّة وبيان الحُجة، ورفع الجهل عنه.

ولا يقع الوعيد من الله تعالى على العبد إلا إذا جاءه العلم والحق ولم يتَّبعه !وأيضًا تدل الآية على أن الإنسان لا يُكلّف ما لا يُطاق، وذلك خلاف الأشاعرة الذين يقولون إن الله يمكن أن يكلّف العبد ما لا يُطاق عقلًا!! وهو مخالف لأهل السنة.

{وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم} اتّباع الهوى خطير يضل صاحبه، ومتّبع الهوى ضالّ مُضِلّ؛ قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص].

قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾}.

مَن المقصود بـ {ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ}؟ للعلماء قولان:

القول الأول: هم (المؤمنون) الذين أعطاهم الله القرآن. وأدلة هذا القول:

١- أن قوله ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ فيه الحث والترغيب على الثواب لمَن يتلو كتاب الله عز وجل، وهذا المدح لا يكون على التوراة والإنجيل؛ لأنهما محرّفان.

٢- أن الله عز وجل يمتدح المؤمنين بتلاوة القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ... ﴿٩٢﴾﴾ [النمل] والآيات كثيرة في ذلك.

٣- قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يدل على حصر الإيمان في هؤلاء.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فالكتاب (القرآن) هو الذي يليق به ويجوز فيه هذا القول، وأن مَن يكفر به يكون خاسرًا، وليس الإنجيل ولا التوراة لأنهما محرفان.

القول الثاني: هم (مَن آمنوا بالنبي ﷺ من اليهود).

والدليل على هذا القول أن في الآيات السابقة لمّا بيّن مساوئ اليهود والنصارى؛ ذكر منهم فريقًا يؤمنون بالتوراة وتبعًا لذلك آمنوا بالنبي ﷺ ومدحهم على ذلك، وليس على تلاوة التوراة المحرَّفة! فهذا الفريق آمن بالنبي ﷺ وصدّق التوراة والإنجيل وما جاء فيهما

من نعوت النبي ﷺ ونبوته؛ ولمّا جاء القرآن آمن به على الوجه الأكمل وآمن بكل الرسل.

وللرد على القول الأول:

أنّ التلاوة التامة المطلقة تشمل تلاوة اللفظ والمعنى. إذًا تلاوة اللفظ جزء من التلاوة التامة (إجماع أهل التفسير). والدليل على ذلك قوله تعالى: {وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢} [الشمس] أي أن القمر اتبع الشمس في الطلوع بعد مغيبها. إذًا (تلاوة): اتّباع؛ أي: {يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ} يتّبعونه حق الاتباع.

{أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ} الذين آمنوا منهم ولم يُعرِضوا وعملوا بكل ما جاءهم في القرآن فهم الذين يؤمنون به، ومَن يكفر بالكتاب فهم أهل الشقاق والعناد والخسران.

{هُمُ} ضمير حصر وتوكيد. حصر الخُسران في هؤلاء الذين كفروا بالكتاب وكفروا بالتوراة عندما كفروا بالنبي ﷺ، فقد خسروا خسرانًا مبينًا.

قوله تعالى: {يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝١٢٣}.

تقدّم نظيرها في بداية السورة، والتكرار للتأكيد والحثّ على

اتّباع النبي ﷺ والإيمان به، ومن باب التأكيد على شكر النِّعَم وترك المعاصي والإذعان إلى أوامر النبي ﷺ وترك الحسد.

- وهناك قول آخر لبعض أهل العلم: (أن هذه الآية جاءت لمّا طالت المدة ببني إسرائيل فذكّرهم الله تعالى بالنِّعم مرة أخرى وليست للتأكيد)؛ واعترض جماهير المفسرين على هذا القول! فلو كان هذا القول صحيحًا فالأولى تذكيرهم بالوفاء بالعهد وعدم تكذيبهم رسل الله في قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾ [البقرة]؛ إذًا ليس هذا لطول المدة وإنما للتوكيد، ولتكرار الآيات في القرآن فوائد كثيرة منها بالفعل التأكيد.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾.

يذكرهم بالأمور والأشياء التي حدثت في الأمم السابقة؛ والمقصد من ذلك تخويفهم وتحريضهم على قبول شريعة نبيه ﷺ.

﴿وَإِذِ﴾ فيها مضمر محذوف؛ أي اذكروا وقت ما حدث كذا وكذا في الأمم السابقة لعلهم ينزجروا ويرتدعوا.

﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ مفعول به، ﴿رَبُّهُۥ﴾ إضافة لربوبية خاصة، و(رب): فاعل وهنا يجب تقديم المفعول به على الفاعل؛ لأن الفاعل يتصل به

ضمير يعود على المفعول؛ ومن الناحية البلاغية فقد تم تقديم المفعول به على الفاعل للاهتمام.

والعبودية تكون عامة وخاصة، وكذلك الربوبية: عامة وخاصة؛ فالربوبية العامة: رب جميع الخلق. والربوبية خاصة: العناية والرعاية الخاصة لصاحبها.

{بِكَلِمَٰتٖ} هي: كلمات كونية شرعية.

ما هي هذه الكلمات؟ للعلماء أقوال كثيرة:

- **قيل**: عندما دعا إبراهيم قومه فأبَوْا إلا العصيان وكذلك عصاه أبوه؛ فهاجر وتركهم (وهذا أمر شديد).

- **وقيل**: مناظرته للنمرود الجبار ووقوفه أمامه (وهذا أمر ليس بهيّن).

- **وقيل**: الصبر على قذفه في النار.

- **وقيل**: أُمِر بإكرام الضيوف وصبر على ذلك مع جهله بهم.

- **وقيل**: أُبتلي بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

- **وقيل**: ابتلاه اللَّهُ بالطَّهارة في الرأس وفي الجسد؛ ومن ذلك: قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك.

- **وقيل**: أُبتلي بالاختتان بقدّوم من حديد وهو في الثمانين من عمره.

- **وقال بعض أهل العلم**: الإسلام ثلاثون سهمًا منها عشر آيات في سورة التوبة ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ....﴾ إلى آخر الآية، ومنها عشر آيات في سورة (المؤمنون) و(المعارج)، ومنها عشر آيات في سورة (الأحزاب) ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَـٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ وَٱلۡقَـٰنِتِينَ وَٱلۡقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ...﴾ إلى آخر الآية.

- **وقيل**: قد قام إبراهيم عليه السلام بكل ما جاء في هذه السور وأتمها على أكمل وجه.

هل يوجد دليل على حصر الكلمات في أي مما سبق؟

ذهب أكثر أهل العلم من أهل السنة والمفسرين أنه لا يتم قصر الكلمات في واحدة فقط مما سبق؛ لأن الطاعة عنده كانت مطلقة وعلى أتم وجه؛ قام بتنفيذ كل ما أُمِر به، وترك كل ما نُهي عنه، ولِم لا وقد اصطفاه الله من بين الرسل فهو من أولي العزم من الرسل وإمام الموحدين.

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أتم كل الشرائع التي أُمر بها. والنبي إبراهيم عليه السلام له مكانة عظيمة حتى أن الطوائف الثلاثة - خلاف المسلمين - كانوا في نزاع عليه؛ اليهود والنصارى والمشركون؛ كلُّ طائفة منهم تنسب إبراهيم عليه السلام لنفسها! فكذَّبهم القرآن فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصۡرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسۡلِمًا وَمَا كَانَ

مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧} [آل عمران].

وسبب ابتلاء الله عز وجل للعباد ليحصل به البيان؛ فالله يعلم عباده ولكن ليتبيّن الصادق من الكاذب، فالكاذب تزلّ قدمه عند الابتلاء.

{قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ} قال بعض العلماء: إن إبراهيم عليه السلام ابتلي بالإمامة من أول الأمر، وأن هذه هي الكلمات!! وهو قول ضعيف ومرجوح، فلماذا؟ لأن الإمامة في الدين مقام عظيم وما أُعطيت إبراهيم إلا بعد أن أتمّ الكلمات والأوامر أولًا على أكمل وجه وبعد تضحيات عظيمة!

فائدة:

الإمامة في الدين لا تُنال إلا بعد الصبر وبذل الجهد والعطاء (بشرط الإخلاص) وإلا يكون العمل هباءً منثورًا؛ قال تعالى: {وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤} [السجدة].

{قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي} إبراهيم عليه السلام النبي الكريم إمام الموحدين لمّا علم أن الله أعطى له هذه المنزلة (الإمامة) بين الناس؛ طلب أن يصل الخير لجميع ذريته.

{قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ} العهد المقصود به الإمامة في

الدين ولا يمكن ظالم لنفسه أن يكون له مكانة في الدين؛ بالرغم من تمني إبراهيم ذلك الخير لذريته!ولكن الله حكيم خبير يعلم مَن يستحق الإمامة ومَن لا يستحق.

وذريّة إبراهيم منهم المحسن ومنهم الظالم، والدليل قوله تعالى:{ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾} [الصافات].

وأجمع العلماء على أنّ جميع الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام من ذريته، والدليل قوله تعالى: { وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾} [العنكبوت]. وهذا تشريف آخر لإبراهيم عليه السلام!

وقفة:

(الأنساب لن تنفع العبد) بدليل أن بني إسرائيل من ذرية إبراهيم عليه السلام ومع ذلك منهم من جحد وعاند وكفر!

قوله تعالى: { وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾}.

يبيّن الله تعالى شرف البيت وكيف أن له صفات شرعية وقدرية.

{مَثَابَةً لِّلنَّاسِ} للعلماء أقوال في كلمة (مثابة):

- **منها**: من الثواب يُثابون عند البيت.

- **وقيل**: مكان يجتمع فيه الناس في الحج والعمرة.

- **وقيل**: المثابة هي المَرجِع؛ فمَن يزوره يشتاق الرجوع إليه.

{وَأَمۡنٗا} سؤال: كيف الجمع بين عدم الأمن في بعض الفترات من الزمان لبيت الله الحرام، والأمن الذي ذُكر في الآية؟

الجواب: الأمن هنا في الآية محمول على الأمر (أمر شرعي) بتأمين حجاج وزوّار بيت الله الحرام، والأمر الشرعي فيه خيار للعبد قد يفعله أو لا يفعله. فَأَمَر كل مسلم أن يُؤَمِّن الحجاج والمعتمرين وكل مَن جاء لزيارة البيت الحرام، ورتَّب العقوبة الشديدة على كل مَن أراد العصيان والظلم أو أي فعل خطأ تجاه بيته الحرام؛ قال تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥} [الحج]؛ يُرِد فيه بإلحاد: فإرادة الميل والظلم في البيت الحرام عقوبتها العذاب الأليم؛ فكيف بمَن فعل الجرائم والمعاصي في بيته الحرام!

{وَٱتَّخِذُواْ} هنا محذوف تقديره (وقلنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى).

{مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى} ما هو مقام إبراهيم؟ للعلماء أقوال:

- **قيل**: الحَرَم كله.

- **وقيل**: الحج (كل مناسك الحج من الطواف والسعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمرات... وغيرها) فكلها أقام فيها إبراهيم عليه السلام.

- **وقيل**: الحَجَر الذي وقف عليه إبراهيم عليه السلام لبناء الكعبة، والذي اتخذ منه مكانًا للصلاة خلفه متجها للقبلة (وهو الراجح).

{مُصَلًّى} أي يُصلي في هذا المكان.

مسائل في مقام إبراهيم:

١ـ لا يجوز التمسّح ولا التبرّك به، فلم يفعلها النبي ﷺ ولا أصحابه.

٢ـ سُنة الطواف: الصلاة ركعتان خلف المقام (على الاستحباب)، ولكن ليس هناك إشكال بالصلاة في أي مكان يتيسّر لك في الحرم كله.

٣-وواجب على النساء ألا تزاحم الرجال لتصلي خلف المقام أو لتقبّل الحجر وإلا تأثم، فواجب على المرأة أن تستتر من الرجال، والواجب مقدّم على المستحب.

{وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ} أوحينا إليه وأمرناه، والعهد هنا بمعنى الأمر.

{بَيْتِيَ} أضاف الله تعالى البيت إليه إضافة تشريف.

{أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ} للعلماء أقوال:

- **قيل**: يُطهّر من الأصنام والأوثان من زمن نوح عليه السلام، (وليس عليه دليل)؛ لأنه لا دليل على أن هذه الأصنام كانت عند الكعبة.

- **وقيل**: إن الله تعالى أمر الخليل إبراهيم أن يبني الكعبة على نية ومقصد الطهارة من الشرك والريب؛ كقوله تعالى: { أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾} [التوبة].

{لِلطَّآئِفِينَ} **قيل**: الغريب الذي يريد الطواف. **وقيل**: أي أحد أراد الطواف، فالقول هنا عام (وهذا هو الراجح).

{وَٱلْعَٰكِفِينَ} العكوف هو القيام في الشيء. **قيل**: (العاكفين) من أهل الحرم وأهل البلد. **وقيل**: كل مَن عكف في المسجد الحرام (وهو القول الراجح)؛ لأن الأخذ باللفظ على ظاهره أولى من تأويله.

{وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ} السجود لا يكون إلا بعد قيام؛ فلماذا لم يُذكر (القيام)؟

لأن من المعلوم أن الركوع والسجود لا يكونا إلا بعد قيام.

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾}.

سأل الخليل الله عز وجل أن يُؤَمِّن البلد (مكة) كلها والبيت من الرعب والخوف، واستجاب الله تعالى لدعوة خليله. فجعل البلد أمانًا، فإن قال قائل: وما نراه الآن هناك من حوادث؟ فالرد على هؤلاء أن إبراهيم عليه السلام منذ أن بنى البيت إلى الآن مدة طويلة جدًّا، فإذا حدثت أشياء قليلة لا ينتفي عنه الأمان، بل الغالب في هذه المدة كلها أن البيت كان آمنًا.

{وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ} قيل: إن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يكون الرزق والثمرات خاصًّا بأهل هذه البلد للذي آمن منهم فقط دون الكافرين.

{مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ} الله تعالى اقتصر في متعلق الإيمان بذكر المبدأ والميعاد؛ لأن أكثر قضية عند مشركي العرب وغيرهم هي عدم الإيمان بالبعث.

{قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ} عندما طلب إبراهيم اختصاص رزق هذا البلد بأهله المؤمنين قال الله تعالى {وَمَن كَفَرَ} وذلك من عظيم إحسانه وفضله على عباده شمل الكفار أيضًا بالرزق لكن في الدنيا فقط،

ولهم في الآخرة العذاب الشديد الأبدي إذا أصرُّوا على كفرهم وعنادهم، قال تعالى { كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠} [الإسراء]. فمتاع الكافر ليس علامة رضا من الله، بل له في الآخرة عذاب أليم وبئس المصير إن أصرّ على كفره.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ
رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ
وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرۡغَبُ عَن
مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ
لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ
حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ
إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ
مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا
تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

الآية فيها معانٍ كثيرة وعظيمة كشأن القرآن كلّه؛ {وَإِذۡ يَرۡفَعُ} الفعل مضارع، بالرغم من أن القصة في الماضي.. فلماذا؟ قال العلماء: صياغة القصة الماضية في سياق المضارع يعطي استحضارًا للقلب لمعاني القصة، والاقتداء بإبراهيم وإسماعيل فيما قاما به من طاعات شاقّة جدًّا ومع هذا كانا في حال من الابتهال والخوف والوَجَل وهما يعملان ببناء البيت الحرام الذي سيكون مقصد الموحدين إلى أن تقوم الساعة.

{ٱلۡقَوَاعِدَ} جمع قاعدة، وهو الأساس الذي سيقوم عليه البيت، وكلما كان هذا الأساس قويًّا كان البناء قويًّا.

فائدة:

العلم الشرعي إذا كان له أصل ثابت وقوي فإنه يُصلح صاحبه ويقوده إلى الحق واتباعه، ويزجره عن الباطل. وإن كان العلم غير صحيح ولم يُوضع على أسس صحيحة سيضل صاحبه ويقع في مزالق ولا بُد؛ لذلك قال العلماء: (مَن حُرم الأصول حُرم الوصول) فلا بُد أن يكون لديك أصل في كل العلوم الشرعية حتى أستطيع أن أبني عليها.

{رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ} أي تقبل منا هذا العمل الصالح، وهذا هو الأصل؛ فالأعمال ليست بكثرتها ولكن الأهم: ماذا قبِلَ الله عز وجل منها؟! وهذا حال العقلاء في محاسبة النفس!

فإبراهيم وإسماعيل كانا يعلمان هذا الأمر؛ ولهذا لم يفرحا بعملهما؛ فقد يدخل على العمل آفة تُذهِب بثوابه، فلا يُقبَل من العبد! ومن الممكن أن يعمل عملًا قد يكون فيه عُجب أو رياء أو يدخل فيه بدعة (ليس على هدي النبي ﷺ)؛ فلا يُقبل، ويُردّ؛ ولذلك يجب أن يكون حال المؤمنين في كلّ حين: الوَجَل والخوف من عدم القبول؛ كان أحد السلف الصالح يقرأ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فيقول: إبراهيم وإسماعيل يرفعان قواعد بيت الرحمن -أعظم عمل- وهما مشفقان ألا يُتقبّل منهما؟! وهذا حال المؤمنين؛ قال تبارك وتعالى في شأنهم: {وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠} [المؤمنون].

فالعمل لا بد أن يكون فيه إخلاص وتواضع لله، وانعدام المَنّ به، وعدم رؤيته، والعُجب به (فاحذر!).

{رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ} الجملة تعليلية؛ معناها: يا ربّ نسألك أن تقبل منّا؛ لأنّك أنت السميع العليم. والسمع يأتي على معنيين:

١ـ إدراك الأصوات2 ـ الإجابة.

ـ والآية تحمل المعنيين؛ أي أنك أنت المجيب لدعائنا، العليم بنياتنا وأعمالنا.

{رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآ} مؤكَّدة بمؤكدين: إنّ في {إِنَّكَ}، وضمير الفصل {أَنتَ}؛ ضمير يفيد التوكيد والحصر، وليس له محل من

الإعراب.

فالله عزيز لا يقبل عملًا به حظ نفس، ولا يقبل إلا ما كان خالصًا لوجهه تبارك وتعالى.

قصة بناء البيت كما رواها البخاري في صحيحه

الحديث في البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: **أَوَّلَ ما اتَّخَذَ النِّسَاءُ المِنْطَقَ مِن قِبَلِ أُمِّ إسْمَاعِيلَ؛ اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا علَى سَارَةَ ....**

*المِنْطَقَ: قماشة يُلَف بها وسط المرأة، وتكون طويلة فتزيل أثر الأقدام إذا مشت بها على الرمال.

- وكان السبب في ذلك أن سارة كانت أهدت هاجر لإبراهيم فحملت منه بإسماعيل، فلمّا ولدته غارت منها؛ فاتخذت هاجر منطقًا فشددت به وسطها وهربت - خوفًا من سارة أن تلحق بها الضرر- (وهذا بالطبع لن يحدث من سارة)، وجرّت ذيلها - أي أطالت ثوبها - لتخفي أثرها على سارة.

(ثُمَّ جَاءَ بهَا إبْرَاهِيمُ وبِابْنِهَا إسْمَاعِيلَ وهي تُرْضِعُهُ، حتَّى وضَعَهُما عِنْدَ البَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ في أَعْلَى المَسْجِدِ، وليسَ بمَكَّةَ يَومَئذٍ أَحَدٌ، وليسَ بهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُما هُنَالِكَ، ووَضَعَ عِنْدَهُما جِرَابًا فيه تَمْرٌ، وسِقَاءً فيه مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا،...).

*الدوحة: الشَّجَرَة الْكَبِيرَة، تنتشر في الصحراء. *السِّقَاء: قِرْبَة صَغِيرَة. *ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا أَيْ: وَلَّى رَاجِعًا.

- وشرح الحديث: أن إسماعيل وُلد في الشام في بيت المقدس، فأخذ إبراهيم هاجر وإسماعيل إلى مكة عند البيت الحرام - وقد كان وقتها مجرد بقايا لقواعد بسيطة بعد أن جاء الطوفان في زمن نوح عليه السلام- وتركهما عند شجرة عند زمزم أعلى المسجد، فوضعهما هناك ومعهما جراب به تمر وماء ولم يكن هنالك أحد، ثم عاد إلى الشام.

(فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ: يا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وتَتْرُكُنَا بهذا الوَادِي الَّذي ليسَ فيه إنْسٌ ولَا شَيْءٌ؟ فَقالَتْ له ذلكَ مِرَارًا، وجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إلَيْهَا، فَقالَتْ له: آللَّهُ الَّذي أَمَرَكَ بهذا؟ قالَ: نَعَمْ، قالَتْ: إذَنْ لَا يُضَيِّعُنَا،..).

وهذا يقين المرأة الصالحة هاجر -عليها السلام- بربّها. فلنتعلّم من يقين امرأة تقطّعت بها الأسباب هي ورضيعها، في صحراء لا تخلو من السباع وغيرها من المهلكات، وبالرغم من ذلك سمعتْ وأطاعتْ أمر ربّها بيقين.

وقفة:

جملة هاجر: «إذن لا يضيّعنا» فلنتخذها منهج حياة؛ لتطمئن قلوبنا وتسعد نفوسنا في الدنيا والآخرة!

إذا أمرك الله فلا تتكاسل ولا تتقاعس ولا تتخاذل مع أوامر الله؛ بل نفّذ أمره بكل قوّة ويقين فلن يضيّعك الله.

لا بد من رسوخ اليقين في القلب وإلا سيظل العبد متعبًا في الدنيا بالتخبط ولن تتثبت قدمه على الطاعة.

(ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إبْرَاهِيمُ حتَّى إذَا كانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بوَجْهِهِ البَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بهَؤُلَاءِ الكَلِمَاتِ، ورَفَعَ يَدَيْهِ فَقالَ: {رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} حتَّى بَلَغَ: {يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: ٣٧]...).

*ثنيّة: مكان مرتفع عالٍ. *غير ذي زرع: عدم وجود زرع دلالة على عدم وجود الماء.

(وجَعَلَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إسْمَاعِيلَ وتَشْرَبُ مِن ذلكَ المَاءِ، حتَّى إذَا نَفِدَ ما في السِّقَاءِ عَطِشَتْ وعَطِشَ ابنُهَا، وجَعَلَتْ تَنْظُرُ إلَيْهِ يَتَلَوَّى -أوْ قالَ: يَتَلَبَّطُ- فَانْطَلَقَتْ كَرَاهيةَ أنْ تَنْظُرَ إلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أقْرَبَ جَبَلٍ في الأرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عليه، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هلْ تَرَى أحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حتَّى إذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإنْسَانِ المَجْهُودِ حتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا ونَظَرَتْ هلْ تَرَى أحَدًا؟ فَلَمْ تَرَ أحَدًا، فَفَعَلَتْ ذلكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ -قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: قالَ النَّبيُّ ﷺ: فَذلكَ سَعْيُ النَّاسِ بيْنَهُما- فَلَمَّا أشْرَفَتْ

عَلَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَهٍ -تُرِيدُ نَفْسَهَا-، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ -أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ- حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ -أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ- لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا..).

* يَتَلَبَّطُ: يخرج لسانه من شدة الجوع والعطش. *الملك: جبريل عليه السلام. *قال بِجَنَاحِهِ: كلمة (قال) عند العرب تعني القول والفعل. *عَيْنًا مَعِينًا أي: عينًا جارية على سطح الأرض.

(قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ؛ فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ، وَكَانَ البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ -أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ- مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي المَاءِ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ

النَّبيُّ ﷺ: فألْفَى ذلكَ أُمَّ إسْمَاعِيلَ وهي تُحِبُّ الأُنْسَ، فَنزَلُوا وأَرْسَلُوا إلى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا معهُمْ، حتَّى إذَا كانَ بهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ منهمْ، وشَبَّ الغُلَامُ وتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ منهمْ، وأَنْفَسَهُمْ وأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً منهمْ، ومَاتَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إبْرَاهِيمُ بَعْدَما تَزَوَّجَ إسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عنْه، فَقالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، ثُمَّ سَأَلَهَا عن عَيْشِهِمْ وهَيْئَتِهِمْ، فَقالَتْ: نَحْنُ بشَرٍّ، نَحْنُ في ضِيقٍ وشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إلَيْه، قالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عليه السَّلَامَ، وقُولِي له: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إسْمَاعِيلُ كَأنَّهُ آنَسَ شيئًا، فَقالَ: هلْ جَاءَكُمْ مِن أَحَدٍ؟ قالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيخٌ كَذَا وكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فأخْبَرْتُهُ، وسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فأخْبَرْتُهُ أنَّا في جَهْدٍ وشِدَّةٍ، قالَ: فَهلْ أَوْصَاكِ بشَيءٍ؟ قالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ، قالَ: ذَاكِ أَبِي، وقدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عنْهمْ إبْرَاهِيمُ ما شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ علَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عنْه، فَقالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا، قالَ: كيفَ أَنْتُمْ؟ وسَأَلَهَا عن عَيْشِهِمْ وهَيْئَتِهِمْ، فَقالَتْ: نَحْنُ بخَيْرٍ وسَعَةٍ، وأَثْنَتْ علَى اللَّهِ، فَقالَ: ما طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ: اللَّحْمُ، قالَ: فَما شَرَابُكُمْ؟ قالَتِ: المَاءُ. قالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لهمْ في اللَّحْمِ والمَاءِ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: ولَمْ يَكُنْ لهمْ يَومَئذٍ حَبٌّ، وَلَو كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ. قالَ: فَهُمَا لا يَخْلُو عَلَيهِمَا أَحَدٌ بغيرِ مَكَّةَ إلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ، قالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ

فَاقْرَئِي عليه السَّلَامَ، ومُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِن أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وأَثْنَتْ عَلَيهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فأخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فأخْبَرْتُهُ أنَّا بخَيْرٍ، قَالَ: فأوْصَاكِ بشَيءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هو يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، ويَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ، قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ، ثُمَّ لَبِثَ عنْهمْ ما شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذلكَ وإسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِن زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إلَيْهِ، فَصَنَعَا كما يَصْنَعُ الوَالِدُ بالوَلَدِ والوَلَدُ بالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إسْمَاعِيلُ، إنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بأَمْرٍ، قَالَ: فَاصْنَعْ ما أَمَرَكَ رَبُّكَ، قَالَ: وتُعِينُنِي؟ قَالَ: وأُعِينُكَ، قَالَ: فإنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا، وأَشَارَ إلى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ علَى ما حَوْلَهَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذلكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إسْمَاعِيلُ يَأْتي بالحِجَارَةِ وإبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حتَّى إذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ، جَاءَ بهذا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ له فَقَامَ عَلَيهِ، وَهُوَ يَبْنِي وإسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وهُما يَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧]، قَالَ: فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ وهُما يَقُولَانِ: {رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧].

قوله تعالى: { رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ }.

دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لأنفسهما وذريتهما

بالإسلام؛ الإسلام الحقيقي الذي يكون أصله خضوع القلب والانقياد للربّ، وخضوع القلب وانقياده لله ويقينه لا بُد أن ينعكس أيضًا على الجوارح؛ فالإيمان يشمل كليهما معًا.

رَبَّنَا **لماذا حُذف حرف النداء؟** للعلماء أقوال:

قيل: للبَدَاءة بالمدعو وهو الله سبحانه وتعالى. **وقيل**: أُسقط حرف النداء لأن إبراهيم من المقربين. **وقيل**: من آداب الدعاء.

وهذه الأقوال لعلماء معتبرين.. ولكن لا نستطيع القول بأنها (قاعدة مطردة)؛ لأنه جاءت أحاديث في السنّة تدل على خلاف هذا، فيمكن أن يكون الإنسان من المقربين ويستعمل حرف النداء عند الدعاء.

والدليل على ذلك: في دعاء إبراهيم عليه السلام يوم القيامة في سياق تودده إلى ربه أن يعفو عن أبيه؛ ففي الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«يَلْقَى إبْراهِيمُ أَبَاهُ، فيَقولُ: يا رَبِّ إنَّكَ وعَدْتَنِي أنْ لا تُخْزِيَنِي يَومَ يُبْعَثُونَ،...»** [(١)]. استعمل حرف النداء عند الدعاء والتودّد إلى الله عز وجل.

وفي حديث الشفاعة: قال رسول الله ﷺ: **«فأرْفَعُ رَأْسِي، فأقُولُ: أُمَّتي يا رَبِّ، أُمَّتي يا رَبِّ، أُمَّتي يا رَبِّ،..»** [(٢)].

---

(١) صحيح البخاري (٤٧٦٩).
(٢) صحيح البخاري (٤٧١٢).

فقال (يا رب) وهو النبي ﷺ! إذًا الاجتهاد لا يقدّم على النص، فالاجتهاد مقابل النص باطل؛ وقد جاءت النصوص الصحيحة بجواز عدم حذف حرف النداء عند الدعاء.

في الآية الكريمة قال: (رَبَّنَا) ولم يقل: (يا الله)، فلماذا؟ لأن العطاء متعلّق بالربوبيّة؛ المُلك والتدبير، لذلك قال تعالى (رَبَّنَا)، بينما اسم الجلالة (الله) متعلّق بالألوهية وهي العبادة من العبد إلى الرب.

{رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ} هل هما غير مُسلمَيْن؟! بالطبع لا؛ فهذا إمام الموحدين وولده، ولكنها هنا تعني: يا رب ثبتنا على الإيمان وعلى الإسلام حتى نلقاك.

وكلمة (إسلام) إذا أُطلقتْ تشمل الدين كله؛ الإيمان والإسلام والإحسان، وإذا اجتمعا الإيمان والإسلام فلكلٍّ منها معنى. وفي الآية الكريمة جاءت {مُسۡلِمَيۡنِ} مطلقة فتشمل الثبات على الإيمان والإسلام.

{وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ} دعا للذريّة أن تنال هذا الفضل العظيم والثبات على الأمر وأن تكون مسلمة ولا تحيد عنه حتى تلقى الله؛ كما قال يوسف في قوله تعالى: {تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١} [يوسف] فهو دعاء الأنبياء، وأي عاقل لا بد أن يدعو بالثبات على الإسلام والتوحيد؛ لأنه لا يكون ذلك إلا بتوفيق الله وتثبيته للعبد.

{وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا} طلب من الله أن يريه -على وجه المشاهدة والظهور المناسك. لكن ما معنى {مَنَاسِكَنَا} النُّسُك يشمل العبادة والتعبّد كلّه، ولكن كلمة (مناسك) أُطلقت إطلاقًا عُرفيًّا على أعمال الحجّ.

{وَتُبْ عَلَيْنَآ} أي اللهم تجاوز عن سيئاتنا وتقصيرنا في طاعتك! خاف إبراهيم عليه السلام على نفسه من العجز والتقصير؛ فيطلبان التوبة وهما بصدد أشرف الأعمال وأجلّها وهو (رفع القواعد!).

فائدة:

من فوائد هذه الآية (التوبة إثر الحسنة)؛ فحتى بعد العمل الصالح (الحسنة) ينبغي التوبة والاستغفار؛ لأنه لا أحد يُجزم أنه أتى بالعمل على أكمل وجه، وقد جاءت نصوص كثيرة تدل على هذا المعنى: منها الاستغفار بعد الصلاة، وغيرها كثير سيأتي معنا لاحقًا إن شاء الله.

والتوبة لعوام المسلمين: ترْك الذنب، والعزم على عدم العودة، والندم، وردّ الحقوق للعباد (مالية أو مظالم) إن أمكن.

وتوبة المقربين كما قال العلماء: الرجوع من المكروهات، من خواطر السوء، من الفتور في العمل، من عدم أداء العبادة على أكمل وجه.

{إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} جملة تعليلية لتعليل الدعاء ومزيد استدعاء للإجابة. وقيل: تقديم التوبة على الرحمة لأنّها الأقرب، ولكونها أنسب بالفواصل.

قوله تعالى: { رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾}.

{رَبَّنَا} كُرر النداء لأنه: عطف غرض؛ فالخليل أراد غرضًا معيّنًا وهو مجيء رسول من ذريته ـ تشريفًا لهذه الذريّة ـ وحرصًا منه على هداية الخلق.

ولذلك جاء في الآية {رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ} ولم يقل: (وابعث لهم) فقد أراد أن يكون الرسول للجميع وليس لفئة معيّنة، وبالفعل استُجِيب له؛ فقد جاء نبينا ﷺ للجن والإنس، الأسود والأبيض العرب والعجم.

{يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ} يقرأ، تذكير للبيان أنه يأتي هذا الرسول الكريم بشريعة تُتلى، وفيها أحكام، وأتى بلفظ المضارع {يَتْلُواْ} إشارة إلى تكرار تلاوة الكتاب ليسمعوه ويعملوا ما فيه؛ فالتلاوة التامة المطلقة عند العلماء تعني أمرين:

١ ـ تلاوة اللفظ. ٢ ـ تلاوة المعنى؛ وتعني الاتِّباع (سبق ذكره).

{ءَايَٰتِكَ} كلمة (آية) أي: علامة، والقرآن علامة على صدق نبوة النبي ﷺ وأنه جاء من عند الله عز وجل؛ لأنه كان لا يقرأ ولا

يكتب. على أنه من عند الله؛ لأنه لا يستطيع بشرٌ الإتيان به.

* فنسيج القرآن فيه نسج ونظم عجيب، أعجز البلغاءَ وأبكم الفصحاء من فحول الشعراء - الذين كانت لديهم فصاحة اللغة - فما استطاع أحد أن يقول إنّ القرآن قول بشر إلا جاحد معاند اعترف حتى قبل أن يتفوّه بهذا القول بفصاحة القرآن.

{وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ} القرآن.

{وَٱلْحِكْمَةَ} عطف مغايرة، فلا بد أن تكون الحكمة غير الكتاب؛ ولذلك اختلف العلماء هنا وتنازعوا: فمنهم مَن قال: العلم بشريعة الله ومقاصدها، ومنهم من قال: السنة (قول الشافعي). وسنفصّل في هذا الأمر عند شرح قوله تعالى {يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ} في نفس السورة.

فائدة:

{وَيُزَكِّيهِمْ} وهذا طلب الخليل من الله تعالى؛ ومَن يتأمل ترتيب الآيات يجدها جاءت كما طلب إبراهيم عليه السلام تمامًا: يبعث رسولًا منهم (مبعث النبي ﷺ)، وبلّغ الرسالة، ثم يتلوا عليهم آياتك (تلاوة القرآن)، وعلّم القرآن للصحابة وأحكامه كما قال الله تبارك وتعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾} [القيامة]، وباتباعه تطهر النفوس، {ويزكيهم}؛ لأن التزكية للنفوس تأتي في النهاية.

كيف تُزَكّى النفس؟

تزكية النفس لا تأتي إلا بفهم معاني القرآن واتّباعه، فلا بد أن ينزل القرآن على القلب فيعالج به أمراضه؛ فيطهّر النفس من العُجب والرياء وحب الرئاسة والظهور والتعلّق بالدنيا، فإن لم تطهّر وتزكّى النفس بالقرآن.. فسيعيش الإنسان ويموت بأمراض القلوب!

{إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ} العزيز: القاهر القهّار الذي لا يُغلب ولا يغلبه أمر عظيم ولا يتعاظمه أمر ولا ينال جنابه أحد.

{ٱلْحَكِيمُ} الذي يضع الشيء في موضعه.

قوله تعالى: { وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾}.

{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ} استفهام للتقريع والتوبيخ لمَن سينصرف عن هذه الملّة - ملّة إبرهيم عليه السلام- السمحاء.

وبيَّن حال هذا المنصرف عن الملّة بقوله {إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ} قال العلماء: فيه استنكار واستبعاد لأولي العقول والألباب أن يرغبوا عن ملّة إبرهيم (الملّة الحق) الواضحة؛ ومَن يتركها يصبح من المعاندين المكابرين.

- وفيه تعريض بعناد الطوائف الثلاثة - اليهود والنصارى

والمشركين - الذين أصرّوا على الشقاق والخلاف وتركوا ملّة إبرهيم عليه السلام ولم يتبعوا النبي ﷺ.

{إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ} (السَّفَه) يختلف عن الجهل؛ لأن الجهل نوعان:

١- **(الجهل البسيط):** أن يجهل الإنسان شيئًا، وهذا ليس فيه منقصة ولا مذمّة؛ لأن من طبيعة الإنسان ألا يعلم كل العلوم، فالعلم الكامل لله عز وجل.

٢- **(الجهل المركّب):** وهو الذي فيه المذمّة والإشكال؛ لأن الإنسان يعتقد فيه أن الحق باطل، والباطل حق (يعتقد خلاف الواقع).

أمّا (السّفَه) فهو أصعب من الجهل لأنه يفوق الجهل البسيط والمركّب؛ فالسفيه يتحرّى بأفعاله ما تقتضيه عقيدته؛ فلا يعتقد في الباطل فقط بل ويسعى في هذا الباطل أيضًا!

- فالله وصف هؤلاء الطوائف الذين أعرضوا عن رسالة النبي ﷺ وعن ملّة إبرهيم بأنهم سفهاء؛ ولذلك قيل: إنها نقيصة؛ منقصة لأن الإنسان الذي لا يعرف حاله سَفِهَ نَفْسَه فقد جعلها مع الجهّال وزمرة الضُّلّال، لذلك هذا النوع من الإنسان لا يعرف مَن الله؟! ومَن خالقه؟!

{وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ} يبيّن الله تعالى حال الخليل إبراهيم

عليه السلام فقد اختاره من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة وتكثير الأنبياء من نسله؛ فكل الأنبياء من بعده من نسله عليه السلام -على القول الراجح - وجعل خاتم الأنبياء من ذريته.

كما أعطى له (الخلّة) وهي رتبة وشرف عظيم، وجعل البيت الذي بناه آمنًا يأتي إليه العباد من شتى بقاع الأرض ليعتمروا ويحجّوا ويؤدوا مناسكهم التي أمرهم الله بها.

{وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} وفي الآخرة لمن الصالحين ممن لهم الدرجات العلا، وهي أكبر دليل على فخامة الرتبة التي وصل إليها إبراهيم عليه السلام. فكل المناقب التي ذكرها الله في شأن إبراهيم في الدنيا كلها توجيه وترغيب في اتباع ملّته وتوبيخ وذم شديد لكل من أعرض عنه.

سؤال: الصلاح يكون في الدنيا (فنقول مثلًا هذا رجل صالح متعلقًا بالأعمال، أما في الآخرة فليس هناك تكليف! فلماذا ذُكر الصلاح هنا في الآخرة؟!

الجواب: نعم، يكون الصلاح في الدنيا، ولكن الله عز وجل أراد أن يبيِّن أنه اجتباه واصطفاه من دون الخلق وجعل له هذه الرتبة والدرجة العظيمة في الآخرة بسبب صلاحه وعمله الصالح في الدنيا، وهذا يبيّن أهميّة الأعمال.

قوله تعالى: { إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ

﴿١٣١﴾.

{إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ}: **قيل**: إن جملة {إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ} متعلّقة بجملة {وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} أي: اصطفاؤه في الدنيا وأنه من الصالحين بسبب أنه لمّا قال له ربنا: أسلِم، فأسلَم. **وقيل**: إنه متعلّق بمحذوف تقديره (اذكر إذ قال له ربه أسلِم)؛ أي اذكر يا محمد لقومك الحال التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، فقد كان إمام الموحدين، ولم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا، ولكن قال الله تعالى له أسلم فأسلَم.

{أَسۡلِمۡ} أي: انقاد لربك واستسلم له، واستقم على الإسلام واثبت على التوحيد.

فكلمة (الإسلام) جامعة لمعاني التوحيد والبراءة من الشرك والتبرؤ من الحول والقوة وإخلاص الطاعة والعبادة لله.

{قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ} مشعرة بالمبادرة الفورية بدون تردد؛ ويدل على سلامة القلب وسرعة الإجابة والاستجابة لأمر الله عز وجل، فيدل على عقل الخليل الرشيد الذي يعرف قدر الله عز وجل.

قوله تعالى: { وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾}.

{وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ} التوصية هي التقدّم إلى الغير بفعل

صلاح وقُربة، وتكون في حال الاحتضار غالبًا.

وهنا مدح آخر لإبراهيم عليه السلام؛ وهو انشغاله بالغير بالرغم من كمال عبادته؛ فوصّى أبناءه أن يكونوا على الإسلام.

{وَيَعْقُوبُ} بالرفع -وقراءة الرفع أولى- وفيها دلالة على أن قائل هذه الوصية اهتم بوصية أولاده أن يموتوا على الإسلام، وكذلك يعقوب بعده وصّى أبناءه أن يموتوا على الإسلام.

{إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ} إن الله عز وجل هو الذي اصطفى لكم هذا الدين، دين الإسلام والاستسلام لأوامر الله (دين التوحيد الذي دعا إليه كل رسل الله).

{فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} أي لا تموتوا إلا وأنتم على هذه الحالة (مسلمون).

سؤال: ما الحكمة أن يطلب منهم الإسلام وهم مسلمون؟!

الجواب: إذا طُلبت صفة من الإنسان وهو متلبّس بها وطُلبت منه ثانيةً؛ فيكون ذلك على وجه التأكيد؛ أي اثبتوا على الإسلام ولا تموتوا على غيره من الأحوال. فالموت على الإسلام مطلب والنبي ﷺ يقول: «**فمَن أَحبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهو يُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ..**» [١].

(١) صحيح مسلم (١٨٤٤).

قوله تعالى: { أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِىۖ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾}.

{أَم}: قال العلماء على وجهين:

الوجه الأول: (أم) الاستفهام لكلام مُستأنف (للاستئناف)؛ أي: (أكنتم؟) ومن عادة العرب السؤال (بأم الاستفامية) إذا سبقها كلام على وجه الاستفهام، كقوله تعالى:{ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ.....} [السجدة]؛ فأَم الاستفهاميّة هنا لكلام مُستأنف سبق السؤال.

الوجه الثاني: (أم) هنا بمعنى (بل) هل كنتم يا أهل الكتاب مع أسلافكم اليهود والنصارى حال احتضار يعقوب وجمعه لأولاده وسؤاله إياهم: ما الدين الذي أقررتموه؟ علامَ العنت وادعاؤكم على الأنبياء والرسل الأباطيل؟! فيه توبيخ وتقريع لحالهم وادعاءتهم الباطلة على رسل الله.

قوله تعالى:{ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾}.

{تِلْكَ أُمَّةٌ} إشارة إلى إبراهيم عليه السلام وأولاده وأنه قد مضى عهدهم وانتهى، ولن ينفع السؤال عنهم؛ لأن السؤال لن يخلو من حالتين:

١ـإما سؤال عن النسب. ٢ـأو سؤال عن العمل.

والسؤال عن النسب لن ينفع لأن (نسب الدين أعظم من نسب الماء والطين) كما قال العلماء. والسؤال عن العمل لن ينفع أيضًا لأن ما عملوه لن تُسأل أنت عليه! يقول الله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم]؛ فكل إنسان مسئول عن عمله ولن يأخذ أحد من عمل الآخر لا من السابقين ولا من غيرهم.

﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ الله لن يسألك عن أعمالهم ولكن يسألك عما أنت فيه؛ فلا تنشغلوا بما سبق، واعلموا أنّ النبي ﷺ جاء بالحق المبين، ومن لديه أدنى بصيرة عليه أن يتبعه؛ لأنه موافق لكل الشرائع السماوية ولملّة إبراهيم حنيفًا وما بين أيديكم من التوراة والإنجيل. ولكنهم لا يريدون الاتباع حسدًا وحقدًا وبغيًا وجهلًا.. فبيّن الله قلوبهم الميتة ونفوسهم المريضة فوبّخهم على ذلك.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ
مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ
وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ
أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ
ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ
عَٰبِدُونَ ١٣٨ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا
وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ
وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ
ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم
مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤١ ﴾

{وَقَالُواْ} ضمير الغائب عائد على أهل الكتاب (اليهود-النصارى)، وهذا الجزء من الآية جاء من باب عطف القصة على القصة، أما المراد منه فهو إبطال ادّعاء هؤلاء أن نبي الله يعقوب عليه السلام كان يهوديًا (ولم يكن هذا صحيحًا).

{أَوۡ} قيل إن موضعها هنا لتنويع المقال وليس للتخيير؛ والدليل المُؤيد لذلك هو ادّعاء كل فريق كُفْر الفريق الآخر، ولو كانت للتخيير لكان معنى الكلام هو: أنكم لو كنتم يهودًا فستهتدوا، ولو أنكم كنتم نصارى فستهتدوا! (أي اتفاق الفريقين على ذلك)، ولكن ليس هذا هو المعنى كما سبق القول؛ لأن المعنى هو تكفير كل فريق منهما للآخر، فاليهود كفّروا النصارى وادّعوا أنهم هم الذين على الحق وحدهم، ولذلك قاموا بدعوة غيرهم للدخول في دينهم، وكذلك فعل النصارى.

ملحوظة: كلمة (أو) يمكن أن تأتي للتخيير كما جاء في سورة المائدة {لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩} [المائدة]. وقد أجمع العلماء: على أن (أو) في الآية جاءت للتخيير.

{تَهۡتَدُواْۗ} جواب الأمر على تقدير مفهوم الشرط فيكون المعنى:

أي شخص لن يكون يهوديًّا لن يصل إلى الهداية، وكذا الحال بالنسبة للنصارى، فحصر اليهود بهذا القول الهداية في اليهودية فقط، وحصر النصارى الهداية في النصرانية فقط، وبالتالي كَفَّرَ بعضهم بعضًا، فأبطل الحق سبحانه دعواهم تلك، وأجابهم بقوله سبحانه: {قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ}: لقد كان الجواب مع اختصاره الشديد جدًّا (وتلك هي عظمة القرآن وإبداعه وبلاغته) متضمنًا للمنع والمعارضة في آنٍ واحد وهذا يتضح بالآتي:

* المنع: حيث استعمل حرف {بَلۡ} وهو حرف إضراب وعطف، وهذا يعني: أن قولكم غير صحيح ودعواكم كاذبة باطلة.

* أما المعارضة: فجاءت {مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا}: فالأمر ليس كما تتمنون، ولكن ملة إبراهيم هي الملة السمحاء، وفي هذه المعارضة إقامة للحجة عليهم فالصواب والحق هو اتباع صاحب الملة الحنيفية.

{حَنِيفٗا} والحنيف لغة هو: المائل، وإبراهيم عليه السلام كان حنيفًا أي كان على التوحيد (الطريق المستقيم) ولم يكن أبدًا يهوديًّا ولا نصرانيًّا، كما أنه لم يكن في يوم من الأيام مشركًا فلم يسجد لصنم ولم يعبد وثنًا ولم يَدَّعِ لله الولد ولا الصاحبة كما تفعلون، ولذلك فالأولى أن تتبعوا صاحب الملة الحنيفية؛ ملة جميع الأنبياء.

- إن الله عز وجل لا يقبل من أحد -نبيًّا كان أو وليًّا أو أحدًا

غيرهما- دينًا غير دين التوحيد (التوحيد الكامل فطرة الله التي فطر الناس عليها).

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**»، ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} [الروم: ٣٠] الآيَةَ[(١)].

- ومن رحمة الله عز وجل بعباده أن خلقهم على فطرة التوحيد (لا إله إلا الله) فالإنسان إذا وُلِدَ في صحراء وتُرِك وحيدًا ولم يشوِّه أحد فطرته لقال «لا إله إلا الله»؛ لأنه سيعرف أن للكون خالقًا موجودًا، وتلك هي الفطرة.

- والحنيفية تتضمن الإقبال على الله تبارك وتعالى وعبادته وحده وإجلاله وتعظيمه والخوف منه والخشوع له، وتوجيه كل معاني العبادة له وحده، ولا يمكن لإنسان أن يُحقق التوحيد إلا بالإقبال على الله وحده والخضوع والطاعة له وحده، وبالتالي لا يمكن أن يدعو إنسان مع الله إلهًا آخر ويكون قد حقق التوحيد أو الهداية!! إذ كيف تكون الهداية في القول بأن الله ثلاثة! أو أن له ولدًا أو أن تكون تلك الهداية في دين مُحرَّف!!

لقد أُقيمت الحجة على هؤلاء ولم يبق لهم إلا الجدال والعناد

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨).

فقالوا نحن على ملة إبراهيم ولم نخرج عنها وإن إبراهيم وأبناءه كانوا يهودًا!! وهذا ما ادّعاه اليهود، أما النصارى فقد قالوا نفس القول وهو أن إبراهيم وأبناءه كانوا نصارى، فجاء الرد من الحق سبحانه في سورة آل عمران: {مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾} [آل عمران].

بالرغم من علم القوم الجازم ويقينهم الكامل أنهم على الباطل إلا أنهم أصروا على العناد والشقاق، ولذلك فإن أي شخص منصف يعلم أنهم على الباطل، وأن ما أتوا به لم يقل به أحد من الموحدين، فلم ينسب لله الصاحبة والولد إلا هاتان الفرقتان الضالتان.

قوله تعالى: { قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾}.

الخطاب في الآية مُوَجَّهٌ للمؤمنين حيث يأمرهم الله سبحانه وتعالى بأشياء، وفي الآية أيضًا إشارة بالإعلان عن عقيدتهم الصحيحة والصدع بها والدعوة إليها؛ لأن هذا هو الدين الحق.

{قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا} **قيل**: إن هذا الخطاب بمنزلة بدل البعض من كل

من قوله ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ﴾ لماذا؟ لأن الاتباع يشمل الاعتقاد والعمل (الإيمان قول وعمل) فالاعتقاد يكون بالقلب، والاتباع في العمل دليل على صحة الاعتقاد.

- والقول هنا هو باب في الاعتقاد ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا.....﴾ أي قولوا بألسنتكم وصدقوا بقلوبكم بهذه الأمور.

- **وقيل**: إن هذا بدل اشتمال لماذا؟ لأن فيه تفصيلًا لما لم يُذكر في الآية السابقة.

- **وقيل**: هو استئناف وكأنهم سألوا بعد قوله ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ كيف يكون الاتباع؟ فجاءت الإجابة ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ فأمرهم بالإيمان بالله إيمانًا صحيحًا خاليًا من الشركيات.

- كما أن الإيمان بالله سبحانه قُدِّم على كل شيء؛ لأنه أول الواجبات، وإذا لم يُحقق الإنسان الإيمان الصحيح (إيمان بوجود الله- إلوهيته- ربوبيته) فلم يعتقد هذا بقلبه ولم ينطق به لسانه فلن تتحرك الجوارح بالعمل، أما تحقيق ذلك فإنه يشمل في المقدمة الإيمان بالله ثم الإيمان بكل ما أمرنا به.

سؤال: في قوله ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ هل يجوز أن يقول شخص عن نفسه أنه مؤمن؟

الجواب: يجوز أن يُضيف الإنسان الإيمان لنفسه في حال التقييد

وليس الإطلاق؛ فالقول الذي نحن بصدده -على سبيل المثال- فيه إقرار بالإيمان بالله وما أُنزل إليكم وما أنزل إلى كافة الرسل؛ أي أن المسألة فيها تقييد، أما قول الشخص ابتداءً عن نفسه أنه مؤمن فلا يجوز؛ لأن فيها تزكية للنفس وشهادة لها بالإيمان.

{ءَامَنَّا بِٱللَّهِ} أي آمنا بالله وجودًا وما له من صفات الكمال، وأنه سبحانه مُنزَّه عن كل نقص وعيب، يستحق العبادة بكل صورها وأنواعها.

{وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا} وهذا يشمل القرآن والسنة، قال سبحانه: { وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣} [النساء]. والحكمة عند جماهير العلماء هي السنة.

- إذًا الإيمان هو الإيمان بالله ورسله وكل ما جاء في القرآن، وكذا الإيمان بالغيبيات والأحكام الشرعية والقدرية والجزائية، والإيمان بما جاء في القصص.

{وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ} وهذا يتضمن الإيمان بالكتب السابقة؛ فلا بُد من الإيمان بها باعتبارها كتبًا سماوية، وليس من شأننا الاعتراض عليها حال كونها حُرّفت، والمقصود هو الإيمان بها ككتب نزلت على بعض رسل الله السابقين (الإيمان بها إجمالًا) أما

تفاصيل هذه الكتب وما حُرِّفَ منها وما لم يُحَرَّفْ فلا.

ولم توضح الآية {وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ} ما الذي أنزل على إبراهيم ومن ثَمَّ ينبغي الإيمان به، وكذلك {وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ} لم ينص على شيء، فأين نجد ذلك؟

ما أنزل على إبراهيم ورد ذكره في قوله تعالى:{ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩} [الأعلى]؛ فالآية تُبين أن إبراهيم عليه السلام كانت معه صحف.

أما ما أوتي موسى وعيسى (التوراة، والإنجيل) فقد ورد في:

* في شأن موسى عليه السلام:{ ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤} [الأنعام]، وأجمع العلماء على أن المقصود بالكتاب في هذه الآية هو التوراة.

* أما عيسى عليه السلام: { وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٦} [المائدة].

- إذًا جاء بيان ما أوتي هؤلاء الرسل الكرام من ربهم ولكن في آيات أُخَر؛ وتلك هي عظمة القرآن حيث الربط فيما بين آياته وبيان بعضها لبعض، فالآية في سورة البقرة لم يأت بها أي تفصيل للكتب،

ولكن جاء التفصيل لهذه الكتب في آيات أخرى متفرقة في القرآن، والإيمان بالكتب السماوية جميعها واجب فلا فرق بينها.

{وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ} الآية تحمل دلالة على عِظم العطية في الدين، والعطايا الحقيقية التي على الإنسان أن يطلبها من ربه ويفرح بها هي العطايا التي تُحقق له السعادة الدنيوية والأخروية، فهي نافعة له في دينه وآخرته.

- فلم يأمرنا ربنا سبحانه بالإيمان بما أوتي الأنبياء من الملك والمال والجاه والسلطان، ونحن لم نؤمر بأن نتعلق بتلك الأشياء أو أن نتمناها لأنها أمور دنيوية لن تنفعنا فيما بعد، ولكننا أُمرنا أن نؤمن بالعطية الحقيقية المتصلة بالسعادة وهي الإيمان بالكتب التي جاءوا بها، وكذا الشرائع التي أُنْزِلَت عليهم وبلّغوها للعباد فكانوا واسطة بين العباد وبين ربهم.

وفي هذا إشارة إلى كمال ربوبية الله تبارك وتعالى لعباده وأنه سبحانه المتولي لأمورهم ومُدبر شئونهم فلم يتركهم هملًا ولا سُدًى؛ وإنما كان يُرسل إليهم الرسل والأنبياء تترا للنصح والبلاغ والإرشاد، وحين أوقف إرسال الرسل جعل الدُّعاة والعلماء ينتهجون نهجهم ويقتفون أثرهم في تبليغ الدين ونصح العباد وإرشادهم فسبحان الرب الكريم الرحمن المنان الرحيم الرءوف بعباده.

{لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ} أمر الله عز وجل نبيه والمؤمنين في

هذه الآية أن يؤمنوا بما أنزل على جميع الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، وبالتالي فلا يجوز أن نَكره نبي الله موسى عليه السلام تبعًا لكراهيتنا لليهود وما يفعلونه من أفعال خبيثة، وكذلك كراهيتنا لعقيدة النصارى كعقيدة كُفرية لا شأن لها بكوننا نؤمن بعيسى عليه السلام كنبي من أنبياء الله سبحانه، فكل نبي من أنبياء الله (عيسى-موسى) بريء مما فعله قومه من تحريف في كتب الله.

- جاء الأمر بعدم التفرقة ولكن هل امتثل المأمورون لما أمروا به؟ نعم، امتثل المأمورون للأمر؛ والدليل قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة].

قوله تعالى: ﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧﴾.

الآية بها نوع من أنواع المناظرة والاستدراج وترك العنان للخصم بغرض التبكيت. وقيل في معنى الآية قولان:

١- إنها على سبيل المناظرة؛ وعلى ذلك يكون المعنى: أي قولوا لهؤلاء لو أن لديكم شيئًا من الإيمان والتدين يُساوي ما نحن فيه إذًا أنتم مهتدون، فنحن لا نقصد إلا هدايتكم لا أكثر ولا أقل.

ولو أن أحدًا من أهل الكتاب نظر بعين الاعتبار وكان لديه شيء

من الإنصاف فسيعلم أن ما جاء به الرسول الكريم ﷺ هو الحق، وهذا الحق لا يتجزأ؛ لأن الإسلام هو الدين الحق، أما ما يدّعيه أهل الكتاب من أقوال فهي افتراءات ما أنزل الله بها من سلطان.

٢- وهناك قول آخر: أن الكلام في الآية على ظاهره وليس هناك مناظرة ولا أي شيء؛ فالكلام موجه لكل مَن كفر برسالة النبي ﷺ (أهل الكتاب، والمشركين)

والمعنى: إن آمنتم بمثل ما آمن به المسلمون (الإيمان بالنبي ﷺ ورسالته، وكتابه والكتب السابقة، وعدم التفرقة بين أحد من رسل الله) إن فعلتم ذلك فقد أصبتم الحق وأُرْشِدتم إلى الخير، وهذا هو الذي يحبه الله سبحانه ويرضاه.

{وَّإِن تَوَلَّوۡاْ} أي أعرضوا عن الإيمان الذي أُمِروا به وعن قولكم ولم يستجيبوا لكم.

{فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٍ} أي في مخالفة لله تعالى؛ لأن كلمة الشقاق تدل على المنازعة والمحاربة والمعاداة والعداوة البليغة البغيضة.

أقوال العلماء في كلمة (الشقاق): قيل: إنها مشتقة من الشِّق (الجانب)، **وقيل:** من الشُّقة، **وقيل:** مأخوذة من قولهم: شق العصا إذا أظهر العداوة، شق عصا الإسلام.

{شِقَاقٍ} قيل التنوين للتفخيم. والجملة: جواب الشرط، فيكون المراد بها: أنهم شاقوكم وعاندوكم أيها المسلمون بعد توليهم عن

الإيمان واعتراضهم وعدم استجابتهم للنبي ﷺ، وذكر فيها الجملة الاسمية {فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ} للدلالة على الثبات والاستمرار، فهم ثابتون على هذا الشقاق والعناد ولن يتغيروا بل إن هذا الشقاق والعناد والمُعاداة مستقر في نفوسهم.

- وقيل: إن المعنى: لو أنهم تولوا وتركوا الإيمان بما أُمروا به وبما جاء به الرسول ﷺ فاعلموا أنهم في شقاق.

{فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ} كان من الممكن أن تأتي الجملة (فسوف يكفيكهم الله) أو (فسوف يكفيك الله هؤلاء) فلماذا جاءت على هذه الصورة ولم تأت بصورة أخرى؟ قال العلماء: لأن السين المستخدمة هنا تسمى (سين التنفيس) ولكن ما المقصود بها؟ سين التنفيس تُفيد شيئين: التحقيق والسرعة في التحقيق؛ وهذا يعني أن الأمر يقينًا سيتم وبسرعة.

- أما (سوف) فإنها تدل على وقوع الأمر ولكن بعد مهلة، كما أن هذه الكلمة فيها تسلية للنبي ﷺ حيث الإشارة إلى أن الفرج قريب، وبشرى له وللمؤمنين أيضًا بتحقق وعد الله لهم (النصر على أعدائهم، وأن الغلبة ستكون لهم بتأييد الله وإكرامه وإعزازه لهم غاية الإعزاز ووضعهم في أحسن صورة).

وبالفعل كفى الله النبي ﷺ كيد الكفار في مكة، وكذلك كفاه كيد أهل الكتاب في المدينة، وأنجز سبحانه وعده لنبيه ﷺ حين نقض بنو

قريظة عهدهم معه فقتل منهم مَن قتل وسبى منهم مَن سبى كما أنه أجلى بني النضير عن المدينة وتمَّ له فتح حصون خيبر، كل هذا تحقق للنبي ﷺ ففرح بذلك النبي ﷺ والمؤمنون؛ لأن الكفار كانوا يريدون الإجهاز عليه وعلى دعوته والقضاء على هذا الدين الذي جاء به ودعا إليه.

{وَهُوَ} الضمير المُنفصل (هُوَ) يفيد التوكيد والحصر.

{ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} اسمان لله سبحانه وتعالى وصفتان له أيضًا.

قيل: إن تذييل الآية بـ {ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} يرجع إلى أنه العليم الذي يعلم نيتك الطيبة أيها النبي ﷺ المرسل بالحق والهدى والخير كله، كما أنه يعلم برغبتك في إظهار هذا الدين وانتشاره ودخول جميع الخلق فيه وسوف تصل إلى مرادك هذا بإذن الله عز وجل.

- ومعنى {ٱلسَّمِيعُ} هو: الذي يسمع الأصوات، وقيل: معنى السميع أي المجيب للدعاء: { ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾} [إبراهيم]، وسمع الله لمن حمده: أي المجيب لمن حمده من المصلين.

- أما السمع فهو يُفيد أشياء منها: إدراك الأصوات، كما أنه يُفيد التقرير والتأييد والتهديد وهذا يكون بحسب سياق الآيات، فما هو المقصود في الآية التي نحن بصددها؟ يمكن أن تكون بمعنى التأييد للنبي ﷺ؛ أي أن الله سبحانه وتعالى سمع دعاءك وسيستجب لك

ويُوصلك إلى مرادك وسيؤيدك، ويمكن أن تكون بمعنى التهديد والوعيد للكفار، فهو يسمعهم ويعلم ما يُبدون وما يُخفون، فهم لا خير فيهم مطلقًا، وبالتالي سيُعاقبهم على كفرهم، وفي طَي هذا الوعيد وعد للمؤمنين لأن وعيد الكافر وعد للمؤمن.

سؤال: الكلام في سياق الكيد والكراهية والحقد على النبي ﷺ وتمني القضاء عليه وعلى المؤمنين، إذًا الأجواء مليئة بالمنازعة والعداوة والشقاق والبغضاء؛ فلماذا جاء ختام الآية بقول: السميع العليم، وقد كان من الممكن أن تُختم بالقوي العزيز (حيث أن النصر والغلبة والتأييد يحتاج إلى القوة والعزّة) وهذا لا يكون إلا لله تبارك وتعالى؟

قيل: جاء ختام الآية بالسميع العليم؛ لأن كيد مَن كانوا يكيدون للنبي ﷺ سواء من اليهود أو غيرهم كان كيدًا كله خفاء وتدبير ونفاق (منافقين المدينة) أي أنها أمور داخلية؛ لأنهم لم يرفعوا السيف على النبي ﷺ وأصحابه، وبالتالي فإن القوي العزيز لا تُناسب الحال فالحرب ليست قائمة بين الطرفين، والأنسب هو الإتيان بالسميع العليم بالمعنى السابق ذكره، فهو سبحانه يسمع كلامك وسيُجيب دعاءك وينصرك ويؤيدك بكل معاني السميع، وفي نفس الوقت فيها تهديد للكافر فقد علم بتخطيطهم وتدبيرهم وسيجعل تدميرهم في تدبيرهم.

قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ

عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾}.

{صِبۡغَةَ ٱللَّهِ} دين الله عز وجل، وسمي صبغة لظهور أثر الدين على صاحبه كظهور أثر الصبغة على الثوب، فدين الله الذي ارتضاه لعباده يكون أثره على العبد كأثر الصبغة على الثوب؛ لأنه يُلازمه ولا يُفارقه فهو فطرة الله سبحانه التي فطر عليها العباد.

والآية تُبين أصل الدين الحنيف (التوحيد) ملة إبراهيم عليه السلام ومَن تبعه على هذه الملة إلى أن بُعِثَ النبي الخاتم ﷺ.

{وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ} السؤال هنا للإنكار، والجواب: أنه لا أحسن صبغة من دين الله، وهل هناك دين أفضل من دين الله؟!

ومَن أراد أن يعرف ماهية هذا الأمر على الحقيقة فلينظر لأحوال السلف الصالح وأهل الإيمان الحق، مَن حقق الإيمان في الظاهر والباطن حيث خضوع القلب وانقياد الجوارح وتخلُّق العبد بالأخلاق الحميدة، والسعي في خدمة المسلمين والتجرد في الأعمال بالإخلاص والمسارعة في الخيرات، وجهاد النفس طوال ساعات العمر.

لقد كانت أخلاق الرعيل الأول الحميدة وأفعالهم الغير مُشينة هي السبب في إسلام العباد، لقد كان بعض الصحابة فقط هم مَن يعتلون المنابر ويُلقون الخُطب، ولكن أخلاق الجميع هي مَن جعلت الناس يُقبلون على الدخول في دين الله، وهذا بخلاف ما يحدث الآن؛

لأن الناظر لأحوال أغلب المسلمين اليوم عندما يقرأ في كتاب الله يجد فرقًا شاسعًا بين دينهم وما ينبغي أن تكون عليه أخلاقهم وبين أحوالهم وما هم عليه بالفعل!

وفي الآية إنكار على مَن يدَّعي وجود الحق في غير دين الله (التوحيد).

{وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ} أي موحدون، على ملة إبراهيم الخليل، مُتّبعون لنبينا ﷺ قولًا وعملًا، قائمون بحق العبودية في الظاهر والباطن بحب وإقبال، مُحِبون لربنا تبارك وتعالى، ففي هذا الدين راحة النفوس وانشراح الصدور، ومَن يفهم الدين بهذه الصورة يجد فيه النفس الذي يمنحه الحياة فيسعد به في الدنيا قبل الآخرة.

وفي قوله {وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ} تقديم الجار والمجرور (لَهُ) لإفادة اختصاص العبادة لله سبحانه جلَّ شأنه وعزَّ اسمه.

قوله تعالى: { قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾}.

{قُلْ} أي قل يا محمد لهؤلاء القوم البُهت (أهل الكتاب) {أَتُحَآجُّونَنَا}: فيمَ تُجادلوننا؟! وما هو الدليل الذي تستندون عليه في جدالكم هذا؟ فحديثكم يا أهل الكتاب طوال الوقت ما هو إلا ادعاءات باطلة فليس معكم برهان ولا دليل من كتاب، ولا نبي يؤيد صحة كلامكم.

- ولكن ما هي المحاجاة: المحاجاة هي المجادلة بين طرفين (شخصين، فريقين) من الناس وتكون متعلقة بمسائل الخلاف.. وفي هذه المحاجاة يجتهد كل خصم ليقيم الحجة على الخصم الآخر، ويكون ذلك بالدليل والبرهان لرد الضال إلى الحق وإلى الطريق المستقيم (هذه هي المحاجاة المحمودة والتي تعني المجادلة بالتي هي أحسن).

- وفي حال خروج المحاجاة عن هذه الضوابط وتحولها إلى مجرد كلمات تُقال بدون دليل واتهامات تُلقى جُزافًا فإنها تُصبح (ممارِاة-مخاصمة) أيًّا كان اسمها ولكنها ليست محاجاة، وهذا الأمر سيأتي بِشَرٍّ لا بخير؛ لأن النهاية لن تصل بأطرافها إلى الحق.

{قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ} فهل أنتم يا أهل الكتاب تُحاجوننا بالطريقة الصحيحة (جدال بالتي هي أحسن)؟ لا. فلماذا؟!

{وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ} ربنا وربكم ربٌّ واحد وإلهٌ واحد، فإن كان ربكم فهو أيضًا ربنا.

{وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ} ربنا واحد؛ وأنتم تعملون ونحن أيضًا نعمل وبالتالي لا تفضُل لكم علينا في شيء، لقد كنتم تدّعون أفضليتكم علينا تارةً بادّعاء أن نبيكم جاء قبل نبينا أو أن كتابكم نزل أولًا! وتارة بادّعاء أن الأنبياء الذين أرسلوا في بني إسرائيل كانوا كُثُرًا في حين أنكم أيها العرب لم يُرسل فيكم إلا

القليل!

- وهل كل هذه الأمور تنفعكم عند الله؟! لا؛ لأن الأمر الوحيد الذي ينفع عند الله هو العمل.

{وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ} وهذا هو الضابط حيث التفضيل والتفريق، فلا كثرة الأنبياء، ولا أسبقية إرسال الأنبياء هي المعيار بل هو الإخلاص في العمل وتوحيد الله.

ولكن أهل الكتاب لم يوحِّدوا ربهم بل أشركوا به؛ فنسبوا له الصاحبة والولد (فاليهود قالوا: عزير ابن الله! والنصارى قالوا: المسيح ابن الله!) وحرَّفُوا كتبهم وقتلوا أنبياءهم وبعد كل هذا يُحاجّون الرسول ﷺ ففيمَ يُحاجّونه؟!! أنتم تستندون إلى دعوى عارية من الصحة، دعوة مُتعنت مكابر يأبى إلا أن يسير في طريق الضلال مهما أوتي من أدلة.

أما المقصود بالإخلاص فهو: قيام العبد بالعمل وهو لا يبتغي به إلا وجه الله عز وجل، فيبتعد عن الرياء وعن مقدماته وأسبابه وعن أي شيء يمكن أن يوقعه فيه، وعلامة الإخلاص هي: أن يُصر العبد على إخفاء حسناته كإصراره على إخفاء معاصيه، فهو يريد أن لا يعرف أحد أعماله التي يقوم بها لوجه الله، كما لا يريد أن يعرف أحد شيئًا عن معاصيه، وهذه مرحلة عالية من الإخلاص.

انتبهوا: هناك أُناس يعملون أعمالًا لله لا يعرفها أحد ولكن إذا

عرفها أحد فلا إشكالية لديهم، وهذا خطأ لأن هذا يُعد علامة رياء خفي حتى لو لم يسعْ صاحب العمل إلى تلك المعرفة، ومجرد تمني معرفة الناس لتلك الأعمال ولو بالقلب يُعتبر رياء، أما كراهية أن يعرفه أحد فذاك هو الإخلاص.

وهناك حديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ**»[(١)].

ينبغي التفريق بين المراد بالحديث وبين رغبة العبد في ظهور أعماله ولو لم يسع إلى ظهورها، ولكن لمّا ظهرت أصابت قلبه بالسعادة، أما هؤلاء فقد عملوا أعمالًا بإخلاص ولكنها عُرفت دون الرغبة في ذلك، بل إنهم سارعوا إلى معرفة حكم تلك الأعمال بعدما عُرِفت وحمدهم الناس عليها.

يقول الجُنَيْد عن الإخلاص: (هو سر بين العبد وربه؛ لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيُفسده، ولا هوى فيُميله).

- لقد جعله الله سرًّا بينه وبين عباده، والعباد يُجاهدون أنفسهم ويسعون إلى معرفة علامات الرياء حتى لا يقعوا فيه، كما أنهم يسعون لتحقيق الإخلاص.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

(١) أخرجه مسلم (٢٤٦٢).

وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾}.

بعد توبيخ القوم على المُحاجاة الباطلة والحجة الداحضة في ادعائهم أنهم أفضل من المسلمين، جاء في هذه الآية توبيخ آخر من الله لهؤلاء القوم على تشبثهم بتقليد أسلافهم في الافتراء على الأنبياء وادعائهم عليهم بادعاءات باطلة.

{أَمۡ تَقُولُونَ} استفهام يراد منه الإنكار؛ هل تريدون أن تقولوا إن إبراهيم وإسماعيل وهؤلاء الأنبياء كانوا هودًا أو نصارى؟!

{ٱلۡأَسۡبَاطَ} قيل: إنهم أبناء يعقوب، وقيل: إنهم بنو إسرائيل، وقيل: إن السبط هو مقابل القبيلة عند العرب.

- بَيَّن الله عز وجل أن كلامهم كذب وضلال، فلم يكن أيٌّ من هؤلاء يهوديًّا ولا نصرانيًّا، فردّ الله عليهم ادعاءهم هذا بقوله سبحانه {قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ}: التقدير: أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديًّا ولا نصرانيًّا (في أكثر من آية في كتاب الله)؛ قال الحق سبحانه: {يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾} [آل عمران].

فهذا التقرير من الله عز وجل يُفيد بيان أنهم فريقان:

١- فريق جُهَّال ضُلال وهم العوام من اليهود أو النصارى.

٢- الفريق الثاني وهم أهل العلم منهم (أحبار، رهبان، علماء) وهذا الفريق سيكون حسابه شديدًا.. لماذا؟ لأن هؤلاء ضلّوا وأضلّوا مَن خلفهم.

فائدة:

ليعلم مَن يشغل مكانة معينة أعلى من غيره أنه سيُسأل، فالعلماء والأحبار الذين حرَّفوا التوراة والإنجيل بدايةً سوف يُسألون عن جميع انحرافات اليهود والنصارى إلى قيام الساعة، فمَن بدأ بتحريف الكتاب وسنَّ هذه السنة السيئة سيُسأل عن كل مَن سيأتي من بعده ويتبعه فيما شرع.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»[(١)].

- هؤلاء الأحبار والرهبان الذين أضلوا عوامهم بل وتركوهم في الضلال؛ حَبْرٌ من بعد حبر وهم يعلمون ما أحدثه سلفهم من تحريف في الكتب وبالرغم من ذلك تركوهم في هذا الضلال ولم يُفكر أحدهم في أن يصدع بالحق، واستمرار هؤلاء العلماء والأحبار في ضلالهم جعل العوام هم أيضًا يسترسلون في العقائد الفاسدة

---

(١) مسند أحمد (١٩١٥٦).

والغرور والضلال.

ثم أكمل هؤلاء العلماء ضلالهم بصمتهم على ضلالات العوام رغبةً منهم في الحفاظ على مناصبهم ومراكزهم تارة، وبحثًا عن المصالح تارةً أخرى.

- هذا الكلام وإن كان قد تحقق في اليهود والنصارى فهو واقع أيضًا بين المسلمين، وكم من عالم يكتم الحق! وكم من مُفتٍ يُصدر فتوى ضالة فيُضل بها شعبًا بأكمله من أجل أن يُحافظ على مكانته!

السؤال: هل على مَن يتبع الفتاوى الضالة من العوام وِزْرٌ أم لا؟

الجواب: كل شخص مسئول، وعليه أن يبحث عن الحق؛ لأن هناك العديد من العلماء، وكما يوجد مَن يُفتي بضلال يوجد أيضًا علماء ربانيون يفتون بالحق، فلماذا تتبع علماء السوء وقد كان أمامك مَن يفتي بالحق؟!

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ} بيَّن الله عز وجل مأساة هؤلاء القوم الضالين من اليهود والنصارى ومدى ظلمهم لأنفسهم ولأتباعهم، وهذا التذييل للآية فيه تهديد لمَن تُسَوِل له نفسه من اليهود والنصارى فيشهد شهادة الزور ويكتم شهادة الحق ويظهر بدلًا منها شهادة باطلة.

- فما المقصود بالشهادة في هذا الموضع؟ شهادة الله عز شأنه

لإبراهيم عليه السلام بالحنيفية وأنه كان بريئًا من اليهودية والنصرانية في أكثر من موضع في الكتاب العزيز، شهد الله سبحانه بهذا وأبان لهم ذلك وقد كانوا يعرفونه ولكنهم كتموا تلك الشهادة، كما أنهم كانوا على علم بوصف النبي ﷺ ولكنهم كتموا هذا أيضًا!! قال الحق سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

كتم هؤلاء الأمور التي تعلقت بالشرائع والفروع والأحكام الواردة في التوراة كآية الرجم على سبيل المثال. وقد نصّت كتبهم على أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا مسلمين لا يهود ولا نصارى، مسلمين مُستسلمين ومقرين بالعبودية لله الواحد الأحد وهذا معلوم بالعقل.

- ثم بيَّن الله عز وجل أنه لا يوجد مَن هو أظلم من هؤلاء حتى لا يتشبه أحد بهم ولا يفعل فعلتهم الشنيعة تلك.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وعيد شديد وتهديد لأهل الكتاب؛ لأن الله تبارك وتعالى لن يترككم، ومهما حاولتم مع العناد والمكابرة والاستعلاء والتعسف وعدم المرونة وإصراركم على ما أنتم فيه فلن يترك الله أمركم، واعلموا أن أعمالكم سوف تُحصى عليكم، والله

محيط بكل ما تفكرون فيه وما تدبرونه وستعاقبون على أعمالكم أشد عقاب.

قوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾}.

هذه الآية تكررت وتكرارها جاء للمبالغة في التحذير من استحكام طباعهم البشعة حيث الافتخار بالآباء والأجداد والاتكال عليهم في الأعمال.

ومن فوائد التكرار أيضًا تأكيد الوعيد الشديد لهم لو أنهم ظلوا على عنادهم وشقاقهم للرسول ﷺ وعدم اتباعه، فلن ينفعهم آباؤهم ولا أجدادهم ولا تعلقهم بإبراهيم.

وفي هذا قطع الطمع بالتعلق بإبراهيم عليه السلام (على زعمهم بأنه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا)، فأعمالهم هي التي سيُجازون بها ويُحاسبون عليها.

{وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} كل شخص مسئول عن عمله ونفسه وما قدمت يداه فقط يوم القيامة ولن يُسأل عن عمل غيره في هذا اليوم العظيم.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن
قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ
عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ
لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ
إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ
فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ
مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ
أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ
وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ
مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥ ﴾

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾
هذه الآية سؤال من السفهاء للمؤمنين بسبب تغيير القبلة، أما مضمون كلامهم وإن كان غير وارد في الآية فهو: إن كانت القبلة التي كنتم تُصلّون إليها (بيت المقدس) هي الحق فقد تركتم ذلك الحق، وإن كنتم على باطل فأنتم الآن أيضًا تتبعون الباطل، ثم بدأ هؤلاء السفهاء ينقسمون إلى فِرق:

- **أهل الكتاب قالوا:** لو كان محمدٌ نبيًّا حقًّا لما ترك قبلة الأنبياء؛ إذًا ليس بنبيٍّ! (لقد كانوا في غاية الغِل والغيظ من المسلمين لأنهم صلوا إلى بيت المقدس ثم تَحوّلوا إلى البيت الحرام).

- **أما المشركون فقد قالوا:** إذا كان قد عاد ليُصلي إلى الكعبة فقد عاد إلى دين آبائه وأجداده!

وكثرت الأقوال وعظُمت المحنة واشتد الأمر على بعض الناس حتى قال ربنا سبحانه في الآية التالية: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ وبالفعل كان الأمر صعبًا جدًّا والحدث جلل (تغيير القبلة).

وقفة:

عندما يُصاب العبد بابتلاءٍ ما، أو يدعو ربه، ولا إجابة ظاهرة له! فيُفكر ولا يجد لهذا سببًا (هل وقع في ذنب مثلًا؟!.) فيتوقف العقل عن معرفة ما السبب في هذا الابتلاء.. فعليه وقتئذٍ أن يُسلِّم

لأمر الله؛ لأن هذا الأمر يُعد من قبيل اختبار الله للعباد؛ فالابتلاء إذا جاء من عند الله فلا بد من وجود حكمة لهذا، قد تظهر للعبد وقد لا تظهر.

سؤال: تحويل القبلة بالنسبة للمسلمين في هذا الوقت كان ابتلاءً شديدًا، فما هي الحكمة من ذلك الأمر الذي قد يُحدِث هزة في القلوب؟

* الجواب: لقد حدث هذا للتمحيص والغربلة ولإظهار الصادق في إيمانه من المنافق الذي يُسرِع في مثل هذه المواقف إلى الخوض مع الخائضين.

- أما بالنسبة للكافرين فقد كان فتنة لهم على اختلاف طوائفهم.

* ولو تأملنا في حكمة العزيز الحكيم اللطيف بعباده وكيف أنه سبحانه قبل أن يأمر المسلمين بتغيير القبلة جعل لهم مقدمات وممهدات.

فما هي تلك المقدمات والممهدات التي سبقت الأمر بالتغيير؟

١- **بيان مسألة النسخ**: سبق الحديث عن هذه المسألة قبل عدة آيات، وقد تضمن الحديث في هذه المسألة الكلام عن وجود أحكام سوف تتغير إما بالتخفيف وإما بالتثقيل.

٢- **بيان أن هذا النسخ سيكون بحكمة وعلم**: لأنه سيأتي من رب العالمين الحكيم العليم الخبير الذي قال {نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ

مِثۡلِهَآۗ} والذي إذا نسخ فإنه سيأتي بمثل المنسوخ أو بخير منه فهو لا يُعجزه شيء.

٣ـ **كما أنه سبحانه وطد في نفوسهم ومهد وذلل لهم التسليم للرسول ﷺ**: فلا ينبغي للمسلمين أن يعترضوا على حكمه أو يُخالفوا أمره، أو أن يفعلوا أفعالَ قومِ موسى مع موسى عليه السلام؛ قال سبحانه: {أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ}.

٤ـ **ذِكْر البيت الحرام وتعظيم شأنه وحرمته:** وبيان أن مَن بناه هو إمام الموحدين الخليل إبراهيم، ثم الثناء عليه ووجوب اتباع ملته؛ لأن هذه هي الملة الصحيحة التي لا يجوز مخالفتها أو اتباع غيرها.

فانتبهوا لتلك الترتيبات والتمهيدات التي يظهر فيها عظمة القرآن، وكيف أن الله تبارك وتعالى رءوف بعباده؛ فأسّس في قلوبهم وثبّت فيها حب إبراهيم عليه السلام وأهمية اتباعه وموالاته لأنه إمام الموحدين، ثم بيّن بعد ذلك التعظيم والإجلال والمحبة للبيت حتى تستقر محبة هذا البيت الذي له شأن في قلوب الكافة؛ فقد جعل الله أفئدة العالم كله تهفو إلى هذا المكان الجليل، وحين استقرت تلك المعاني في القلوب أمر الحق سبحانه (وهو اللطيف الحكيم الرءوف بعباده واسع المغفرة عظيم العطاء) بالصلاة تجاه البيت {فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ} فتغيّرت القبلة.

أما الأمر بالتغيير فقد تلقّاه الرسول ﷺ والراسخون في الإيمان من الصحابة رضي الله عنهم بقَبول، لا اعتراض ولا شك فيه؛ لأن الأمر إذا جاء من الملك سبحانه لا يكون أمامهم إلا سمعنا وأطعنا وهو مبدأ ترسَّخ في قلوب المؤمنين فجعلهم مَهْمَا عظُمَ الأمر يقبلونه.

- أما مَن حدث له الشك والاعتراض والاضطراب فهم المنافقون الذين ادّعوا الإسلام، وأهل الكفر من المشركين ومن أهل الكتاب.

- فلما قال السفهاء هذا الكلام قال ربنا سبحانه {قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ} وهذه الآية من إعجاز القرآن!! والإعجاز هنا يتمثل في نزولها قبل تغيير القبلة وقبل قول السفهاء ما قالوه عن هذا التغيير!! وهذا أعظم دليل على أن القرآن جاء من عند الله وأنه كلامه سبحانه وتعالى.

- وهذه الآية جديرة عند التفكير فيها أن تجعل (المنافقين- أهل الكتاب- المشركين) يرجعون عن ضلالهم هذا، فالآية جاء فيها ما وقع بالفعل بعد مرور الأيام، وبالرغم من ذلك لم يفكروا ولو للحظة في ذلك!

{قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ} أي قل لهم يا محمد: نحن نعبد الله في أي جهة وأي مكان.

{لِّلَّهِ} خبر مقدم، {ٱلۡمَشۡرِقُ} مبتدأ مؤخر، ومن المعلوم أن

تقديم ما حقه التأخير يُفيد الحصر، وهذا يعني: أن الله وحده له المشرق والمغرب وله الحكم، فهو يفعل ما يشاء كيف شاء وقتما شاء؛ فهذا ملكه سبحانه.

فائدة:

الله سبحانه وتعالى واحد؛ وهو الذي أمر بأن تكون القبلة إلى بيت المقدس وهو الذي أمر بتغييرها لتكون ناحية الكعبة فما هي الإشكالية في ذلك؟

المشكلة نجدها عند بعض المسلمين، مثال: امرأة تُصلي ولكنها لا ترتدي الحجاب، امرأة تُصلي وترتدي الحجاب وتصوم ولكنها قاطعة لرحمها عاصية لزوجها.

وهنا تكمن المشكلة: لأن (الله) الذي أمر بالحجاب هو الذي أمر بالصلاة، ومَن أمر بالصلاة والحجاب والصوم هو الذي أمر بِصِلَة الرحم وطاعة الزوج، فالأوامر كلها أتت من عند الله عز وجل فلماذا نُطيعه في بعضها ونُهمل بعضها الآخر؟!!

- والإنسان إذا كان مؤمنًا بالله فإنه سيُطيعه في كل ما جاء من عنده؛ ولقد أَصَّل النبي ﷺ هذا الاعتقاد عند الصحابة رضي الله عنهم ثلاثة عشر عامًا في مكة مما جعلهم عند مجيء الأمر يتقبلونه بدون أي اعتراض مطلقًا لأن القلوب مليئة بالإيمان.

{يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} وفي ختام الآية تنبيه على

فضل القبلة (إلى البيت الحرام) فقد هداهم الله عز وجل إلى أن تكون قبلتهم إلى أفضل الجهات، فهذه هي قبلتكم وشِرعتكم؛ هذه هي الهداية التي جاءت من عند الله فظهر بها مَن هو صاحب القلب السليم الذي سيستقبل أوامر الله دون أي اعتراض، ومَن هو صاحب القلب المريض المنافق المعترض الذي يأخذ بعض الأوامر ويتغافل عن البعض الآخر.

قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾}.

{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ} الكاف في (كذلك) بمعنى مثل؛ أي (مثل ذلك جعلناكم)، و(ذا) اسم إشارة؛ فإلامَ يُشير في الآية؟ المشار إليه جاء في الآية السابقة (فمثلما جَعَلْتُ قبلتكم أيها المؤمنون هي الكعبة كذلك جعلتكم أمةً وسطًا).

{وَسَطًا} الوسط هو العدل؛ فالأمة الوسط هي أمة العدل، وأيضًا أمة فيها التوسط (قرر هذه المسألة فريق من أهل العلم كالطبري وابن تيمية وغيرهم من العلماء).

- والتوسط في الأمر يعني لا مُغالاة ولا مُجافاة، وهذا بخلاف

الأمم السابقة من أهل الكتاب؛ فقد كان فيهم المُغالاة كالنصارى؛ الذين غالوا في شأن عيسى عليه السلام وجعلوه (ابن الله ـ ثالث ثلاثة) ووصل بهم الأمر إلى ابتداع الرهبانية! فلم يكن في دينهم ما يُسمى بالرهبانية، لم يكتبها عليهم الله، فكان هذا نوع من أنواع المغالاة في الحب والعبادة، أما الفريق الثاني: فقد كانوا على النقيض من ذلك وهم اليهود حيث المُجافاة فقتلوا الأنبياء وسبُّوا الرسل وأنكروا الرسالات وفعلوا ما فعلوه مع نبي الله موسى عليه السلام، واتهموا مريم عليها السلام ببهتان عظيم.

ـ أما هذه الأمة فقد شرّفها ربها بالوسطية {أُمَّةً وَسَطًا} بمعنى العدل، فبالعدل يكون الإنسان متوسطًا في الأمر فلا يكون لديه شطط (لا إفراط ولا تفريط).

فائدة:

انتشرت الصوفية في بلادنا (مصر) في هذه الأيام انتشارًا كبيرًا وكأنه أمر ممنهج! ومن المعروف أن دينهم كله خُرافات، بالفعل عند بداية نشأة الصوفية كان منهجهم صحيحًا ولكن بعد فترة بدأت الشركيات تجتاح هذا المنهج ووصل الأمر بهم إلى أن عبدوا من دون الله إلهًا آخر! يسجدون له ويتوسلون إليه، وفي هذا تشبه بما فعله النصارى مع المسيح!! فأرادوا أن يفعلوا نفس الأمور مع النبي ﷺ فنجد على سبيل المثال: مديح النبي ﷺ في أشعارهم مليء بأشياء متعلقة بالربوبية فيصفونه بصفات لا ينبغي أن تُقال إلا لله سبحانه.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»(١).

نحن نُحب نبينا ﷺ أعظم حب، ولكن مهما أحببناه فلن نُحبه كما أحبه الصحابة، وبالرغم من ذلك كانت محبتهم له ﷺ منضبطة بضوابط الشرع، فلم يعتبره أحدهم إلهًا، ولا وصفه بوصف من أوصاف الربوبية أو الألوهية، بالفعل كانوا يعرفون أنه سيد الخلق وأفضل البشر ومكانته محفوظة في قلوبهم وقلب كل مسلم، وهذا ما يتوافق مع حال الأمة الوسط، والتي يُضحي أفرادها بأنفسهم من أجل أن لا يُمس نبيُّهم ولو بكلمة، وبالرغم من ذلك لا يُطلقون عليه صفات الرب أو الإله، فهو بَشَرٌ ﷺ.

{لِّتَكُونُواْ} هناك فرق بين لام التعليل ولام العاقبة؛ (لام التعليل) تدخل على أمر مقصود، أما (لام العاقبة) فإنها تدخل على أمر غير مقصود ولكنه سيتم.

والسؤال: هل اللام في قوله {لِّتَكُونُواْ} لام التعليل أم أنها لام العاقبة؟

الجواب: اللام للتعليل؛ لأنها دخلت على أمر مقصود هو {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} لقد جعلنا ربنا سبحانه أمة وسطًا حتى نشهد على الناس.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

- وهل سنشهد بالفعل على الناس؟! وإذا كان هذا سيحدث بالفعل فمتى سيكون ذلك في الدنيا أم في الآخرة؟ تلك الشهادة ستكون في الدنيا والآخرة:

١- **شهادتنا على الناس في الدنيا:** بنص حديث رسول الله ﷺ: قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: مَرُّوا بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَجَبَتْ**» ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: «**وَجَبَتْ**» فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «**هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ**»(١).

* ويا لها من منقبة ومنزلة ومكانة وعلو ورفعة لمَن ينتمون لهذه الأمة.

فائدة: إذا مات رجل فاسق (الفاسق هو الخارج عن طاعة الله) فأُقيمت له جنازة مهيبة وسار خلف جنازته أعداد كبيرة وصَلّى عليه الكثير، وتحدّث عنه الذين هم من أمثاله في الفسق وفي مهنة العمل الذي كان يمتهنه بالخير (فقد كان كذا وكذا) فهل ثناء هذه النوعية - وهي أقرب إلى الفسق منهم إلى الطاعة- ينفعه؟! أي هل يكون بمثابة ثناء الصحابة حين أثنوا على الجنازة في عهد النبي ﷺ فوجبت لصاحبها الجنة؟ الإجابة: لا؛ لأن شُرَّاح الحديث من العلماء

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧).

اختلفوا: هل المقصود بقول النبي ﷺ: «**أنتم شهداء الله في الأرض**» الصحابة فقط أم أن المقصود هو الأمة بأكملها؟ فريق من العلماء قالوا: إن المقصود هم الصحابة فقط لأنهم أفضل الناس. وفريق آخر قال: إن المقصود هم الصالحون من الأمة كلها.

وبالتالي فإن شهادة الناس في المثال السابق ذكره لا يؤخذ بها؛ لأن الشهادة لا تؤخذ إلا من العدول.

٢ـ **أما الشهادة في الآخرة:** فهي شهادة أمة محمد ﷺ على سائر الأمم، ولكن بماذا سيشهدون؟ سيشهدون أن الله سبحانه قد أرسل إلى كل أمةٍ رسولًا، وأن أنبياء هذه الأمم بلغوهم الرسالة وأدَّوا ما عليهم.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ:** {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣] **فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ:** {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣]» وَالوَسَطُ: العَدْلُ(١).

ـ وتلك أيضًا منزلة ومنقبة عالية جدًّا، فمَن نحن حتى نشهد على

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨٧).

هذه الأمم ومع مَن؟ مع النبي ﷺ.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ إذًا الأمة ستشهد على الأمم السابقة وسيشهد معها النبي ﷺ، وأَمْر الشهادة لن يتوقف عند هذا الحد بل إن الرسول ﷺ سوف يشهد على أمته بإبلاغه للرسالة وتأديته للأمانة ونُصحه للأمة، وحين رحل عن هذه الأمة تركها وهي على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ: «**أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا؟**»، قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،......قَالَ: «**فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «**اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[(١)].

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ سبق القول أن هذا التحويل للقبلة كان للامتحان والابتلاء والاختبار، وبيان مَن يستجيب ويستسلم لأمر الله ممن لا يستجيب.

﴿لَكَبِيرَةً﴾ أي سيكون أمر تحويل القبلة عظيمًا كبيرًا على المنافق وعلى مَن في قلبه مرض.

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٤١).

{إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ}: هداهم للحق، وهداهم إلى معرفة أن كل شيء من عند الله، وأن الرسول ﷺ جاء بالحق من عند الله.

فائدة:

الصحابة رضوان الله عليهم عندما سمعوا الأمر من الله لم ينتظروا لإتمام الصلاة التي كانوا يصلونها، بل استداروا على الفور وهم يصلون قِبل البيت، فلم ينتظروا ليسألوا الرجل الذي أخبرهم أو أن يستوضحوا حقيقة الأمر! ولكنهم بمجرد سماع الأمر سارعوا إلى تنفيذه دون اعتراض أو تخاذُل أو تسويف، وهذه الصفات هي التي جعلت هؤلاء القوم يستحقون تلك المنزلة وهذه المكانة التي ليست لأحد غيرهم.

{وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ} كان سبب نزولها هو قلق بعض الصحابة على إخوانهم الذين ماتوا قبل تغيير القبلة.

عَنِ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ المَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ، أَوْ قَالَ أَخْوَالِهِ مِنَ الأَنْصَارِ، وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ العَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ، وَكَانَتِ اليَهُودُ قَدْ أَعْجَبَهُمْ إِذْ كَانَ يُصَلِّي

قِبَلَ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَأَهْلُ الكِتَابِ، فَلَمَّا وَلَّى وَجْهَهُ قِبَلَ البَيْتِ، أَنْكَرُوا ذَلِكَ. قَالَ زُهَيْرٌ: حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ فِي حَدِيثِهِ هَذَا: أَنَّهُ مَاتَ عَلَى القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ رِجَالٌ وَقُتِلُوا، فَلَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة: ١٤٣] (١).

- يُبيّن البراء بن عازب أن بعض الصحابة حين تغيرت القبلة حدث لهم شيء من الخوف؛ وكان هذا بسبب خوفهم على إخوانهم الذين ماتوا قبل تغيير القبلة، فهل سيضيع أجر صلاتهم الذين صلوها (سنة ونصف) تجاه بيت المقدس؟! هذا الحزن الشديد والحب الشديد أيضًا الذين شعر به بعض الصحابة على إخوانهم كان سببًا في نزول قوله تعالى {وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} نزل القرآن بها لأن القلوب الصافية المحبة المُقبلة صادقةٌ في محبتها، فطمأن هذه القلوب الصادقة على مَن مات من أحبابهم قبل أن يُصلّوا إلى البيت الحرام وأن الله سبحانه لن يُضيعهم أو يضيع ثواب أعمالهم.

وقد أجمع العلماء على أن: {وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ}: أي (وما كان الله ليضيع صلاتكم)، فدل ذلك على أن الإيمان قول وعمل؛ لأن كلمة (إيمانكم) فُسرت بـ (صلاتكم)؛ والصلاة عمل؛ ولذلك فإن أهل السنة جعلوا هذا النص من ضمن الأدلة التي

(١) أخرجه البخاري (٤٠).

يستدلون بها على أن الإيمان قول وعمل.

قوله تعالى: { قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤}.

{قَدْ نَرَىٰ} الفعل المضارع يدل على التكرار، والمعنى: أن النبي ﷺ كان ينظر كثيرًا إلى السماء متمنيًا في داخل نفسه أن تكون قبلة المسلمين تجاه الكعبة.

{تَقَلُّبَ وَجْهِكَ} قال ربنا (تقلب وجهك) ولم يقُل (عينيك) مع أن النظر يكون بالعين لا بالوجه ولكن قيل ذلك لمزيد الاهتمام.

وقفة:

العبد إذا نظر إلى السماء في الدعاء يكون ذلك خارج الصلاة، أما داخل الصلاة فلا يجوز أبدًا النظر إلى السماء حال الدعاء، وهذا النهي نهي تحريم.

{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً} (الفاء) فاء التعقيب لتأكيد الوعد، وأن الله سبحانه وتعالى سوف يُعطيه سُؤْلَه، وقيل الفاء للتفريع. (اللام): موطئة للقسم، وعلى هذا الأمر ستكون الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات (القسم المقدر، اللام، النون).

*أما المعنى فهو: فلنُوَجِّهنك إلى قبلة ترتضيها وتحبها، وهي

بيت الله الحرام.

{تَرۡضَىٰهَا} قال سبحانه ترضاها ولم يقل (تحبها) أو (تهواها) وبهذه أو تلك كان المعنى سيستقيم أيضًا، فلماذا اختار الله سبحانه وتعالى كلمة (ترضاها) من بين هذه المعاني؟ لأن الرضا مُشعِر بمحبة ناشئة عن تعقُّل وتفكُّر وتأمُّل وهذا خلاف الهوى والمحبة، فالهوى قد يُضِل صاحبه، لكن نبينا ﷺ كان أعظم الناس عقلًا، ولذلك لم تكن رغبته ﷺ في أن تكون قبلة المسلمين هي الكعبة ناشئة عن هوى بل كانت نتيجة التفكر العميق؛ فلماذا أيضًا؟ يرجع ذلك لأسباب منها:

١- سبق لنا ذِكر فضل البيت الحرام وأنه كان قبلة إبراهيم عليه السلام إمام الموحدين، ونبينا ﷺ من ذريته، وبالتالي فمن حق المسلمين أن يكون هذا البيت هو قبلتهم أكثر من بيت المقدس.

٢- النبي ﷺ أراد أن يستقل بهذا الدين عن دين أهل الكتاب؛ وجَعْل البيت الحرام قِبلةً للمسلمين فيه كل البُعد عن دين أهل الكتاب، ويكون دين المسلمين مُخالفًا تمامًا لدين أهل الكتاب.

{فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ} (الشطر) بفتح الشين وسكون الطاء هو: الجهة والناحية، وشطر المسجد الحرام أي جهته؛ ناحية المسجد الحرام.

- قال قتادة وأبي بن كعب: تلقاء، أي تلقاء المسجد الحرام.

والمعنى: أنك ستُصلي وأنت مُتجه تجاه المسجد الحرام (الكعبة).

{وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} علامَ يعود الضمير في (أنه)؟ **قول أكثر أهل العلم:** الضمير يرجع إلى التوجه والتحول إلى المسجد الحرام. وأهل الكتاب يعلمون أن التوجه إلى المسجد الحرام كان فرضًا من الله عز وجل على إبراهيم وذريته، ولذلك قال {وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ} أي أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يعلمون أن هذا التحول للقبلة هو الحق الذي ارتضاه الله عز وجل وفرضه على إبراهيم وذريته فعلامَ الاعتراض والتعنت؟!!

قولٌ آخر: أن الضمير يرجع للقرآن؛ فالقرآن جاء فيه الأمر بالتحول من بيت المقدس إلى البيت الحرام كقبلة، وأهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن وما جاء فيه هو الحق ولكنه العناد والشقاق والمكابرة، فهؤلاء لا يُحبون النبي ﷺ ولا يحبون الخير للمسلمين؛ فهم رافضون تمامًا لأي شيء يأتي من ناحية العرب.

قول ثالث: الضمير عائد على النبي ﷺ؛ لأن أهل الكتاب يعرفون جيدًا أن رسول الله هو نبي الحق والذي جاء بالصدق، ليس كاذبًا أو مُدَّعيًا، ولكن العناد وحده هو ما جعلهم يُعرضون عنه.

{وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} ختم الله سبحانه وتعالى الآية بهذا التهديد والوعيد الشديد؛ فالله عز وجل لا يغفل، وهو يعلم أحوالكم

وما تُكنونه في صدوركم من حقد وغِل وحسد للنبي ﷺ على ما هو فيه من خير؛ وهذا هو السبب الرئيس في عدم إذعانكم له.

قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾}.

في هذه الآية بيَّن الله جلَّ ذكره شدة كفر أهل الكتاب وأن النبي ﷺ لو جاءهم بكل آية فلن يتبعوه، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، فعليه أن يتركهم وشأنهم ولا ينشغل بهم {وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ} بل إن كل فريق منهم لا يتبع قبلة الآخر.

ومن أسباب عدم اتباع القبلة: أن القبلة تُعد من خواص الدين (من مظاهر وشعائر الدين)؛ فلو أن شخصًا اتبع قبلة شخصٍ آخر فلا بُد أن يكون قد ترك دينه أولًا ثم اتبع دين هذا الآخر، وهذا لن يحدث لأنهم لو اتبعوا قبلة النبي ﷺ سيكون لزامًا عليهم أن يتبعوا دينه أولًا، وهؤلاء لن يتبعوا دين النبي ﷺ لشدة العداوة التي يُضمرونها له.

فدلّت هذه الآية على عدة أمور منها:

١- أن كل طائفة تتبرأ من الطائفة الأخرى كما أن كل طائفة لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى.

٢- إخبار بأن أهل الكتاب مهما رأوا من آيات بينات تدل على صدق الرسول ﷺ فلن يتبعوه عنادًا واستكبارًا وحسدًا لهذا الدين وهذا النبي ﷺ.

٣- الآية تحمل التثبيت للنبي ﷺ وللمؤمنين حتى يلزموا الحق؛ لأن أهل الكتاب لن يُذعنوا للحق بل سيظلوا متبعين للباطل، ولذلك أمر الملك سبحانه نبيه ﷺ والمؤمنين بالثبات على الحق وعلى الطريق المستقيم والحذر من هؤلاء الضالين المضلين وعدم الالتفات لهم؛ وقد ورد عن بعض أهل العلم: أن أهل الكتاب عرضوا على المؤمنين أن يعودوا إلى قبلتهم مرة أخرى! فإن فعلوا ذلك فإنهم سيدخلون في دين الإسلام! وما هذا إلا خداع ومكر وكذب (لو صح هذا عنهم) لأنه من المستحيل أن يُصلّوا إلى قبلة المسلمين.

*** وقفة بلاغية:**

{وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ}: هذه الآية دالة على نفي اتباعهم للرسول ﷺ وذلك (بالقسم، واللام الموطئة)، كما أن الآية فيها: إظهار في موضع الإضمار؛ لأنه في الآية السابقة قال ربنا عزَّ شأنه {وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ} فذكر الذين أوتوا الكتاب، ثم في الآية التالية قال سبحانه: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ} فكرر بذلك (أوتوا الكتاب)، وكان من الممكن أن لا يذكرهم؛ لأن السامع سيفهم أن الحديث عنهم، ولكن الحق سبحانه كرّر ذكرهم (إظهار في موضع الإضمار) فلماذا؟ الجواب: من أجل أن يكون هذا بمثابة

الإعلان الصريح الواضح لذم هؤلاء، فأراد الحق سبحانه أن يذمهم علنًا؛ أي بشكل صريح ليس فيه تغطية ولا مواراة.

{بِكُلِّ ءَايَةٍ} (كل) من ألفاظ العموم، و(آية) هنا ليس المقصود بها آية واحدة؛ لأنها سُبقت بكل فأصبحت تعُم كل الآيات التي جاء بها محمد ﷺ من معجزات صريحة واضحة وحُجج وأدلة على استقبال الكعبة وأنها حق، لكنهم بالرغم من ذلك ما توجهوا إلى قبلتك عنادًا لما جئت به، وتكبرًا عن اتباع الحق.

مسألة هامة: استقبال اليهود لبيت المقدس كقبلة، واستقبال النصارى للمشرق كقبلة؛ هو عمل من صنع أيديهم وليس بوحي ولا توقيف من الله! فقد أثبت العلماء بالأدلة الواردة في كتاب الله وكذا السنة أن جميع الأديان كانت قبلتهم هي البيت الحرام { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾} [آل عمران].

يقول ابن القَيِّم: (استقبال أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي ولا التوقيف من الله، بل كان عن مشورة منهم واجتهاد، أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبدًا وهم مُقرون بذلك، ومقرون بأن قبلة المسيح كانت قبلة بني إسرائيل وهي الصخرة، وإنما وضع لهم شيوخهم وأسلافهم هذه القبلة وهم يعتذرون عنها بأن المسيح فوض إليهم التحليل والتحريم وشرع الأحكام فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يُشرع استقبال المشرق على لسان رسوله أبدًا والمسلمون

شاهدون عليهم بذلك...

وأما قبلة اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة البتة، وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا، فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا إليه، فلما رفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة).

وقد يسأل سائل فيقول: الله سبحانه يقول في كتابه العزيز {وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ} إذًا هناك بيان وإثبات من الله سبحانه أن لهؤلاء قبلة فلماذا تقولون أنهم ابتدعوها؟

الرد: لأن الله تبارك وتعالى لم يقل (وما أنت بتابع قبلتهم التي شرعتها لهم) فالكلام يُثبت أن لهم قبلة ولكن مَن الذي شرَّع لهم هذه القبلة؟ ليس في الآية ما يُثبت أن الله هو الذي شرعها لهم.

- أما قول (قبلتهم) فقد قيل فيها إنه كلام وارد على سبيل الفرض والتقدير.

فوائد من الآية الكريمة:

-في قوله تعالى {وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ} إشارة إلى أن مَن يعرف الحق حق المعرفة لا يمكن أن يرجع عنه ولذلك قيل: ما أخلَّ بالإيمان إلا مَن لم يصل إليه حق الوصول؛ فالذي يرجع عن الإيمان ويحدث له انتكاسة هو شخص لم يصل إليه حق الوصول، علم ظاهرًا من الإيمان فقط ولم يعلم حقيقة الإيمان.

-ومن المعاني العظيمة الواردة في الآية أيضًا: زيادة تحذير وتخويف لكل مَن ترك الدليل بعدما أُنير له الطريق {وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}.

-وفي الآية تهييج لهِمَم أصحاب المطالب العالية، ووجوب الثبات على الحق لأنه ليس هناك ما هو أفضل منه.

-وقد حذر الله عز وجل نبيه ﷺ من اتباع الهوى؛ لأن العقوبة ستكون وخيمة، وجاء في القرآن في أكثر من موضع التحذير من الجنوح إلى الهوى؛ لأن الهوى مُضِل لصاحبه فهو يحجُب عنه الحقائق، وكم من إنسان مُتقلِّب في الضلال والسبب هو اتّباعه لهواه!

-والآية أيضًا بها إشارة إلى فضل العلم وإظهار لعلو شأنه وشأن مَن يحمله وذلك في قوله {مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ} فقد سمى الله سبحانه نبوة النبي ﷺ ودلائل المعجزات التي جاء بها وما يحمله من علم -جاءه بوحيٍ من ربه- سماه {مِنَ ٱلْعِلْمِ}، فالعلم هو أكثر شيء ينبغي للعاقل أن يسعى لتحصيله.

-وفيها أيضًا: وعيد شديد للعلماء، وتوجيه الوعيد الشديد لهم؛ لأن الله يقول لنبيه ﷺ: {وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ} هذا يُقال للنبي ﷺ خير الأنام أي في حال اتباعه لأهواء هؤلاء سيكون من الظالمين، والله تبارك وتعالى

يعلم أن نبيه ﷺ لن يحدُث منه ذلك، ولكنه سبحانه أراد أن يُبين هذا الأمر بخطابه للنبي ﷺ، إذًا نحن أولى بهذا الخطاب.

*وهذه الجزئية تُبين عِظم الخطر الذي عليه علماء السوء، الذين يتبعون أهواءهم ويضلون الناس، فإذا كان الخطاب موجهًا للرسول الكريم، وبالرغم من ذلك قيل فيه {وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ}.

ألم يسألوا أنفسهم: ما الذي سيحدُث لهم وقد عرفوا الحق ومع ذلك قالوا فتاوى باطلة وأضلوا الناس، هذا الوعيد سينال مثل هذا النوع من العلماء وكل مَن كان لديه علم ولكنه اتبع هواه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا
يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ
مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ
فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ
وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ
فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ
شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ
وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا
مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ
وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي
وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ
ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾

{يَعْرِفُونَهُ} الهاء عائدة على النبي ﷺ.

{ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ} تأتي هي وآية {ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ} في القرآن على وجهين: فعندما يذكر الفاعل قد تكون {ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ} في سياق المدح، وإن لم يذكر الفاعل تكون {ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ} في سياق الذم، ومن الممكن أن يحتمل المعنى الذم والمدح سواء؛ ورد في سورة الجن {وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾} عندما تكلموا عن الشر لم يذكروا الفاعل فقالوا {أُرِيدَ}، وعندما تكلموا عن الخير قالوا {أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ}.

فلا يضاف الشر إلى الله، فهذه نكتة من نكت القرآن أو من أسرار القرآن والتي ذكرها بعض السلف الصالح في كتبهم.

{ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ} هذا سياق ذم؛ لأن هناك فريقًا منهم أسلم ولكن الأكثر ظل على الكفر والعناد إما عن علم وإما عن جهل وتقليد لأحبارهم وعلمائهم.

ولقد شَبَّه الله اليقين باليقين؛ يقينهم أن هذا رسول الله بيقينهم معرفتهم أبناءهم، والعرب كانت تضرب المثل في صِحَّة الشيء بهذا؛ فقد كان من عادتهم عندما يريدون أن يؤكدوا مسألة معينة يشبهونها بالولد؛ ومثل هذا في حديث عَنْ أَبِي رِمْثَةَ، قَالَ: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ لِأَبِي: «**ابْنُكَ هَذَا؟**»

قَالَ: إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، قَالَ: «**حَقًّا؟**» قَالَ: أَشْهَدُ بِهِ، قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ضَاحِكًا مِنْ ثَبْتِ شَبَهِي فِي أَبِي، وَمِنْ حَلِفِ أَبِي عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ لَا يَجْنِي عَلَيْكَ، وَلَا تَجْنِي عَلَيْهِ**»، وَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ}[(١)]. فالمعنى المجمل للحديث أن كلَّ شخْصٍ سيحاسب بما يرتكِبُه من ذُنوبٍ ولا يحمِلُ إنسانٌ ذنْبَ غيرِه وإن كان أقرَبَ النَّاسِ إليهِ.

والشاهد من الحديث: أنه عندما يريد العرب أن يتأكدوا من صحة شيء أو مسألة معينة يذكر الولد ويضرب به المثل في صحة الأشياء.

- ويروى عن عُمرَ ﷺ أنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمدًا ﷺ كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وإني لا أدري ما كان من أمره.

- لذلك عند قول الله {ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ} فهذا يدل على أن هؤلاء كانوا يعرفون النبي ﷺ تمامًا ولم يكن عندهم أي لبس في المسألة، ولكن هو العناد والشقاق والمكابرة.

{وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أي أن هؤلاء

---

(١) صحيح أبي داود (٤٤٩٥).

يكتمون الحق الذي جاء به محمدٌ حسدًا من عند أنفسهم، يفعلون ذلك وهم يعلمون أنه الحق. وكلمة (الحق) فيها تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين معه أنهم على الحق.

فائدة:

إظهار الحق أمرٌ غاية في الأهمية لذلك لا بُد للعلماء أن يُظهروا الحق في أحسن صورة؛ تارة بالحُجة والبرهان، وتارة بحُسن الخلق، فكثير من الناس لا يعرفون الكثير عن الشريعة ولا محاسن الدين الإسلامي.

قوله تعالى: {ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾}.

ثَبَّتَ تعالى نبيَّهُ والمؤمنين وأخبرهم بأنَّ ما جاء به الرَّسولُ ﷺ هو الْحَقُّ الذي لا مرية فيه ولا شكَّ.

{ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} هذا أمر عظيم؛ لأن أحق شيء يطلق عليه الحق هو ما جاء من عند الله سبحانه وتعالى؛ فالخير كل الخير في الشريعة وكل ما جاء من عند الله، وهو أحق ما يسمى حقًّا.

سؤال: الربوبية في قوله {ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} عامة أم خاصة؟

الجواب: الربوبية هنا في هذا الموضع ربوبية خاصة؛ لأن المقام هنا مقام تأييد ومقام نصر، وبيان أن الله معك وأنه لن يتركك وسينصرك على أعدائك؛ ففيها تثبيت للنبي ﷺ كقوله تعالى {وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾}[الإسراء]

فالتثبيت من عند الله. فأراد الله عز وجل أن يُبيِّن أنه هو الحق، ويُثبِّت النبي ﷺ فيزيد يقينه.

{فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ} أي لا يحصل لك أي شك، لكن تَفَكّر وتَأَمّل، ومن تَفَكّر وتَأَمّل وتَدَبَّر هذا القرآن العظيم لا يمكن أبدًا أن يصل إلى الشك، بل لا بُد أن يصل إلى اليقين الجازم.

والنهي هنا لا يقتضي الوقوع؛ فما شك النبي ﷺ لحظة، وكيف يشك وهو أكمل الناس خلقًا ودينًا ومحبة لله، اختاره الله واصطفاه من بين العباد، والله سبحانه وتعالى هو الذي زكَّاه في القرآن!

لكن (الشرط قد يعلق بما لا يمكن وقوعه) فمثلًا قوله تعالى في سورة الزخرف {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾} من المحال أن يكون للرحمن ولد! وكذلك من المحال أن يشك النبي ﷺ ولو طرفة عين؛ ولكن هذا تثبيت من الله جل جلاله وبيان أن النبي ﷺ على الحق.

وللعلماء قولان في مثل هذا الكلام الذي وجه للنبي ﷺ؛ {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ}، وكذلك {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ} ومثل هذه الآيات: الأول: الذي ذكرناه سالفًا. الثاني: مثل هذا الكلام كطريقة العرب في أن يخرج الكلام مخرج الأمر والنهي للمخاطب ولكن المقصود به غيره، مثل مَن معه مِن الصحابة والمؤمنين. والقول الأول هو الراجح.

قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾}.

{وِجْهَةٌ} القبلة.

{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ} يوجد هنا مضاف محذوف والتقدير: (لكل أهل مِلة وجهة)، والتنوين في {لِكُلٍّ} عوض عن هذا المضاف المحذوف.

إن النصارى كان لهم قبلة اخترعوها قِبل المشرق، واليهود كذلك اخترعوا لأنفسهم قبلة لبيت المقدس، بينما جاءت قبلة المسلمين بتوجيه من الله سبحانه وتعالى.

{هُوَ مُوَلِّيهَا} هل الضمير هنا يعود على (أهل كل ملة) أم يعود على (الله سبحانه وتعالى)؟ للعلماء في هذا قولان:

- **الأول وهو الأصح**: أن كل أهل ملة لهم قبله يتوجهون إليها، فيكون الضمير هنا راجعًا إلى كلمة (كل).

- **الثاني**: أن الله مولِّيهم إياها، وهذا ضعيف؛ لأن الله لم يُولِّ النصارى قبلة، ولم يُولِّ اليهود قبلة؛ فلم يشرع الله لهم هذه القبلة التي ابتدعوها وبيّنا ذلك بالأدلة؛ فكيف سيأتي هذا الكلام من الله لهم ولم يوجه لهم قبلة؟!.

{فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} وهذا يؤكد القول الذي رجحنا فيه بأن لكل ملة منهم قبلة؛ فالنصارى واليهود لهم قبلتهم، والمسلمون لهم قبلتهم

التي أمرهم الله بها؛ فأمرهم الله أن يبادروا إلى الخير الذي اختاره الله لهم وبكل ما أُوتوا من قوة وسرعة.

{أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا} تعليل للأمر باستباق الخيرات؛ أي استبقوا أيها المؤمنون إلى العمل بطاعة ربكم، ولزوم ما هداكم له من قبلة إبراهيم خليله وشرائع دينه، فإن الله تعالى ذكره يأتي بكم وبمن خالفَ قبلكم دينكم وشريعتكم جميعًا يوم القيامة من حيث كنتُم من بقاع الأرض.

فائدة:

وردت {فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ} أيضًا في سورة المائدة { لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾}، فقد ذكرها الله سبحانه وتعالى أيضًا عند ذكر اختلاف الشرائع؛ إذًا ذُكرت في البقرة في سياق الحديث عن اختلاف القِبَل، وذكرت في المائدة في سياق الحديث عن اختلاف الشرائع، وكأن المراد: اسعَ لكي تصل إلى الحق، اسع للخير الذي سينفعك والذي أمرك الله به، اترك الهوى والعناد والحمية والجاهلية التي تصدك عن اتباع الحق؛ لأننا سنجتمع يوم القيامة وسنقف بين يدي الله عز وجل.

{ٱلْخَيْرَٰتِ} كلمة شاملة جامعة لكل فرض ومستحب؛ ابتداءً من

الواجبات التي هي أفضل ما نتقرب به إلى الله؛ فقد قال الله تعالى في الحديث القدسي «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**»(١). ثم بعد الواجبات نبحث عن النوافل وكل الأعمال الصالحة؛ بالجسد واللسان والمال، وبكل شيء.

{إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} ختام الآية بأن الله على كل شيء قدير يعني أنه لا يعجزه جمعكم؛ فيجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، كلكم في موقف واحد وفي صعيد واحد، ولن يعجزه أيضًا مجازاتكم على أعمالكم، فالأمر يسير جدًّا على الله عز وجل الذي لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه شيء.

قوله تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾}.

المقصود بالخروج هنا الخروج للصلاة؛ أي: ومن أي مكان خرجتَ وأردت الصلاة، فاستقبل جهة المسجد الحرام.

{وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} الآية أُكدت بمؤكدين: (إنَّ) و(اللام)

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢).

حتى لا يظن أحدٌ أن النبي ﷺ كان يطلب اتجاه القبلة للكعبة لرغبةٍ أو اتباعٍ لهوى نفس، بل كان هذا امتثالًا لأمر الله.

{وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ} أي أن الله ليس بغافل عن أقوالكم وأعمالكم وأحوالكم كلها؛ يعلم ما تسرون وما تعلنون، ولهذا يجب على الإنسان أن يتأدب مع الله ويخافه ويخشاه لأنه مطلع عليه.

للعلماء أقوال في تكرار هذه الآيات: { قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤}. { وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ... ١٤٩}. ثم في الآية التي تليها أيضًا { وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ.... ١٥٠} فما السبب في هذا التكرار للنبي ﷺ والأمة؟

١- **قيل**: إن التكرار للتأكيد؛ فهو أول نسخ وقع في الإسلام، وأمر التَّحْويل كان صعبًا في نفوسهم جِدًّا فأكَّد الأمر ليخف عليهم وتسكن نُفُوسُهم إليه. (وهذا قول ابن عباس وغيره من بعض العلماء).

٢- **وقيل**: إن لكُلِّ آية فائدة؛ فالْأَوَّلُ لِمَنْ هُوَ بِمَكَّةَ: وَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْكَعْبَةِ؛ أَيْ عَايِنْهَا إِذَا صَلَّيْتَ تِلْقَاءَهَا، وَالثَّانِي لِمَنْ هُوَ فِي بَقِيَّةِ

الْأَمْصَارِ: أي وَحَيْثُ ما كُنْتُمْ مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ فِي سَائِرِ الْمَسَاجِدِ بِالْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا في أي بلد من البلاد فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَ الكعبة، وَالثَّالِثُ لِمَنْ خَرَجَ فِي الْأَسْفَارِ: فَكَانَ هَذَا أَمْرًا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي جَمِيعِ الْمَوَاضِعِ مِنْ نَوَاحِي الْأَرْضِ. (وهذا القول رجحه بعض أهل العلم ومنهم الإمام القرطبي).

٣-**وقيل**: المسألة متعلقة بسباق وسياق ولحاق، فذكر ذلك لتعلُّقه بما قبله أو بعده من السِّيَاقِ؛ ومعنى هذا أن هناك تدرُّجًا رائعًا في الآيات: فَقَالَ أَوَّلًا: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا...﴾ فذكر في هذا المقام إجابته للنبي ﷺ الذي كان ينظر إلى السماء، والله يعلم أنه يتمنى أن تكون الكعبة هي القبلة فأمره الله بالتوجه للقبلة التي كان يودُّ التَّوَجُّهَ إليها ويرضاها.

وقال في الأمر الثَّاني: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هنا مقام أعلى من المقام الأول؛ لأن هذا الشيء الذي أحبّه النبي ﷺ وتمناه وافق رضا الله تبارك وتعالى فقد كان ربنا أيضًا يحبه ويرضاه، فذكر أنَّهُ الحقُّ من اللَّه فارتقى بذلك عن المقام الأوَّل.

أما الأمر الثالث فقال: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ....﴾ فقد ذُكر لحكمة قَطع حُجَّةِ المخالفين من اليهود وغيرهم باستقبال النبي ﷺ للمسجد الحرام؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى يقول في تتمة الآية ﴿

لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ} وكلمة (الناس) هنا المراد بها (مشركو العرب)-على الوجه الراجح- وكلمة (الحُجة) المقصود بها هنا الحجة الداحضة (الباطلة) التي هي الجدال والخصومة بالهوى والتي ليس لها أي دليل.

- لكن ما معنى أن الله قطع حجة المخالفين من اليهود والمشركين باستقبال النبي ﷺ للمسجد الحرام؟

أولًا: من حُجَج اليهود الباطلة:

١- زعموا أنه ما دام محمد يقول إننا على الباطل فلماذا يتوجّه إلى قبلتنا؟! فقطع الله عليهم تلك الحجة الباطلة بجعل قبلة المسلمين تجاه البيت الحرام.

٢- عند اليهود في التوراة أن النبي الخاتم سيصلي تجاه البيت الحرام قِبلة الأنبياء، فعندما صلى النبي ﷺ ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا إلى بيت المقدس وقع في قلوبهم الشك والريب! فقطع الله عليهم هذا الاحتجاج وهذا الشك بتوجه النبي ﷺ للكعبة.

ثانيًا: من حُجج المشركين الباطلة قالوا: إن محمدًا يزعم أنه أَولى الناس بإبراهيم؛ لأنه من ولد إسماعيل، فيتساءلون لماذا يصلي محمدٌ تجاه بيت المقدس وهو أولى الناس بإبراهيم الذي كان يتوجه للبيت الحرام؟! فقطع الله عليهم أيضًا هذه الحجة بتوجه النبي ﷺ للبيت الحرام.

كل هذه حجج قطعها الله عز وجل عليهم بهذا التدرج الرائع البديع.

{فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي} أي لا تخافوا مِن مثل هؤلاء المجادلين بالباطل، واجعلوا كل خوفكم وخشيتكم وتوجهكم لله وحده الذي بيده الأمر كله.

{وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ} عطف على {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ} أي ولِأُتِمَّ نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة؛ لتكمل لكم الشَّريعة من جميع وُجوهها؛ فتكون على أكمل وجه وأفضل حال.

{وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ} أي ستهتدون إلى ما ضلّ عنه غيركم من الأمم السابقة من أهل الكتاب الذين أصرّوا على العناد، والمشركين الذين أصرّوا على الشقاق، فبيّن الله عز وجل أن الهداية في هذا الدين، ولهذا كانت هذه الأُمَّةُ أشرفَ الْأمم وأفضلها؛ أمة هداها الله وشرّفها بمبعث النبي ﷺ، وشرفها بالقرآن وجعلها أفضل الأمم.

قوله تعالى: { كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١}.

{كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ} أي كما أنعمنا عليكم نعمة أخرى؛ حيث أرسلنا إليكم رسولًا من أنفسكم؛ ففي ختام الآية السابقة {وَلِأُتِمَّ

نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ} كان أيضًا من إتمام النعمة إرسال الرسول ﷺ.

{رَسُولٗا مِّنكُمۡ} أي أن كون الرسول ﷺ منكم فإن هذا لشرفٌ عظيم؛ فمن طبيعة العرب صعوبة الانقياد لغيرهم، وذلك لما لديهم من الأنفة والعزة والاعتزاز بالنفس.

{يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا} أي يقرأ آيات القرآن الذي هو أعظم النِّعَم على الإطلاق؛ فهو المعجزة الباقية، فمعجزات الأنبياء انتهت بموت الأنبياء، لكن معجزة القرآن باقية، وهو الكتاب الوحيد من الكتب السماوية الذي لم يُحرّف.

{وَيُزَكِّيكُمۡ} أي يطهركم بما يأمركم به من المعروف، وما ينهاكم عنه من المنكر، وعندما يتلو الإنسان القرآن تطهر نفسه وترتقي.

{وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ} هل هذا تكرار لقوله {يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا} فالآيات هي آيات القرآن (الكتاب)؟ لا يوجد تكرار؛ لأن (تلاوة القرآن) تختلف عن (تعليم القرآن) فـ (تلاوة القرآن) هي التلاوة والسماع والحفظ، أما (تعليم القرآن) أي يُعلمهم الأحكام والتفاصيل التي وردت في هذا الكتاب، ولذلك قال {وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ}.

ومن هنا استدل الشافعي على أن {ٱلۡحِكۡمَةَ} هي السُّنة؛

لأن واو العطف بين (الكتاب) و(الحكمة) تقتضي المغايرة في الغالب؛ فالكتاب هو القرآن: سيقرأه النبي ﷺ عليهم ويعلمهم إياه، لكن لكي يشرح ويفسر ما في القرآن كان لا بُد من كلام خارج القرآن وهي السُّنة التي هي (الحكمة).

{وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} فقد أرسل الله عز وجل رسوله بعد فترة من انقطاع الرسل، وكانت الأمم في جهالة متحيّرين ضالين إلى أن بعث الله فيهم النبي ﷺ بالحق، فعلّمهم هذا الدين العظيم فصاروا أعمق النَّاس عِلْمًا، وَأبَرَّهُمْ قلوبًا، وَأقَلَّهُمْ تَكَلُّفًا، وأصْدَقَهُمْ لَهْجَةً، وكلها نِعَم كثيرة، ولذلك قال جل ذكره بعدها {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}.

قوله تعالى: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾}.

الآية فيها أمر بعمل، وَرَتَّب على هذا العمل جزاء؛ أمر الله عز وجل العباد بذكره، وذِكْرُ الله من أعظم المِنَن التي يمتنّ بها الله على العبد؛ لأن الذي سيترتب على هذا العمل اليسير شيء عظيم ألا وهو ذكر الله العظيم للعبد الفقير.

فائدة:

الذكر يكون باللسان وبالجَنَان؛ فلا يكون الذكر باللسان فقط، لكن بالقلب أيضًا. والذكر بالقلب يكون بالإنابة وحسن التوكل على الله

واستحضار نِعَم الله والخوف والخشية وذكر عظمة الله وعزته وقدرته؛ وتأتي الخشية بالتأمل في الآيات الشرعية والكونية.

- ومن أشكال الذكر: ذكر الله سبحانه وتعالى، الصلاة على النبي ﷺ، حضور مجالس العلم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- وللذكر أكثر من مائة نعمة ذكرها ابن القيم في كتابه (الوابل الصيب) ويكفي منها أن الله سبحانه يذكر العبد، قال تعالى في الحديث القدسي: «**فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ..**»(١).

{وَٱشْكُرُواْ لِي} أي واشكروا لي نعمي التي أنعمت بها عليكم، واعبدوني وحدي، وشُكر الله يكون باللسان والجَنان والأركان؛ فاللسان والقلب يشكران، والجوارح تعمل، وأعلى درجات الشكر هو تحقيق التوحيد؛ فيعبد العبد ربه وحده ولا يشرك به أحدًا أبدًا.

{وَلَا تَكۡفُرُونِ} أي لا تجحدوا نِعَم الله؛ لأن هذا يُعد من كفران النعمة وإنكار الإحسان؛ فمَن يفعل هذا فليس بعبد شكور.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ،**

---

(١) صحيح البخاري (٧٤٠٥).

وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[(١)].

وهذا الحديث نذكره بعد كل صلاة؛ لأن الذكر والشكر وحسن العبادة أعمال لا تتأتى للإنسان بحوله وقوته ولكن تتأتى بفضل الله.

قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾}.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} يقتضي إيمان العبد - إن كان مؤمنًا - عندما تُصَدَّر الآية بـ {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} أن ينتبه! فإن كان أمرًا واجبًا وَجَبَ عليه أن ينفذ، وإن كان نهيًا فينتهي ويتوقف، وإن كان أمرًا مستحبًّا حاول أن يسعى إليه، وإن كان خبرًا وجب عليه تصديق هذا الخبر.

وهذا كله من مقتضيات الإيمان، قال العلماء: إن الآيات التي تتصدر بالنداء للمؤمنين تكون من باب الإغراء؛ أي إغراء المخاطب بالتزام الحكم أو تصديق الخبر كما فصّلنا.

- وفي هذه الآية نداء من رب العالمين للمؤمنين أن يستعينوا بالصبر والصلاة.

- ولو تأملنا الآية سنجد أن الله أرشد المؤمنين إثر الأمر بالذكر والشكر في الآية السابقة إلى الاستعانة بالصبر والصلاة في هذه

---

(١) صحيح أبي داود (١٥٢٢).

الآية، فلماذا؟

فائدة: أن العبد إمَّا أنْ يكون في نِعْمَةٍ - سواء ثابتة أو مستجدة - فيحتاج إلى أن يشكر عليها، أو في ابتلاء يطرأ عليه فيحتاج أن يصبر عليه، كما جاء في الحديث: «**عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[(١)].

فَبَيّنَ تعالى أنَّ أَجْوَدَ ما يُسْتعَان به الصَّبر والصَّلاة، والنبي ﷺ كما جاء في الحديث عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «**كَانَ إذَا حَزَبَه أَمْرٌ صلَّى**»[(٢)].

من أنواع الصبر:

١- الصبر على ترك المحارم والمآثم.

٢- الصبر على فعل الطاعات.

٣-الصبر على المصائب والنوائب.

والصبر على فعل الطاعة أعلى في الثواب من ترك المآثم؛ لأنها مقصودة لذاتها؛ ففِعْل الطاعة والمجاهدة على الإتيان بها على أكمل وجه - بل قد يكون منها الواجب والمستحب - أعظم؛ لأنه مقصود لذاته، أما ترك الإثم فهو واجب لا بُد منه.

(١) صحيح مسلم (٢٩٩٩).

(٢) رواه أبو داود، وحسّنه الشيخ الألباني.

ذكر شيخ الإسلام (ابن تيمية) مسألة مهمة في كتابه (السياسة الشرعية)؛ يقول: (وَأَعْظَمُ عَوْنٍ لِوَلِيِّ الْأَمْرِ خَاصَّةً وَلِغَيْرِهِ عَامَّةً ثَلَاثَةُ أُمُورٍ: أَحَدُهَا: الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ بِالدُّعَاءِ وَغَيْرِهِ، وَأَصْلُ ذَلِكَ الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصَّلَوَاتِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ. الثَّانِي: الْإِحْسَانُ إلَى الْخَلْقِ بِالنَّفْعِ وَالْمَالِ الَّذِي هُوَ الزَّكَاةُ. الثَّالِثُ: الصَّبْرُ عَلَى أَذَى الْخَلْقِ وَغَيْرِهِ مِنْ النَّوَائِبِ. وَلِهَذَا يَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالصَّبْرِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}..).

{إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ} المعية هنا معية عناية ورعاية؛ فإن الله مع الصابرين يوفقهم ويعينهم.

وقفة:

أجمع السلف على أن الله مستوٍ على العرش فوق سبع سموات لا يخالط أحدًا من مخلوقاته ولا من عباده، وإنما المعية نوعان: معية عامة لجميع الخلق؛ وهي معية اطّلاع وإحاطة. ومعية خاصة؛ فهي خاصة بالمؤمنين، وهي معية عناية ورعاية وحفظ وتأييد ونصر.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ
أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ
أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ
صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا
وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن
يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى
ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟
وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾

{وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ} ذكر الله عز وجل قبل هذه الآية فضل الصبر، وقرن الحق سبحانه الصبر بالصلاة، وبَيَّنَ أن الاستعانة بالصبر أمرٌ مهم جدًّا لتحصيل المطلوب، فأي مطلوب يريد الإنسان الوصول إليه لا بُد له أن يستعين بالصبر في سبيل الوصول لهذا المُبتغى.

- وفي هذه الآية بيَّن الله سبحانه وتعالى أن من أفضل الطاعات وأعظم القربات إليه هو (الجهاد في سبيل الله)؛ وهو الإنسان الذي خرج مجاهدًا ليجعل كلمة الله هي العليا؛ وذلك لأنه يترك كل محبوب من (أمواله، أبنائه، بيته، زوجته)، هذا المجاهد عندما خرج تاركًا كل شيء خلف ظهره مُقبلًا على ساحة القتال لا يعلم هل سيعود إلى مَن خَلَفَه مرة أخرى أم لا؟ لذلك تُعَد تلك الطاعة من أصعب الأمور على النفس وتحتاج إلى صبر عالٍ جدًّا.

- والإنسان بطبيعته لا يمكن أن يترك شيئًا يحبه إلا إذا عَلِمَ أن هناك شيئًا أعظم منه ينتظره مُقابل هذا الترك.

(قال أحد علماء السلف: المحبة هي المحرك) فلا يوجد شيء يُحرك الإنسان ويدفعه إلى العمل إلا الحب، وحب الشيء لا يأتي إلا إذا كانت فيه مصلحة ستعود على المُحِب، والمجاهد يعلم أنه سيأتي من وراء الجهاد مصلحة أعظم من فقد النفس.

- وفي هذا الموضع نهى الله عز وجل عن إطلاق لفظ الأموات

على الشهداء؛ لأن هناك حياة برزخية كما أن هناك حياة في الآخرة وبالتالي فإن مَن مات مات بمقاييس الدنيا، ولكن هناك حياة أُخرى تنتظرهم.

(عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: ١٦٩] قَالَ: «أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: **«أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»**[1]. وهذا إنما لعلمهم بفضل الشهادة وعظمها وقدر ومكانة الشهيد عند ربه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»**، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ**

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ» (١).

فائدة:

جعل الله سبحانه وتعالى الدور ثلاثة:

١ - **دار الدنيا:** يعيش الإنسان فيها بالبدن والروح، ولكن على أيٍّ منهما يقع الحساب؟ تسري الأحكام على البدن الذي يصدر منه الأشياء (والروح تكون تابعة له)؛ فمثلًا إذا قال الإنسان بلسانه شرًّا كـ (كذب، غِيبة،..) فإنه يُحاسب عليها، وكذلك أيضًا إن قال خيرًا كـ (كلمة طيبة، تلاوة قرآن،...) فإنه يُحاسب عليها.

- إذًا حركات اللسان التابع للبدن يُحاسب عليها بالخير أو بالشر، والأحكام الشرعية لدينا تترتب على ما يظهر من حركات الجوارح؛ فإذا ما أضمر في نفسه شيئًا مخالفًا للظاهر فإن حسابه يكون فيما بينه وبين ربه في الآخرة، ولما كانت الأحكام سارية على الأبدان في الدنيا وكانت الأرواح تابعة لها كانت هذه الأرواح تتألم بتألم الأبدان، وكذلك تتلذذ بلذتها (فآلام الجسد تؤثر على الروح وسعادته أيضًا تؤثر عليها).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).

٢- **دار البرزخ:** ولها أحكام مختلفة؛ فتجري على الأرواح أما الأبدان فهي تابعة لها.

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ: «**هَاهُنَا**» وَقَالَ: «**وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ حِينَ يُقَالُ لَهُ: يَا هَذَا، مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟**» قَالَ هَنَّادٌ: قَالَ: «**وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ.** زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ: «**فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} [إبراهيم: ٢٧]**» الْآيَةُ، قَالَ: «**فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ**». قَالَ: «**وَإِنَّ الْكَافِرَ...**» فَذَكَرَ مَوْتَهُ قَالَ: «**وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ: لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ:**

هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ» زَادَ فِي حَدِيثِ جَرِيرٍ: «**ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَبْكَمُ مَعَهُ مِرْزَبَّةٌ مِنْ حَدِيدٍ لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ لَصَارَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ بِهَا ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ فَيَصِيرُ تُرَابًا، ثُمَّ تُعَادُ فِيهِ الرُّوحُ»**(١).

***الشاهد من الحديث:** «وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ» فيضيق القبر على الكافر حتى تدخل الضلوع في بعضها وتتكسر، وهذا عذاب رهيب، إذًا ينصب العذاب على الجسد، وألفاظ الحديث صريحة.

فإذا انتقل العبد إلى حياة البرزخ فإن المعايير سوف تختلف فلا يسأل أحد ما الذي يحدث بالداخل ولا كيف يحدث؟ وحياة البرزخ لا تُقاس أبدًا بمقاييس الحياة الدنيا، ومَن يفعل ذلك يضل لأنه غيب لا ينبغي الخوض فيه، ومَن يتعجب من إجلاسه في قبره ألم يتساءل أيضًا عن كيفية رده على الملائكة حين تسأله وقد فارقته روحه وتوقف عن الرد على مَن يكلمه من أهل الدنيا، فالأحكام في هذا الموضع مختلفة عن سابقه، وبالتالي لا يصح إدخال العقل في هذه

---

(١) سنن أبي داود (٤٧٥٣).

المسائل، ومن ثَمَّ قياسها على أحكام الدنيا.

سؤال: نعيم القبر وعذابه على أيهما يقع (الجسد أم الروح)، هل يقع على كلاهما أم أنه يقع على أحدهما دون الآخر؟

الجواب: من عقيدة أهل السنة والجماعة في عذاب القبر ونعيمه أن النعيم والعذاب في القبر يقع على الروح والبدن، ولكن كما سبق القول فإن الروح تكون في المقدمة ثم يتبعها البدن، والحديث السابق أوضح هذا فقد جاء فيه أن الأرواح تسكن في جوف طير خضر تسرح في الجنة كما تشاء ثم تعود إلى مقرها (سعادة الروح والجسد في القبر، لقد انفصلت عنه فترة وذهبت لتسعد وحدها ثم عادت لتتصل به ويمكن أن يُنعَّم كلاهما معًا.

وقد وقع الخلاف في هذه الجزئية بين أهل السنة والجماعة وبين الفِرَق الضالة، وما زالت هذه الفِرق ضالة في هذه الجزئية.

وقد يتساءل الإنسان (ولو فيما بينه وبين نفسه) كيف تُعذَّب الروح أو تُنعَّم؟

الرد: الإنسان إذا رأى في نومه ما يُفزعه فما الذي يُعذَّب في هذه اللحظات الروح أم الجسد؟ الروح أولًا والدليل أنه عندما يستيقظ يشعُر بضيق في صدره أو باختناق، والبعض يصل به الأمر إلى حد الإشراف على الموت، الأصل في عذاب هذا النائم الذي رأى ما يُفْزِعه هو عذاب الروح، ولكنه قد يؤثر على الجسد أيضًا إذا تأثرت

أعضاؤه بهذا الفزع، وهذا نموذج مصغر لما سيحدث في القبر، فالروح تُنعم أو تُعذب ويتبعها الجسد في كلٍّ منهما.

٣- **دار القرار:** ولها أحكامها أيضًا: فيوم تقوم الساعة تُحشر الأجساد مع أرواحها، ويكون الإنسان إما في نعيم أبد الآباد بجسده وروحه أو في عذاب عياذًا بالله.

الخلاصة: أن حياة البرزخ مختلفة عن الحياة الدنيا، أما الشهيد فإنه تتنعم روحه وتتلذذ في الجنة ثم تعود إلى جسده ويتنعما معًا بكيفية لا نعلمها؛ أي تتصل أحيانًا بالجسد وأحيانا تنفصل عنه، هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة قاطبةً، ولا ينبغي لعاقل أن يحيد عنها أو يضل لأنها من الثوابت.

قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

ذكر الله عز وجل أنواعًا من البلايا التي يُصاب بها العبد، ولكنه سبحانه ذكر أيضًا أنها ستكون قليلة وليست كثيرة لماذا؟ لأن أسماء الأجناس (المُعرفة) التي وردت في الآية (الخوف، الجوع، الأموال،...) سُبِقُت باسم جنس نكرة وهو كلمة (شيء)؛ فبذلك أفاد التقليل لا التكثير، كما أن التنوين جاء للتقليل أيضًا.

ومعنى الآية: أيها المؤمن سوف يأتيك شيء من: الخوف (عدو، فقر، مرض، الخوف من أي شيء)، أو شيء من الجوع (جائحة في

بلد مثلًا فتحل المجاعة على الجميع، أو يُصاب شخص بعينه بالفقر إلى حد أنه لا يجد قوت يومه)، وقد تضيع الأموال، وقد يفقد العبد شخصًا عزيزًا عليه كالولد مثلًا، ومن أنواع البلايا أيضًا ما يُصيب البلاد من الجدب (وهنا تَنْقُص الثمرات).

كل هذه البلايا التي قد يُصاب بها العبد ولكنها لن تكون بصورة مفجعة لماذا؟ لأنه مؤمن، وهذا بخلاف ما أصاب الأمم السابقة فقد أصابتهم تلك الأشياء أيضًا ولكنها كانت بانتقام واستئصال لشأفتهم.

- فهناك فرق بين ابتلاء الرب لعبده المؤمن ليُرقيه ويُعطيه الأجر ويختبر صبره ورضاه، فينزل عليه الابتلاء برحمة ولُطف (وهذا هو لُطف الله بعباده المؤمنين) وابتلاء الكافر الفاجر حيث الشدة والعذاب والألم.

- ولذلك خُتِمَتْ الآية بقوله سبحانه {وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ} وفي هذا تحفيز لحمل النفس على الصبر عند المصيبة؛ لأن البشرى جاءت من الله سبحانه.

والناس عند الابتلاء ينقسمون إلى فريقين:

١ - **فريق يجزع:** وهذا النوع خسارته مُضاعفة:

أ- خسارته الأولى تمثلت في مصيبته التي ابتلي بها.

ب- خسارته الثانية تمثلت في فقده للأجر والثواب؛ لعدم صبره على قضاء الله (عند جماهير أهل العلم: الصبر واجب، والرضا

مُستحب).

٢- **فريق يصبر:** هذا النوع نال الخَيْرَين:

أ- عندما أصابه الابتلاء تلقّى قضاء ربه بالقبول والرضا فنزلت عليه السكينة وذاق برد الرضا (هذا هو الفضل الأول).

ب- الأجر العظيم والثواب الذي وعد الله سبحانه به عباده الصابرين {وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ} وقوله تعالى { قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾} [الزمر].

قوله تعالى: {ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾}.

من صفات الصابرين أنهم عند المصيبة يسترجعون ويقولون هذا الدعاء: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ}: التوكيد بـ (إنَّ) جاء في الآية مرتين فلماذا؟ لأنه مقام انتباه واهتمام؛ فعلى العبد أن ينتبه لأنه عند المصيبة يمكن أن يتفوه بكلمات لا ينبغي أن تُقال (يسخط، يفقد عقله فهول المصيبة قد يجعل البعض يفقد رشده لحظة نزولها.

ولذلك علمنا ربنا في هذه اللحظة أن نقول {إِنَّا لِلَّهِ}: أي أننا مِلْكٌ لله وعبيدٌ له ولا نملك من أمرنا شيئًا، فإن أعطى الله سبحانه وتعالى فذاك بكرمه، وإن أخذ فذاك بحكمته وعلمه، سبحانه يفعل في ملكه ما يشاء ولا اعتراض لأحد على هذا الحكم.

- وعلى العبد أن يُجاهد نفسه عند المصيبة حتى لا يُضَيّع أجر الصبر عليها.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ١٥٦]، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**»، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ، رَسُولَ اللهِ ﷺ [(١)].

{وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ} فيها تأكيد أننا راجعون إلى ربنا سبحانه وتعالى بكل ما نملك من نعم وعطايا منحنا إياها، وإليه مرجعنا ونهاية أمرنا.

يقول الإمام العِز بن عبد السلام: (لِلْمَصائِبِ والبَلايا والمِحَنِ والرَّزايا فَوائِدُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلافِ رُتَبِ النّاسِ) أي أن للمصائب والمحن فوائد تختلف باختلاف الناس.

لكن ما هو السبب الذي جعل الناس يُصابون بحالة من التوتر والاكتئاب عند نزول المصائب؟

كل هذا يرجع إلى سوء الفهم عن الله سبحانه، وأما الفوائد التي ذكرها العِز بن عبد السلام فتتمثل في:

---

(١) أخرجه مسلم (٩١٨).

١- (مَعْرِفَةُ عِزِّ الرُّبُوبِيَّةِ وقَهْرِها): وتلك نعمة كبرى (معرفة العبد لربه).

٢- (مَعْرِفَةُ ذِلَّةِ العُبُودِيَّةِ وكَسْرِها): فيعلم الإنسان حين تنزل عليه المصيبة أنه عبد ضعيف لا يملك شيء {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ} نحن مِلكًا لله لا لأنفسنا، فاعترفوا أنهم مِلك لله وعبيد له سبحانه، راجعون إلى حكمه وتدبيره وقضائه وتقديره، لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه.

٣- (الإخْلاصُ لِلَّهِ تَعالى): فالعبد عند نزول البلاء وعدم القدرة على إيجاد الحل عليه أن يُخلص في الدعاء لربه سبحانه لمعرفته أنه لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه؛ قال الحق سبحانه: { وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧} [الأنعام].

٤- (الإنابَةُ إلى اللَّهِ تَعالى والإقْبالُ عَلَيْهِ): وتلك فائدة أخرى لحلول المصيبة بالعبد؛ فعند المصيبة يكون الإنسان ضعيفًا في الغالب، مكسورًا أيًّا كان سبب هذا الانكسار (موت عزيز، فَقْد مال، أو غير ذلك) ففي هذه الحالة عليه أن يلجأ إلى الله عز وجل فهو مَن بيده القدرة على جبر هذا الكسر؛ قال الرحمن الرحيم: {إِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨} [الزمر] فالإنسان العاقل

حين يُصيبه الضُّر يرجع إلى ربه ويدعوه ويُنيب إليه لأنه وحده هو القادر على كشف الضُّر.

٥- (التَّضَرُّعُ والدُّعاءُ): قال الحق سبحانه { وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾} [يونس].

*وقال سبحانه:{ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾} [الإسراء].

٦- (الحِلْمُ مِمَّنْ صَدَرَتْ عَنْهُ المُصِيبَةُ): فقد يتمثل الابتلاء في تسلُّط شخص على آخر وإلحاق الضرر به، فيصبر مَن وقع عليه الضرر ويحلُم؛ قال ربنا سبحانه ثناءً على إبراهيم عليه السلام: { وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾} [التوبة].

وفي الحديث عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ**»(١).

وللحِلم مراتب؛ فالحِلم على الصغيرة ليس كالحِلم على الكبيرة، وكلما كانت المصيبة أعظم وكان الحِلم أكمل كلما كان لهذا الحليم

(١) أخرجه مسلم (١٧).

درجة أعلى.

٧- (العَفْوُ عَنْ جانِيها): أي العفو عمن ظلمه؛ قال ربنا تبارك وتعالى:{ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤} [آل عمران]، وقال سبحانه:{ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠} [الشورى] فكل هذه آيات يستحضرها العبد عند نزول المصيبة أو البلاء فيثبت قلبه ويرسخ ويعرف أن للمصائب فوائد.

٨- (الصَّبْرُ عَلَيْها، وهو مُوجِبٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ تَعالى وكَثْرَةِ ثَوابِهِ): فالصبر على المصيبة يكون سببًا لجلب محبة الله الذي يُعطي عطاء الكريم المنان {وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ} فالصبر على البلاء يصل بصاحبه في نهاية الأمر إلى أعظم أجر يناله العبد ألا وهو حب الله له {إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ}.

٩- (الفَرَحُ بِها لِأجْلِ فَوائِدِها): وقد كان السلف الصالح يعلمون ذلك (عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: وَضَعَ رَجُلٌ يَدَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أُطِيقُ أَنْ أَضَعَ يَدِي عَلَيْكَ مِنْ شِدَّةِ حُمَّاكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنَّا مَعْشَرَ الْأَنْبِيَاءِ يُضَاعَفُ لَنَا الْبَلَاءُ، كَمَا يُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ، إِنْ كَانَ النَّبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يُبْتَلَى بِالْقُمَّلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ، وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى يَأْخُذَ الْعَبَاءَةَ فَيَجُوبَهَا، وَإِنْ كَانُوا**

لَيَفْرَحُونَ بِالْبَلَاءِ كَمَا تَفْرَحُونَ بِالرَّخَاءِ»(١). كانوا يفرحون بالبلاء لماذا؟ لمعرفتهم أن في البلاء عطاء فإذا ما نزل فرحوا لما يكمن فيه من فوائد وعطايا، ولذلك فإن العقلاء أصحاب النفوس الشريفة والمطالب العالية النفيسة يشكرون على البلاء.

١٠- (الشُّكْرُ عَلَيْهَا لِما تَضَمَّنَتْهُ مِن فَوائِد): وتلك هي أعلى مرحلة في تقبل المصيبة (الشكر عليها) فهي مرحلة تتضمن فوائد كثيرة جدًّا.

وقد يَتَحَيَّر البعض من هذا القول فيتسائل: كيف أشكر على المصيبة؟

نقول: إذا مرض الجسد واحتاج إلى تدخل طبي لاستئصال عضو أصيب بمرضٍ ما، ولن يصلح حال باقي الجسد إلا باستئصال هذا العضو ما الذي يحدث في هذه الحالة؟ يستسلم المريض لأمر الطبيب ويسمح له باستئصال هذا العضو، وليس هذا فحسب بل إنه عندما يتعافى يشكره على هذا الجهد الذي بذله حتى يتعافى! بالرغم من كل ما تجرعه من ألم نتيجة بتر هذا العضو، وكذلك المصيبة عندما تُصيب نفس العبد تكون بمثابة المشرط الذي استخدم مع الجسد ليُخلصه من العضو الفاسد ويتم التعافي، وتكون الفائدة التي لحقته أعظم من كل هذه الآلام التي أصابته، وكذلك المصيبة عندما

---

(١) مسند أحمد (١١٨٩٣).

تُصاب بها النفس يكون ألمها ألمًا رهيبًا، وبالرغم من ذلك يشكر العبد ربه لأن هذا البلاء عمل على استئصال آفة كان من الممكن أن تكون سببًا في هلاك هذا العبد

١١- (تَمْحِيصُها لِلذُّنُوبِ والخَطايا): قال الحق سبحانه: { وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠} [الشورى] فما نحن فيه من مصائب يرجع إلى ما يفعله العباد أنفسهم (ذنوب-معاصٍ)؛ إذًا علينا عند نزول البلاء أن نشكر الله عز وجل؛ لأنها ربما تكون سببًا في تمحيصنا مما نحمله من ذنوب وخطايا.

١٢- (رَحْمَةُ أهْلِ البَلاءِ ومُساعَدَتُهم عَلى بَلْواهم): فلا يشعر بحال المريض إلا مَن كان مثله، وكذا الإنسان المُعافى لا يشعر بحال المُبتلى، فإذا ما ابتلي بدأ يشعر بما يشعر به أهل البلاء، وهذه من النِّعم التي تدخل في طي البلايا والتي قد تخفى على الكثير من الناس، فحين يُبتلى الإنسان يرحم غيره من أهل البلاء ويشكر ربه على العافية.

١٣- (مَعْرِفَةُ قَدْرِ نِعْمَةِ العافِيَةِ والشُّكْرُ عَلَيْها): فيعرف الإنسان حال عافيته أنه في نعمة كبيرة جدًّا ويعرف قدر هذه العافية بعدما سُلِبت منه ثم عادت إليه. **مثال**: شخص معافى يتحرك ذهابًا وإيابًا كما يحلو له ثم أصابه المرض فأصبح طريح الفراش مُحتاجًا لمَن يُساعده لقضاء حوائجه، وبعد فترة عافاه الله مما ابتلي به، فشكر الله سبحانه على ما كان فيه وما أصبح عليه، هذا الشخص ينبغي عليه

أن يكون أكثر شكرًا لله بعد هذا الابتلاء لمعرفته قيمة النعمة التي سُلبت ثم عادت.

١٤- (مَا أعَدَّهُ اللَّهُ تَعالى عَلى هَذِهِ الفَوائِدِ مِن ثَوابِ الآخِرَةِ عَلى اخْتِلافِ مَراتِبِها).

١٥- (ما في طَيِّها مِنَ الفَوائِدِ الخَفِيَّةِ): قال الحق سبحانه: {وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦} [البقرة]، وقال تبارك وتعالى: {فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩} [النساء].

١٦- (إنَّ المَصائِبَ والشَّدائِدَ تَمْنَعُ مِنَ الأشَرِ والبَطَرِ والفَخْرِ والخُيَلاءِ والتَّكَبُّرِ والتَّجَبُّرِ) فلماذا؟ ما الذي أوصل النمرود إلى ما كان عليه من تجبر وتكبر؟ الذي أوصله إلى ذلك الملك والقوة وعدم وجود ابتلاءات، وإلا لو كان هذا النمرود فقيرًا أو سقيمًا أو فاقدًا للسمع والبصر هل كان يستطيع أن يقف ويقول: {قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ}؟ بالطبع لم يكن هذا ليحدث. وكذا فرعون عندما قال{فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤} [النازعات] كان لديه مُلك وجاه وسلطان وصحة ففتنته؛ قال ربنا سبحانه: {كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧} [العلق] فالطغيان طبيعة في البشر، وحين تزداد النعم في يد العبد قد تُوصله إلى درجة الطغيان، وهنا يأتي كرم الكريم ليُوقفه بالابتلاء فينكسر وينهزم ويُصبح ضعيفًا فيعود إلى رشده،

ويعلم أنه عبد لا ينبغي عليه أن يتعدى حدود العبودية.

قوله تعالى: { أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧}.

فمَن هؤلاء الذين عليهم صلوات من ربهم ورحمة؟ {أُوْلَٰٓئِكَ}: اسم إشارة، والإتيان باسم الإشارة للتنبيه على أن مَن كانت لهم هذه الصفات التي ذُكرت قبل اسم الإشارة سيكون عليهم صلوات من ربهم ورحمة.

{صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ} صلاة الله على العباد هي ثناء في الملأ الأعلى، وكذا صلاته سبحانه على نبينا ﷺ هي ثناء عليه في الملأ الأعلى أيضًا، ولكنه ثناء دون ثناء، وهناك قول آخر لبعض أهل العلم يقولون فيه: إن المقصود بالصلاة هنا هو: الرحمة والعطاء.

* والراجح من أقوال أهل العلم هو: أن الصلاة من الله على العباد هي ثناؤه سبحانه عليهم في الملأ الأعلى، ولكن ثناؤه على النبي ﷺ يختلف عن ثنائه على باقي العباد (درجات).

ولكن ما السبب الذي جعلنا نجنح إلى قول مَن قالوا: إن الصلوات تعني الثناء؟

لأن عطف الرحمة على الصلاة تُشعِر بالمُغايرة {صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ} أو تقتضي المغايرة، وإلا يكون هناك تكرار! وهذا يتنافى مع بلاغة القرآن وعظمته وحسن البيان في الآيات.

{وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ} جملة اسمية تُفيد الحصر، (هُم): ضمير الفصل يُفيد التوكيد والحصر، وما بعده نعت ليس له محل من الإعراب.

- فيكون المعنى: فقط هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات العظيمة الجليلة هم الذين هداهم الله للحق والصواب والرشد وبيَّن لهم معنى الصبر وجزاء الأعمال.

قوله تعالى: { إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨}.

ذكر الله - تبارك اسمه - مسألة الحج والعمرة بعد ذكر الجهاد وكأنه جمع بينهما؛ **فما وجه الشبه بين الحج والغزو في سبيل الله؟**الجواب: كلاهما فِيهما شِقُّ الأنْفُسِ وتَلَفُ الأمْوالِ؛ فأما الجهاد ففيه مشقة كبيرة جدًّا؛ لأن فيه تلف النفس، فالإنسان قد يفقد روحه في لحظة وتنتهي حياته؛ لذلك يحتاج في ساحة القتال إلى قلب قوي، وشجاعة، وقوة إيمان.

وأما الحج ففيه من الجهاد لأن فيه تلف الأموال، فضلًا عن ترك الأولاد والديار، والسفر من بلد إلى أخرى، ثم إنه لا يعلم هل سيعود أم لا؟ ويتكلّف مؤنة السفر مع المشقة التي تشبه مشقة الجهاد.

عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ؟

قَالَ: «نَعَمْ، عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ»(١).

*نرى الصحابيات وزوجات النبي ﷺ كيف كنّ حريصات على الآخرة وما ينفعهن هناك، فلما علمت فضل الجهاد وما يترتب عليه من الثواب العظيم سألت فيما ينفع: هل للنساء من جهاد؟ أخبرها النبي ﷺ بجهادها وهو (الحج)؛ فالله سبحانه وتعالى يعلم طبيعة بنات آدم وكيف أنهن ضعاف ولا يقوين على القتال؛ فمنع عنهن الحرج تخفيفًا من اللطيف الحكيم الرحيم بعباده.

وقال بعض العلماء: إن الآية ذكرت بعد آيات الجهاد، ومنهم مَن قال: إنها ذُكرت بعد آيات الصبر؛ وذلك لأن الحج يحتاج إلى صبر لتحمل المشقة والزحام والأذى، والله تعالى أعلم.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ الصفا لغة: الحجر الأملس، والمروة لغة: حجر ليّن أبيض، وشرعًا: جبلان يسعى بينهما الحاج والمعتمر أثناء أدائه شعائر الحج والعمرة.

﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الشعائر: جمع شَعِيرة؛ وهي العلامة. والمراد أنه سبحانه يعلّم العباد أنّ الصفا والمروة من شعائر الدين، أي من علامات الدين.

وعندما نذكر كلمة شعائر يتبادر للذهن سريعًا (شعائر الحج)، فأراد الله أن يبيّن للعباد أنّ الصفا والمروة والسعي بينهما هذا من

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٩٠١)، وأحمد (٢٥٣٢٢).

شعائر دين الله، ولَيْسَا من أفعال الجاهلية؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يطوفون حول الصفا والمروة - كما سيأتي في أسباب نزول الآية - فبيّن لهم رب العالمين أنّ هذه الشعائر من شعائر الدين، وليس لها علاقة بفعل الكفار الذين كانوا يعبدون الأصنام.

{فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ} الحج: هو القصد؛ فالمسلم يقصد مكانًا معيّنًا وهو البيت الحرام. والعمرة: أُخذت من كلمة العِمارة؛ فالمسلم عندما يذهب ليؤدي العمرة فإنه بذلك يعمر بيت الله الحرام بهذه الزيارة.

{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا} أي لا إثم عليه أن يسعى بين الصفا والمروة؛ فنفى عنهم الحرج في هذا السعي بينهما، وهنا ظاهر الكلام على أنّ هذا الأمر على الجواز وسنأتي لتفصيل المسألة.

{وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا} أي مَن أدّى فريضة الحج أو العمرة (على مَن قال بفرضية العمرة) وأتمّهما، ثم أراد أن يحج حجَّ تطوع، أو يذهب للعمرة مرة أخرى فهذا جائز، لكن يلزمه الرجوع إلى بلده أولًا ثم يعود مرة أخرى (والتفصيل في كتب الفقه).

{فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} أي مَن أراد بهذا التطوع من الحج والعمرة أن يكون خالصًا لوجه الله تبارك وتعالى وليس لشيء آخر فإن الله شاكر عليم.

و(الشكور) هو الذي يعطي الكثير على العمل القليل؛ والمعنى أن الله مُجازٍ على الطاعة مهما كانت قليلة فيُعطي عليها الثواب الكبير جدًّا مبالغة منه في الإحسان. فالله يشكر العباد ويعطيهم حسنات كثيرة إذا ما قورنت بالعمل البسيط، وهذه نعمة كبيرة جدًّا من النِّعم ينبغي للعبد أن يتفكر فيها، وكيف يجازينا سبحانه وتعالى على القليل بالكثير.

و(العليم) صيغة مبالغة؛ فهو سبحانه عليم بالأشياء، يعلم مقادير الأعمال، وكيفية هذا العمل وكيف تمّ، يعلم النية التي نويتها لهذا العمل، فالملايين من الخلق يقفون في ساحة الحرم ليؤدوا فريضة الحج والعمرة، أتوا من شتى بقاع الأرض من أماكن مختلفة لكن الله يعلمهم جميعًا ويعلم ما تخفيه كل نفس، يعلم النوايا ويُجازي عليها ولا يظلم ربك أحدًا؛ قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء] فالمسألة جميلة وعظيمة، سبحانه لا يظلم مثقال ذرة، فهو يعلمها ويجازينا بها الكثير ونحن لا نستحق!

سؤال: لماذا ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية باسمي الشاكر والعليم خاصة؟

الجواب: التطوع في الحج يتضمن (الفعل) ويتضمن (النية)؛ فختم الآية بـ (شاكر) لأن الشكر مقابل (الفعل) فهو الذي يُثيب عليه، و(عليم) لأن الحج قصد ونية وهو عليم (بالنية).

وسبب نزول الآية: ما ذكر في الصحيحين: (عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ ﵂ فَقُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْتِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} [البقرة: ١٥٨]، فَوَاللَّهِ ما على أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لا يَطُوفَ بالصَّفَا والمَرْوَةِ، قالَتْ: بِئْسَ ما قُلْتَ يا ابْنَ أُخْتِي! إنَّ هذِه لو كَانَتْ كما أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ، كَانَتْ: لا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَطَوَّفَ بهِمَا، ولَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ في الأنْصَارِ....)[(١)].

* والمعنى: أن عُرْوَةَ سَأَلَ خَالتَه أُمَّ المُؤمِنينَ عائِشَةَ ﵂ عن فهمه للآية؛ حيث فهم منها أن السعي بين الصفا والمروة على الاستحباب؛ أي قد لا يفعله الحاج أو المعتمر، فبيّنت له أن ما قام بتأويله (تفسيره) ليس كذلك؛ ولو كانت بهذا المعنى الذي ذكره لكانت (لا جُنَاحَ عَلَيهِ أَنْ لَا يَتَطَوَّفَ بهِمَا)، ثُم بيّنت أنها للأنصار (كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ، الَّتي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ المُشَلَّلِ، فَكانَ مَن أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بالصَّفَا والمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا، سَأَلُوا رَسولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} [البقرة: ١٥٨] الآيَةَ. قالَتْ عَائِشَةُ ﵂: وقدْ سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّوَافَ بيْنَهُمَا، فليسَ لأحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بيْنَهُمَا..).

(١) صحيح البخاري (١٦٤٣).

*فقد كان الأنصار قبل أن يُسلموا يَحُجُّونَ لِصَنمٍ يُسَمَّى مَناةَ عند المُشَلَل (وهو اسم مكان) فكان مَن حَجَّ مِنَ الأنصارِ يَرى في السَّعيِ بَينَ الصَّفا والمَروةِ إثمًا عَظيمًا؛ لأنَّه كان فيهما صَنمانِ يَعبُدُهما غَيرُهم، وهما إسافٌ ونائِلةُ، وكانوا يَكرَهونَهما.

فلَمَّا أسلَموا سَألوا رَسولَ اللهِ ﷺ عَن ذلك، فأنزلَ اللهُ تعالَى الآيةَ، فبَيَّنَ لهم أنَّه لا إثمَ عليهم في السَّعيِ بَينَ الصَّفا والمَروةِ؛ لأنَّ السَّعيَ بَينَهما مِن مَناسِكِ الحَجِّ والعُمرةِ، فهما من عهد إبراهيم عليه السلام.

- وعلى العكس من ذلك كان هناك فريق آخر (قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ، كُنَّا نَطُوفُ بالصَّفَا والمَرْوَةِ، وإنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الطَّوَافَ بالبَيْتِ فَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا، فَهلْ عَلَيْنَا مِن حَرَجٍ أَنْ نَطَّوَّفَ بالصَّفَا والمَرْوَةِ؟ فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} [البقرة: ١٥٨] الآيَةَ. قالَ أَبُو بَكْرٍ: فأسْمَعُ هذِه الآيَةَ نَزَلَتْ في الفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا؛ في الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بالجَاهِلِيَّةِ بالصَّفَا والمَرْوَةِ، والذينَ يَطُوفُونَ ثُمَّ تَحَرَّجُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهِمَا فِي الإسْلَامِ؛ مِن أَجْلِ أنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بالطَّوَافِ بالبَيْتِ، ولَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا حتَّى ذَكَرَ ذلكَ بَعْدَ ما ذَكَرَ الطَّوَافَ بالبَيْتِ).

فهؤلاء كانوا يَطوفونَ كُلُّهم بالصَّفا والمَروةِ ولا يَتحرَّجون، فلَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالَى الطَّوافَ بالبَيتِ ولم يَذكُرِ الصَّفا والمَروةَ في القُرآنِ ظَنُّوا أنَّ التَّطوُّفَ بِهما مِن فِعلِ الجاهليَّةِ، فأنزَلَ اللهُ تعالَى الآيةَ، فنزَلَتْ الآيةُ في الفَريقَيْنِ كِلَيْهما:

- في الأنصارِ الذين كانوا يَتحرَّجونَ.

- في قَوم كانوا يَطوفونَ ثم تَحرَّجوا أنْ يَطوفوا في الإسلام.

وورد أيضًا من أسباب نزول الآية: (عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أنَسَ بنَ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ الصَّفَا والمَرْوَةِ فَقالَ: كُنَّا نَرَى أنَّهُما مِن أمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كانَ الإسْلَامُ أمْسَكْنَا عنْهما فأنْزَلَ اللَّهُ تَعالَى: {إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فمَن حَجَّ البَيْتَ أوِ اعْتَمَرَ فلا جُنَاحَ عليه أنْ يَطَّوَّفَ بهِمَا} [البقرة: ١٥٨])[1].

سؤال: هل السعي بين الصفا والمروة واجب أم مستحب؟

الجواب: هناك ثلاثة أقوال للعلماء:

- **القول الأول:** أنه ركن من أركان الحج والعمرة، ومن لم يفعله فقد فَسَدَ حجه أو عمرته؛ لأن الركن لا يجبر بدم.

- **الثاني:** أنه واجب؛ فلو طرأ عليه أمرٌ ولم يفعله فعليه دم.

- **الثالث:** أنه مستحب؛ وهؤلاء استدلوا بقوله {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}، ففهموها كما فهمها عروة.

والراجح أنه ركن؛ لأن النبي ﷺ لم يتركه أبدًا، كما أن هناك أدلة أخرى موجودة بكتب الفقه.

وعن جابر رضي الله عنه أنه قال في صفة حجة النبي ﷺ (ثُمَّ خَرَجَ مِنَ

---

(١) صحيح البخاري (٤٤٩٦).

الْبَابِ إِلَى الصَّفَا، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ: {**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ**} [**البقرة: ١٥٨**]، «**أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ**»، فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقَى عَلَيْهِ حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ، فَاسْتَقْبَلَ الْبَيْتَ وَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ، وَقَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»، ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ، قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَى الْمَرْوَةِ حَتَّى إِذَا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ إِلَى بَطْنِ الْوَادِي سَعَى، حَتَّى إِذَا صَعِدَتَا مَشَى، حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ، فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا[١]، وهناك سنن كثيرة للحج والعمرة.

*ومن الواجب على العبد أن يستحضر ضعفه وذنوبه أمام كل هذه المشاهد وهو في بيت الله الحرام.

قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩}.

قال بعض أهل العلم في هذه الآية: إنها من التفنن في الخطاب القرآني؛ ففي البداية كان الحديث عن صفات اليهود وما كانوا يفعلونه، وذمهم بأفعالهم المشينة، وقطع الطمع منهم أن يتّبعوا النبي ﷺ، ثم الحديث عن النصارى وما هم فيه من ضلال، ثم المشركين

(١) صحيح مسلم (١٢١٨).

الذين ادّعوا أنهم تابعون لإبراهيم، ثم منعهم للنبي ﷺ، ثم الحديث عن إبراهيم وبناء الكعبة ومسألة القبلة، ثم الحديث عن الابتلاء والصبر والجهاد والحج.

تأتي آيات للحديث عن معنى معين، ثم يحدث اعتراض(كَلَامٍ فَاصِلٍ)، ثم العودة للحديث مرة أخرى عن المعنى السابق. كل ذلك في تسلسل ونظم بديع رائع يجعل الإنسان يتفكر!

{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ} إن: حرف توكيد؛ والتوكيد للاهتمام ويؤكد جُرم من يكتم علمًا؛ سواء بمنع تدريسه أو تعليمه أو بإزالة الكتب وتحريفها-كما فعل أهل الكتاب من اليهود والنصارى-، وأيضًا يدخل فيه التفاسير الباطلة.

{يَكۡتُمُونَ} الفعل جاء بصيغة المضارع ولم يأتِ بصورة الماضي حتى لا يتصور أحد أن الكلام عن السابقين فقط فيمن كتموا العلم وأننا لا ندخل في هذا الذم، فهذه الآية لكل من يكتم أحكام الله وشرعه حتى في زمننا هذا، فالكلام يشمل الجميع في الماضي والحاضر.

{ٱلۡبَيِّنَٰتِ} الحُجج والأدلة التي تُعلِّم الناس كيف يعبدون الله، وكيف يمتثلون لأوامره، وتقيم شرعه كما أمر.

{ٱلۡهُدَىٰ} كل ما يهتدي به الإنسان، وكل ما وصل به الإنسان إلى طريق الحق.

- والمراد بها هنا الأحكام التي أخفوها.

سؤال: الله سبحانه وتعالى لم يذكر المكتوم عنهم في الآية فلم يقل (يكتمون عن) فلماذا؟

الجواب: للتعميم: فقد كانوا يكتمون عن الجميع (صغير، كبير، رجل، امرأة، عوام،...) وذلك حتى يُنسى الدين كله مع مرور الوقت، فيصبح الباطل حقًّا وينتشر، ويعتاد الناس الباطل. وكل هذا بسبب علماء السوء الذين كتموا الحق وحرّفوه.

{مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ} ذُكر الظرف لانقطاع الحجة عليهم وبيان انتفاء عذرهم وبشاعة عملهم لأن كتمانهم عن علم لا عن جهل.

{أُوْلَٰٓئِكَ} إشارة إلى أن الحُكم لكل مَن اتصف بهذه الصفات، وأنهم يستحقون العقاب بحق بتعمدهم هذا الكتمان بعد معرفة الحق.

{يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ} اللعن هو البُعد والطرد من رحمة الله، وأيضًا يحمل معنى الإذلال والغضب من الله، ويظهر أثره في الدنيا بالحرمان والذل، وفي الآخرة بدخول النار.

{وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ} أي يسألوا الله أن يلعن هؤلاء، وجاء الفعل {يَلۡعَنُهُمُ} بصيغة المضارع ليدل على أن الذي يكتم الحق ستصيبه اللعنة سواء في الماضي أو في الحاضر أو حتى في المستقبل. وكرر الفعل {يَلۡعَنُهُمُ} فلم يقل (يلعنهم الله واللاعنون) لأن اللعن من

الله شيء، واللعن من العباد شيء؛ فاللعن من الله طرد وبُعد عن رحمته وذل ومهانة، أما اللعن من العباد فهو دعاء العباد عليهم باللعن. وجاءت كلمة {ٱللَّٰعِنُونَ} معرفة بـ (ال) للاستغراق العُرفي؛ أي كل لاعن يلعن هؤلاء؛ سواء من البشر أو الملائكة.

قوله تعالى: {إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠}.

في الآية بيان لسعة رحمة الله؛ حيث يستثني من هؤلاء الذين استحقوا تلك العقوبة فريق: {إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ} أما من تاب من هذا الكتمان فعليه الرجوع من الكفر للإيمان، ومن الكتمان إلى الاعتراف بالحق وإعلانه، وهذه من الشروط التي ينبغي أن يفعلوها حتى يغفر لهم.

{وَأَصۡلَحُواْ} الإصلاح بأن يظهروا ما أخفوه ولا بُد.

{فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ} الفاء عندما دخلت على اسم الإشارة (أولئك) دلّت على معنى زائد على الاستثناء وهو: الرضا من الله؛ فالله يتوب عليهم ويعقب ذلك بالرضا منه سبحانه عليهم.

- والله يرضى عن التائبين لأنه يفرح بهم؛ والفرح صفة من صفات الله الثابتة عنه سبحانه؛ قال النبي ﷺ: «**لَلَّهُ أفْرَحُ بتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِن رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وبِهِ مَهْلَكَةٌ وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً، فاسْتَيْقَظَ وقدْ ذَهَبَتْ راحِلَتُهُ،**

حتَّى إذَا اشْتَدَّ عَلَيهِ الحَرُّ وَالعَطَشُ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قالَ: أَرْجِعُ إلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ فَنامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ»[١].

{وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ} ختم الله سبحانه وتعالى الآية باسمي التواب الرحيم، وهما صيغة مبالغة لكثرة التوبة على عباده مرة بعد مرة، يرحمهم ولا يقنطهم من رحمته بالرغم من كل ما فعلوه، ويفتح لهم أبواب التوبة، ولولا أنه التواب لهلكنا!

قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾}.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} هل المقصود بالكفار في الآية كل طوائف الكفر أم مشركو العرب ومن أشبههم من عباد الأصنام والأوثان؟ للعلماء قولان:

القول الأول: أن المقصود بالكفار هم مشركو العرب ومن شابههم من عباد الأصنام والأوثان؛ وحُجتهم أن الله عز وجل يتكلم في الآيات التالية عن التوحيد وأن الله هو الواحد ثم يذمهم على اتخاذ الأنداد، وبذلك يكون الخطاب لمشركي العرب.

القول الثاني: (وهذا هو الراجح والله أعلم) أن اللفظ عام في كل كافر؛ لأنه قد ترتب عليه عقوبة؛ فاللفظ لجميع الكفار {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ

---

(١) صحيح البخاري (٦٣٠٨).

﴿أَجْمَعِينَ﴾ فالعقوبة تنال كل كافر بهذا الوصف، ولم تدل على تخصيص، فيدخل فيهم عباد الأصنام واليهود والنصارى وكل مَن عبد من دون الله إلهًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسم إشارة.

﴿عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ هذا الوصف أصبح ملازمًا لهم لا يتركهم؛ لأن (الحُكم يدور مع عِلَّته وجودًا وعَدمًا) الحُكم هنا هو الكفر، أصبح ملازمًا لهم ثابتًا بسبب أنهم ماتوا على الكفر، وينعدم هذا الحُكم عندما يتوبوا ولا يموتوا على الكفر.

مسألة: كلمة (الناس) في قوله ﴿عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ هل المراد بها كل الناس (مؤمن وكافر)؟ وكيف سيلعن الكافرُ الكافرَ؟!!

*أما في الآخرة فلعن الكفار بعضهم بعضًا واقع لا محالة، وقد ذُكر ذلك في كثير من الآيات، ومنها: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأعراف] وأيضًا ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب] وغيرها آيات كثيرة جدًّا.

*وأما في الدنيا فللعلماء في هذه المسألة توجيهات:

١ـ الكفار يلعن بعضهم بعضًا لمظالم بينهم وغيرها.

٢ـ قيل: إن الكافر في الدنيا من الممكن أن يتلاعن مع المسلم

فتعود اللعنة على الكافر.

قوله تعالى: { خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾}.

{خَٰلِدِينَ فِيهَا} هل يعود الضمير على اللعن أم جهنم؟ من العلماء من قال (الضمير عائد على اللعن) أي خالدين في اللعن؛ هذا وصف لازم وتصريح لازم باللعن الدائم. ومنهم من قال: (الضمير عائد على جهنم) أي خالدين في النار؛ لأن المقام معلوم.

{لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ} لا يُخَفف عنهم العذاب ولو يومًا واحدًا؛ فهم في عذاب دائم مستمر، ومهين وعظيم.. كل أنواع العذاب وكل أنواع العقوبات للكافر في جهنم إذا مات على الكفر، نسأل الله العفو والعافية.

{وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ} قيل: الإنظار من الإمهال؛ أي لا يُمْهلون فلا يتأخر عنهم العذاب لحظة. وقيل: من نظر العين؛ والمعنى أن الله جل جلاله لا يَنظر إلى الكافر نظرة رحمة؛ فلا ينظر إليه يوم القيامة ولا يزكيه؛ فقد غضب الله عليه غضبًا شديدًا، بالرغم من أنه الرحمن الرحيم سبحانه.

فائدة:

على الرغم من اتصاف الله سبحانه وتعالى بالأسماء التي تدل على الجمال والعظمة من سعة الرحمة والعفو والإحسان، إلا أنه

عند العقوبة لو أراد أن يعاقب أحدًا لا يفلته، وهي مسألة غاية في الأهمية فكما أننا نعبد الله بكل صفات الجمال والرحمة والعفو والإحسان لكن ينبغي أن نعلم أن له صفات جلال أيضًا فلا يصح إغفال هذا أو إهماله.

تنبيه:

يجب علينا أن نشعر بنعمة التوحيد ونعمة الإسلام، وكم من مسلم يستيقظ مسلمًا ويصلي وهو لا يشعر بهذه النِّعمة، يشعر بضيق في الأمور الدنيوية ولكن لا يشعر بتلك النعم التي من المفترض أن تُهوّن على العبد أي ابتلاء يبتلى الإنسان به.

- فلو تخيل المسلم أن لو لم يكن على الإسلام ويكون هذا مصيره!! فعندما يقرأ عن عذاب الكافرين قراءة تدبر ويتأمل خلودهم في العذاب المهين العظيم وأنه لا يخفف عنهم، بالإضافة إلى العذاب المعنوي بعدم نظر الله إليهم وغيره من أشكال العذاب؛ فيحمد الله على نعمة الإسلام التي لا يعادلها شيء، فالحمد لله على نعمة الإسلام.

قوله تعالى: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾}.

يخبر تعالى عن تفرده بالألوهية؛ فلا شريك له، ولا نِدّ له، هو الواحد الأحد الصمد هو الرحمن الرحيم.

{وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} أي أنه واحد متفرّد في ذاته وصفاته، لا معبود بحق غيره؛ لا شريك له في الألوهية ولا شريك له في الربوبية؛ فالتوحيد لا بُد فيه من نفي الشرك ونفي الشريك ونفي النظير والشبيه، وأن الله سبحانه وتعالى واحدٌ في أفعاله، واحد في صفاته، لا يشاركه أحد لا في الملك ولا في الخلق ولا في التدبير، واحد في ذاته، وليس ثلاثة كما يقول الكافرون، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وقد ورد في فضل كلمة التوحيد الكثير في السُّنة ومنها:

* قَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: «**فإنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ علَى النَّارِ مَنْ قالَ: لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بذلكَ وجْهَ اللَّهِ**»[١].

* وفي حديث الشفاعة يقول الله سبحانه وتعالى: «**ولَكِنْ وعِزَّتي وكِبْرِيائِي وعَظَمَتي وجِبْرِيائِي، لأُخْرِجَنَّ مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ**»[٢].

{ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ} ختم الآية بالرحمن الرحيم؛ لأنه سبحانه عندما تكلم عن صفات الألوهية والربوبية والتفرُّد... كل هذه المعاني معاني جلال وعز وهَيْبة ولها وقْعٌ قوي على القلوب المؤمنة التي تخاف من تلك المشاهد من العز والقهر والتفرد بالملك والخلق والتدبير.

---

(١) صحيح البخاري (٤٢٥).
(٢) صحيح مسلم (٣٢٥).

فقد ورد عن السلف الصالح أن البعض منهم كان عندما يقرأ آيات القرآن التي فيها العذاب أو النار أو جلال الله يُغمى عليه من الخوف والهيبة لاستحضار مشهد هذا الجلال!

فلما ذكر الله تبارك وتعالى كل هذه المعاني في {وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} أراد ختم الآية بـ {ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ} كي تستريح النفوس وتهدأ من تلك المعاني المهيبة التي تنخلع لها القلوب المؤمنة.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ
وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ
وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ
ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ
ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ
ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ
كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ
﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن
تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

{إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾} هذه آية من الآيات التي تتضمن ذكر بعض الأمور العِظام، والمقصود منها بيان عظمة الله سبحانه وقدرته في خلق المخلوقات، وتقرير توحيد الربوبية الذي يستلزم منه توحيد الألوهية.

{إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ} سماء عظيمة يعجز الخلق عن معرفة حجمها طولًا وعرضًا تملؤها الكواكب السيارة والثابتة وفيها نجوم؛ منها الشمس حجمها يُساوي مليون وثلاثمائة ضعف حجم الأرض، ومنها القمر المنير: والأصل فيه أنه من الأجرام السماوية المُعتمة. فكل ما نُشاهده في السماء لا يمكن للعقل عند مشاهدته إلا أن يقف ويقول: سبحان مَن خلق هذا، فالخلق عظيم والخالق أعظم!

{وَٱلْأَرْضِ} وهذه الأرض العجيبة المُقسمة إلى قارات، وما فيها من جبالٍ رواسٍ خُلقت حتى لا تميل بالمخلوقات، والأنهار والبحار ما بين العذب والمالح، وفي كلٍّ منهما مخلوقات تعيش فيه.

*ومنذ أن خلق الله السماوات والأرض وعلى مدار ملايين الملايين من السنين لم يحدث خلل في هذا النظام المخلوق ولو للحظة!

{وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ} المقصود باختلاف الليل والنهار:

١- **قيل**: هو (التعاقب الذي يحدث بينهما) فكلٌّ منهما يعقُب الآخر.

قال الحق سبحانه: { وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾} [الفرقان] أي أن كل واحد منهما يخلُف الآخر.

٢- **قيل**: إن المقصود باختلافهم (الزيادة والنقصان) ففي الشتاء يطول الليل ويقصُر النهار، وفي الصيف يحدُث العكس، هذه هي سنة الله في الكون منذ خلق السماوات والأرض لا تتبدل ولا تتغير! قال ربنا سبحانه:{ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾} [لقمان] فتزيد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار والعكس.

{وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ} السفن التي تسير في البحر.

{بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ} فكم من نفع يعود على الناس من وراء السفن! فهي تنقل البشر كما أنها تنقل البضائع التي يحتاج إليها البشر، وقبل اختراع الطائرات كان من المستحيل أن يتواصل بلد مع بلد آخر إلا عن طريق السفن، وحتى الآن وبعد اختراع الطائرات العملاقة ما زال الاحتياج للسفن قائمًا لأن الأسلحة الثقيلة

لا تُنقل إلا عن طريق السفن.

- ومن هذه السفن ما يُسمى بالسفن العملاقة التي قد يصل ارتفاعها إلى قُرابة ثمانية أدوار (بناء عالٍ يسير في البحر)، ولكن كيف لهذا الشيء أن يسير على صفحة الماء فتحمله ولا تسمح له بالسقوط والغرق فيها بالرغم من هذا الثِّقل الذي تحمله!! مَن الذي حملها بهذه الكيفية وجعلها تسير بهذه الصورة دون أن تغرق؟!

البعض يرُد ذلك إلى النظريات العلمية وقوانين الطبيعة!!

وردًّا على هؤلاء: ومَن الذي خلق الماء والهواء والقوانين التي تحكم هذه النظريات التي تتكلمون عنها؟ الخالق سبحانه لا أحد غيره.

سؤال: لماذا قدّم الله سبحانه وتعالى كلمة الفلك في قوله {وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ} على الرغم من أن الآية توضح منافع البحر، فلماذا لم يقل (والبحر الذي تجري فيه الفلك)؟

الجواب: قال بعض أهل العلم: لأن الفلك من صنع الإنسان، وما يصنعه الإنسان من أشياء تكون قريبة منه ومعروفة لديه، فذَكَرَ الفلك حتى يجعل الإنسان ينظر لآثار خَلْق الله تبارك وتعالى (ومدى النفع الذي جاء من وراء ذلك) فإن لم يكن هناك بحر فأين كانت ستجري هذه السفينة التي صنعها بيده؟!

{وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} وهذا أيضًا استكمال لبيان صُنع الله عز وجل، فالماء الذي ينزل من السماء (السُّحُب) يكون سببًا في إنبات الأرض بعد موتها أي بعد جفافها، فيخرج منها الأنواع المختلفة من النباتات والأشجار والثمار وبالتالي ينتفع بها الإنسان والحيوان.

{وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ} (البث) هو النشر، وكلمة (دابة): كلُ ما يَدبُّ على الأرض؛ فتُطلق على العقلاء وعلى غير العقلاء، وهذا يعني أنها تطلق على البشر وعلى الحيوانات، ولكن عُرفًا عندما تُقَال يتبادر إلى الذهن الحيوان فقط.

{وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ} تقلُّب الرياح وتَغيُّرها وأحوالها، فالرياح لها أحوالٌ عجيبة بل من أعجب ما يكون:

*فهناك رياح خفيفة: وهي التي يُقال عنها النسيم.

*وهناك رياح عاصفة: إذا اشتدت نوعًا ما يُقال عنها العاصفة؛ فتُحرك الأغصان والأشجار وقد تقتلعها من أماكنها.

* وهناك رياح الحصباء: فهي الحاصبة لما تحمله من حصى صغير مع هبوبها.

*وهناك الرياح القوية: التي تهب من الأرض نحو السماء: فإنها تُسمى الإعصار أو الزوبعة.

*أما الرياح الباردة: فإنها تُسمى صرصرًا (التي أهلكت قوم

عاد) قال الحق سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر].

- والريح ما هي إلا جُند من جنود الله عز وجل، وكما تأتي بالرحمة تأتي أيضًا بالعذاب، ولذلك كان النبي ﷺ يتغيّر وجهه عندما يراها: عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّهَا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضَاحِكًا، حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ، قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَى النَّاسَ، إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا، رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ، فَقَالُوا:** ﴿هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»(١).

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فمع ثِقَل السماء وما تحمله من بخار وماء (الماء ثقيل) إلا أنها تطير فوق الرؤوس ولا تسقط على الأرض!

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ آيات عظيمة كثيرة، والتنكير للتفخيم.

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ لقومٍ يتفكرون بعين المُعتبر العاقل الذي رأى قُدرة الله القاهرة وحكمته الباهرة ورحمته الواسعة التي تقتضي اختصاصه بالألوهية جلَّ جلاله وتقدسّت أسماؤه.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٩٩).

إذًا لن يَعْقِل هذه الآيات إلا أولو الألباب أصحاب العقول الذين شرح الله سبحانه صدورهم، وكان من رحمة الله عز وجل بعباده أن دعاهم في القرآن إلى معرفة الواحد الأحد من طريقين:

١- النظر في مفعولاته: فهذه هي آياته المشهودة؛ أي الآيات الكونية والتي تُعد دليلًا وبُرهانًا على وجود الخالق سبحانه، فإذا حدث جحود عند البعض أو إنكار لوجود الخالق سبحانه أو هوس فكري أو أفكار شيطانية مثلما نُشاهد اليوم قيل لهم: انظروا إلى هذا الكون المليء بالآيات التي لا بُد أن يكون لها صانع وإلا فمَن الذي خلقها؟!

*وهؤلاء الذين يتكلمون بهذا المنطق إذا قيل لأحدهم: إن هاتفك هذا هو الذي خلق نفسه؛ فإنه سيتهم قائل هذا الكلام بالجنون!! فكيف تقولون أنتم: إن هذا الكون العظيم ليس له خالق؟!!

*والأمثلة على هذا في القرآن كثيرة منها: هذه الآية التي نحن بصددها، ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران].

*والقرآن مليء بمثل هذه الآيات التي تدعو العباد إلى النظر والتأمل والاعتبار بالآيات الكونية.

٢- النظر في آياته وتدبرها: وهذه هي آياته المسموعة؛ قال الحق سبحانه:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ٢٤﴾

[محمد]، وقال تعالى:{كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾} [ص] وغيرها من الآيات التي تُبين أن القرآن من عند الله سبحانه.

قوله تعالى:{ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾}.

{أَندَادٗا} النِّدّ: الشبيه والنظير والشريك والعديل.

{يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ} في التعظيم والخضوع والإجلال لهؤلاء الأنداد!

وللعلماء قولان في المراد بـ (الأنداد):

١ـ **قيل**: الأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله ويتخذونها آلهة فيقدمون لها القرابين، ويدَّعون أنها تُقربهم إلى الله زُلفى! يُرجعون إليها النفع والضُّر، يقصدونها في قضاء حوائجهم، ويُنذرون لها!

وهؤلاء كانوا يعترفون بوجود الله عز وجل، ولكن هذه الأوثان بالنسبة لهم هي آلهة مع الله (تلك كانت عبادة مُشركي العرب).

٢ـ **قيل**: إن المقصود بالأوثان هم الرؤساء والكبراء الذين اتبعوهم، خاصةً في الأمر والنهي. واستدلّ أصحاب هذا القول على قولهم بأنه في الآية التي تليها قال تعالى: {إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ}.

*وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية القول الأول وهو الأظهر، لماذا؟ لأن الله تبارك وتعالى بيَّن في سورة الشعراء أن المشركين الذين عبدوا من دون الله أصنامًا وأوثانًا سيندمون ندمًا شديدًا حين ينكشف غطاء الغفلة، وليس هؤلاء فقط بل إن كل عاصٍ وكل ظالم وكل مَن ضيّع حياته فيما لا ينفع سيندم يوم القيامة أشد الندم عندما يأتى الله تبارك وتعالى لحساب العباد، يقول ربنا سبحانه: {تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾} [الشعراء].

لقد ندم هؤلاء ندمًا شديدًا عندما أدركوا بعد فوات الوقت أنهم كانوا في ضلال؛ لأنهم كانوا يُسوّونهم برب العالمين، فَمُشركو العرب كانوا مُقرين أن الله وحده هو الخالق الرازق المالك الذي يُحيي ويُميت ومع كل هذا كانوا يُسوونه بتلك الأوثان في المحبة والتعظيم والعبادة!

فائدة:

يرى الكثير ما يحدث من أفعال الصوفية من (تعظيم الأولياء، التَّمسُّح بالقبور، تقديم النذور والقرابين لهم، الدعاء عندهم، الاستغاثة بهم، سؤالهم كي يقضوا حوائجَهم) وهذا شرك بيّن واضح، وبالرغم من ذلك نجدهم عند مناقشتهم فيما يفعلونه يقولون: هؤلاء من أولياء الله، وهذا من باب التقرب إلى الله!! وهذا هو نفس منطق الكفار { أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣} [الزمر].

{وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ} ما المقصود بأشد حبًّا لله؛ هل حبهم لله أشد من حب المشركين لله، أم أشد من حب المشركين لآلهتهم؟هناك قولان للعلماء:

١- الذين آمنوا أشد حبًّا لله من حب المشركين لآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

٢- ومنهم مَن قال: المراد أن المؤمنين أشد حبًّا لله من حب هؤلاء (المشركين) لله؛ لأن المشركين أحبوا الله وأحبوا معه آلهة أخرى.. وبالتالي فإن الحب مُقسَّم موزَّع، اعتراه النقص، فليس خالصًا لله عز وجل (ليس بعد الشرك ذنب).

- أما حب المؤمن فهو يسير في اتجاه واحد (حب الله، وحب رسوله ﷺ)؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**». قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**»[(١)].

فالشرك هو أكبر الكبائر على الإطلاق؛ لأنه ذنبٌ لا يُغتفر إذا مات عليه العبد {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ۝٤٨} [النساء].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

قرر شيخ الإسلام ابن تيمية مسألة خطيرة: وهي اتخاذ الهَوَى إلهًا؛ فإذا كان هَوَى العبد في غير مراد الله أصبح حبه كحب المشركين لآلهتهم، فيُحركه هواه كما كان هَوَى المشرك يُحركه نحو آلهته.

- وقد تدَّعي النفوس المحبة، والحقيقة خلاف ذلك! وقد يكون لدى الإنسان شرك محبة وهو لا يشعر، كيف يكون ذلك؟ باتباعه لهواه وسيطرة هواه عليه، ولذلك قد يظن الإنسان أن أعماله لله ولكن بداخلها شرك خفي؛ حب (رياسة، مال، منصب، أولاد) يمكن أن يمنع العبد من عبادة الله على بصيرة وكما يُحب الله ويرضى؛ عَنْ أَبِي مُوسَى ﵁، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١).

وحب الله عز وجل بينه وبين حب النبي ﷺ تلازُم، ومَن يقل إنه مُحب لله ثم لا يكون مُحبًّا للنبي ﷺ فإنه كاذب في ادعائه؛ لأن الآية واضحة صريحة ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران]؛ فحب النبي ﷺ يعني اتباعه في الظاهر والباطن فيكون القول أو الفعل بنفس الوصف الذي صدر من النبي ﷺ، فإن لم يكن بهذه الصورة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٥٨)، ومسلم (١٩٠٤).

فهو مردود على صاحبه (غير مقبول).

{وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ} المقصود بالذين ظلموا: الذين اتخذوا الأنداد والأوثان معبودات من دون الله. وجواب (لو) محذوف.. لماذا؟ بقصد التهويل؛ لتذهب النفس في تصويره كل مذهب، فالأمر عظيم يعجز الإنسان عن بيانه، ولهذا فهو خارج عن دائرة الوصف أو البيان.

{إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ} ما يُعد لهم يوم القيامة من العذاب.

{أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} أن القوة والقدرة وكل شيء لله الواحد الأحد الذي يُثيب أو يُعاقب العباد على ما صنعت أيديهم، فليس معه أنداد يتدخلون في هذا الحساب.

{وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ} جملة معطوفة على ما قبلها، وفائدتها المبالغة في تفظيع الخطب، وتهويل الأمر.

- ولكن لماذا فسرها العلماء على هذا النحو؟ قيل: قوة الله سبحانه لا تُوجب شدة العذاب والبطش والعقوبة؛ فالله سبحانه وتعالى قوي ولكن يمكن أن يعفو، ولكن هنا بيَّن أنه سبحانه قوي وسوف يُعذِّب بقوة وبشدة، وعلى الإنسان أن ينتبه لهذه المسألة.

قوله تعالى:{إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾}.

{إِذْ} ظرف وقع بدل اشتمال من الجملة السابقة {إِذْ يَرَوْنَ

ٱلۡعَذَابَ}؛ وهنا حسرة أخرى يشعر بها هؤلاء الظالمون لأنفسهم بشركهم، وكأن بدل الاشتمال قُصِد به أن يُقال: لو تروا هؤلاء الظالمين الكافرين الجاحدين الذين أخفوا الحق عن العباد وأضلوهم وعبدوا من دون الله آلهة أخرى واتبعوا كُبراءهم وأمراءهم ونصروا الباطل (كل هؤلاء تنطبق عليهم الآية وليس مَن بدَّل وحرَّف وقام بإلغاء الشريعة فقط) فكل مَن فَعَلَ فِعْلًا من هذه الأفعال سيناله نصيب من هذه الآية.

{تَبَرَّأَ} التبرؤ هو تكلُّف البراءة (التباعد)، فالإنسان إذا استشعر أو ظن أن هناك أمرًا ما سيُلحِق به ضررًا بأي وجه من الوجوه فإنه يبتعد عنه تمامًا، {تَبَرَّأَ} فعل ماض، وهذا التبرؤ سيكون يوم القيامة، فلماذا جاء التعبير بالماضي في مسألة مستقبلية؟ للتنبيه على تأكيد الوقوع، فالعذاب الذي سيلحق بهؤلاء واقع لا بُد.

وهذا من عظمة القرآن فالحق سبحانه يتكلم في أمر مستقبلي ويقينًا سوف يقع، فالمُتكلم هو العليم الحكيم الذي يعلم ما كان وما سيكون وما هو كائن، فلا شيء يُعجزه ولا يمنعه من تحقيق ما أراد.

{إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ} سيتبرأ المتبوعون من التابعين. وهذا موضعٌ آخر سيشعرون فيه بالحزن والألم يُضاف إلى ألمهم الأول (حين رأوا العذاب)، وبذلك يجتمع على التابعين أمران:

١- حين رأوا العذاب وعلموا أنه قد أحاط بهم وسيدخلون جهنم

لا محالة، هنا سيتألمون ألمًا لا يمكن لأحد أن يتصوره مهما انطلقت العقول في تخيُّل هذا فليس مَن يسمع كمَن يرى.

٢- عندما يتبرأ منهم مَن كانوا يسعون خلفهم في الدنيا بل ويلهثون من ورائهم لينالوا رضاهم، وهذا ألمٌ آخر.

{ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ} فمَن هم هؤلاء المتبوعون؟

قال فريق من العلماء: إنّ المتَّبَعين على الشرك بالله يتبرأون من أتباعهم حين يعاينون عذاب الله فلم يخصص بذلك منهم بعضًا دون بعض بل عَمّهم جميعًا؛ فداخلٌ في ذلك كل متبوع على الكفر بالله والضلال أنه يتبرأ من أتباعه الذين كانوا يتَّبعونه على الضلال في الدنيا إذا عاينوا عَذابَ الله في الآخرة.

وقال فريق آخر: المتبوعون هم الكبراء والأمراء ومَن كان لهم شأن في الدنيا، أما التابعون فهم الفقراء والضعفاء.

ملحوظة: لا يمكن تخصيص الآية إلا إذا كان هناك دليل، والآية تنُص على أن كل متبوع سوف يتبرأ من تابعه ولم تخُص أحدًا بعينه أو حالة بعينها. إذًا يظل الأمر على عمومه ولا يُخصص بحالة معينة أو أشخاص مُعينين.

***ولكن ما السبب الذي جعلنا نجنح للقول بعموم الآية وعدم تخصيصها؟**

هناك أدلة في كتاب الله تُرجح هذا:

١- منها ما يخص تبرؤ البشر من بعضهم؛ كقوله تعالى {ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾} [الزخرف] فكل إنسان كان متبوعًا في الدنيا سيتبرأ ممن تبعه.

٢- ومنها تبرؤ الملائكة من عابديهم؛ كقوله تعالى { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾} [سبأ] فالملائكة سيتبرؤون من كل تابعيهم.

٣- ومنها تبرؤ الشيطان من كل تابعيه (الإنس، الجن) يوم القيامة؛ قال ربنا سبحانه: {وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾} [إبراهيم]؛ فالشيطان سيتبرأ من كل تابعيه.

٤- الأوثان نفسها سوف تتبرأ من عابديها؛ قال الحق سبحانه {وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾} [العنكبوت].

٥- وكذلك الجن سيتبرأون من كل مَن كان يتبعهم (السحرة،

الجن الكافر)؛ قال العزيز الحكيم: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦} [الأحقاف].

٦- وكذلك نبي الله عيسى ابن مريم سيتبرأ ممن جعله إلهًا أو ابنًا لله؛ فالحق سبحانه يسأله وهو أعلم ولكن السؤال كان تبكيتًا { إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝١١٧} [المائدة].

إذًا الآية عامة تشمل كل تابع وكل متبوع، وفي هذه اللحظة وذلك الموقف ستكون الحسرة شديدة؛ حسرات ما بعدها حسرات.

{وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ} (السبب) هو الوسيلة وفيها النجاة والخلاص؛ و(التقطع): هو الانقطاع الشديد؛ أي تقطعت بهم كل أسباب النجاة ووسائلها التي تعلقوا بها.

{بِهِمُ} بمعنى (عنهم) كقوله تعالى:{ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا} أي فاسأل عنه خبيرًا. أي أن التقطع كان بينهم شديدًا جدًّا، وأي سبب

كانوا يعتقدون في الدنيا أنه سيُنَجِّيهم فسوف ينقطع في الآخرة.

قوله تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾}.

في هذا الموقف العصيب: سيتمنى الأتباع أن يعودوا للدنيا مرةً أخرى حتى يتبرؤوا من متبوعيهم الذين أوصلوهم لهذا الهلاك، وهذا مجرد تَمَنٍّ لا ينفع صاحبه؛ لأن وقت العمل والإمهال والإعذار قد انتهى بنهاية أجله في الدنيا.

- وقيل: إن تمني الأتباع للرجوع للدنيا كان بغرض إغاظة المتبوعين وذلك بعدم اتباعهم حين يأمرونهم بالضلال أو الظلم أو الغَيِّ أو عدم اتباع الحق.

- وحتى هذا التمني كذب؛ لأن الله عز وجل لو أعطاهم فرصة لذلك لعادوا لما كانوا عليه من قبل؛ قال الرب سبحانه مُكذبًا لهم: {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾} [الأنعام].

{كَذَٰلِكَ} لفظ مُركب من (كـ: كاف التشبيه) و(ذا: اسم إشارة) فما هو المُشار إليه؟ قيل: الرؤية، فالله عز وجل يُريهم أعمالهم حسرات عليهم، فكما رَأَوا النار ورَأَوا ما ينتظرهم من العذاب فسيرَون أعمالهم الخبيثة المشينة حسرات عليهم (حسرة ضياع

الدنيا، حسرة تبرؤ المتبوعين منهم، حسرة دخول النار).

{حَسَرَٰتٍ} والحسرة تعني الحزن الشديد والندامة، وأصل الحسر الكشف، وشُبِّهَت الأعمال هنا بالحسرات لأن فيها كشفًا للواقع (سبب الندم على ما فات وعدم تدارك ما أوقعه على نفسه من خسارة).

{كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ} تَذْيِيلٌ وفَذْلَكَةٌ لقصَّةِ تَبَرُّؤِ المتبوعين من أتباعهم، ومعنى الفذلكة: أنها خلاصة الموضوع وتقديمه بشكل مُجمل مُختصر رائع.

- فلنستحضر هذا المشهد بعين القلب فنرى ما يدور بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة من تنصل وتحسر وتخاصم بتلك الطريقة المؤثرة.

{وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ} الفريق المُخَلَّد في النار هم الكفار أيًّا كانت طائفته (يهود، نصارى، مجوس، مشركون) فأي شخص مات على غير دين الإسلام هو خالد في النار لن يخرج منها.

قوله تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩}.

ٱلسُّوٓءِ الشر، وهو كل ما يسوء الإنسان ويدخل في ذلك جميع أنواع المعاصي.

{وَٱلۡفَحۡشَآءِ} هذا العطف من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الفحشاء من المعاصي، والفحشاء هي: الأمور المتناهية في القُبح (الزنا، شرب الخمر، السرقة).

{وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ} أي تقولوا على الله في العقائد والشرائع بغير علم جاءكم عن الله أو رسله، فيشمل بذلك مَن ادّعوا لله الولد والصاحبة. ويندرج تحت هذه الجملة أيضًا كل مَن تكلم في شرع الله بغير علم فيصف الله بغير صفاته أو ينفيها، أو يُثبت لله أشياء لم يثبتها لنفسه، أو يتكلم في شرع الله بغير علم، أو ابتدع بدعة في دين الله، أو فسَّر كلام الله على غير مراد لله، أو حرَّم شيئًا لم يحرمه الله، أو أحل شيئًا لم يُحلّه الله، أو فسَّر كلام رسول الله ﷺ على غير مراده ﷺ.

*فأكبر طريق للشيطان وأعظم مدخل له على الإنسان هو أن يجعله يتكلم في الدين بغير علم، والسالكون لهذا الطريق كثيرون فنرى (تفسيرات تُخالف مراد الله، فتاوى تُخالف شرع الله)! قال تعالى: {قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩} [يونس]، وقال ربنا سبحانه: {وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦} [النحل].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ
نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا
يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا
دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ
مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ
فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا
قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ
ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥
ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي
شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦ ﴾

ب{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ} الآية فيها إثبات لتوبيخ أهل الشرك؛ لأن النبي ﷺ قد أمرهم باتباع ما أنزل الله ومجاهدة أنفسهم على رد الهوى، واجتناب الشيطان وترك خطواته والالتزام بشرع الله، ولكن كان ردهم على كل هذا غريب!! {قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ}!

{بَلۡ} موضع بل هنا للإضراب الإبطالي والإعراض؛ إعراض عن دعوة الرسول ﷺ لهم باتباع ما أنزل الله. والسبب في هذا الإعراض هو: عدم الإذعان لله ولا للرسول ﷺ؛ لأنهم كانوا مُتمسكين بالعوائد الباطلة مُتشبثين بالآراء الزائفة، أرادوا فقط التقليد لآبائهم حتى بعدما تبيّن لهم الحق، وظهور الدلائل الباهرة على صدق الرسول ﷺ وإقامة الحُجج الدامغة على بطلان ما كانوا يعبدون من دون الله!

{أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ} وهذا ذم من الله سبحانه لهؤلاء.

{لَوۡ} شرطية، جوابها محذوف تقديره (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون اتبعتموهم) لأن الهمزة في الآية استُعملت للإنكار؛ إنكار على أفعالهم وتخطئة لعقولهم وتفكيرهم الفاسد والتعجب من أمرهم الذي لا يستند إلى أي حُجة إلا الهوى والتقليد الأعمى!

وقفة:

كل إنسان في الدنيا لا بُد أن يكون له قدوة يسير خلفها ويتّبعها (يقوم بتقليده) ولكن صوت العقل يقول: إن هذا التقليد ينبغي أن يكون في الحق وليس في الباطل، إذًا هذا المتبوع (القدوة) إن كان على حق؛ بأن كان مُقيمًا لشرع الله وسنة النبي ﷺ فقد أصاب التابع الحق (هذا هو المراد)، أما إذا كان هذا المتبوع على الباطل وعرف التابع أنه على باطل، وبالرغم من ذلك ظل مُتبعًا لخُطاه لمجرد أنه يُحبه، فإن هذا التابع سيقع عليه نفس الذم المذكور في الآية مع الاختلاف بين عقوبة الكافر وعقوبة المسلم.

- وكم من بيت من بيوت المسلمين اليوم بَعُدَ عن شرع الله عز وجل والسبب هو العادات وما كان عليه الأهل!!

- وعلينا أن ننتبه: لأن اتباع الأهل في عاداتهم، أو المجتمع في بُعده عن شرع الله، أواتّباع أحد المشايخ إذا كان يعمل بما يُخالف شرع الله، كل ذلك لا يمكن أن يُقدَّم كعُذر بين يدي الله في عدم اتباع شرعه، وهذا ما غفل عنه الكثير من المسلمين اليوم.

سؤال: هل هناك مُلازمة بين العقل والهداية {لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ} أو (ما هو وجه الملازمة بين العقل والهداية)؟

الجواب: للعقل ضربان:

١- **الضرب الأول:** العقل الذي به يقع التكليف على العبد (مناط

التكليف) والذي بضده يُرفع التكليف عن العبد، فالشخص إذا كان عاقلًا مُتزنًا (ليس هناك جنون،غيبوبة) إذن يخضع لتكاليف الشرع.

٢- **الضرب الثاني:** وهو الذي تُحصّل به العلوم والمنافع، فإذا كان العقل صحيحًا سليمًا فإنه سيصِل بصاحبه إلى العلم الصحيح، أما إذا كان غير مستقيم فلا يمكن أن يصل إلى العلم الصحيح، وبالتالي لن يهتدي.

الملازمة بين العقل والهداية:

إن العقل إذا كان مستقيمًا فإنه يستطيع أن يُميز بين الحق والباطل، وبالتالي يهتدي إلى الحق. أما هؤلاء الذين تحدثت عنهم الآية فلم يكن لدى آبائهم العلم الصحيح ولا العقل المستقيم، ولذلك ذمَّهم الله سبحانه وتعالى وأنكر عليهم هذا التقليد الأعمى.

قوله تعالى: {وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝١٧١}.

{يَنۡعِقُ} النعق هو: الصياح، ونعق الراعي بغنمه؛ أي: صاح بها وزجرها. فالراعي إذا سار مع أغنامه وأراد أن يزجُرَها حتى لا تشرد إحداها وتبتعد عن القطيع فإنه يُنادي عليها بصوتٍ عالٍ، هذا النداء لا تعِيه البهائم ولا تفهمه ولكنه بالنسبة لها مُجرد صوت عالٍ.

والآية تحمل إيجازًا بليغًا لمَثَلَيْن في مَثَلٍ واحد، فالله جلَّ ذِكْره شبَّه الكافر الذي يسمع واعظ الخير وداعيه وهو يدعوه إلى الحق

ويُبلِّغه إياه لكنه لا ينتفع بهذا النُّصح ولا يفقه ما يُقال له بحال البهائم التي تسمع صوت الراعي وصياحه ولكنها لا تفقه ولا تعي مما يقوله شيئًا.

لقد جاءت هذه الآية وسابقتها بوصف لحال القوم: فهؤلاء عندما ركنوا إلى التقليد الأعمى للآباء والأجداد والأسلاف وأصبح الدين عندهم حمية لا أكثر، ولم يُريدوا الوصول إلى الحق وتركوا النظر والتدبر فصاروا بمنزلة الغنم وما يجري مجراها من البهائم.

*ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر الكافر نفسه إذا سمع ذلك، فيكون كسرًا لقلبه، وتضييقًا لصدره، حيث صار كالبهيمة! فيكون في ذلك زجرًا ورَدْعًا لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد.

فالنفس الشريفة تأبى أن يصير حالها إلى هذا المآل فتُشبَّه بهذا التشبيه.

{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ} ثم زادهم الله جلَّ جلاله تبكيتًا في ختام الآية:

{صُمٌّ} الأصم هو الذي لا يسمع، فإذا قيل: ولكن الكافر كان يسمع؟ نعم كان يسمع سمع الإدراك، وليس سمع الإجابة، ولهذا فإنه يُعد بمنزلة الأصم الذي لا يسمع!

{بُكْمٌ} الأبكم هو الذي لا يتكلم، ومشركو العرب كان لديهم من البلاغة والفصاحة وإدراك لمعاني اللغة ما لم يكن لغيرهم،

وبالتالي كانوا مُدرِكِين لمعاني القرآن، وبالرغم من ذلك لم يستجيبوا! هذه الألسنة التي خاضت معارك في اللغة لإثبات القدرة على الفصاحة والبلاغة كان من السهل عليها أن تنطلق لتنافح عن الدين وتذُب عنه وتصدع بالحق لتنال أعلى المنازل في الجنة، ولكن هؤلاء استخدموا ألسنتهم في الترويج للباطل وكَتْم الحق، فهم بمنزلة الـبُكْم.

{عُمْيٌ} هؤلاء يرون بأعينهم، ولكن العمى المقصود هنا هو عمى البصيرة، فقد رأوا الدلائل والحقائق والمعجزات دون فائدة ولذلك أصبحوا بمنزلة الـعُمْي.

وقفة:

بعض المسلمين اليوم حالهم كحال هؤلاء الكفار؛ فالحواس موجودة ولكن الاستجابة معدومة، وهم في غفلة مُعرضون، فأيامهم وأعمارهم تنقضي، ويصل الشخص إلى الخمسين والستين وهو لا يعرف آية من كتاب ربه (قراءة، تفسير، تدبر، سماع)!!

*وكذلك طلاب العلم لا بد أن ينتبهوا لمسألة إهمال التدبر؛ لأن هذا يؤثر على إيمان العبد، وكذلك عندما يسمع المواعظ والمحاضرات لا بد أن يقف مع نفسه ويسألها عن مدى الاستفادة والتغيير والعائد من سماع هذه المواعظ، فإن لم يكن هناك عائد فسيناله جزء من هذه العقوبة.

{فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} (الفاء) للتفريع على الكلام السابق، والمعنى: أنهم لا يعقلون عقل رُشد؛ لأن هناك عقل إدراك وعقل رشد، فالكفار كان لديهم عقل الإدراك كما أن عُصاة المسلمين عندهم عقل الإدراك.

مثال: رجل أعمال (عاصٍ) يستطيع إنجاز مشاريع وتحقيق أرباح بالمليارات (عقل إدراك: خطة ودراسات جدوى) ولكن ليس لديه عقل رُشد يُبصره بحقيقة الحياة ومدى قِصرها.

- الجميع يُدرك بالعقل، ولكن الكثير يحتاج إلى الرشد من أجل معرفة الحق وحمل النفس ودفعها إليه، ومحاربة الباطل والبُعد عنه.

قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢}.

نداء للمؤمنين، وقد أمرهم ربهم سبحانه بالأكل من الطيبات والشكر. والأمر بالأكل أمر إباحة. وأما الأمر بالشكر فهو واجب؛ لأن شكر المُنعم واجب.

وقفة:

قد قال تعالى في آية سابقة {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ} وهو نفس مضمون الآية التي نحن معها الآن فما هي نكتة المسألة؟

- **قيل**: في الآية السابقة جاء النداء {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ} فشمِل

المؤمنين وغير المؤمنين (على القول الراجح من أقوال العلماء).

*أما في هذه الآية فقد جاء النداء {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} للمؤمنين خاصة، وهذا نوع من أنواع الاعتناء والتشريف للمؤمنين.

{إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ} فما هو موضع (إنْ) في الآية؟ من العلماء مَن قال:

* (إن) هنا بمعنى (إذ): أي أنه تعليل لطلب الشكر.

*ومنهم مَن قال: (إن) هنا للاحتجاج والإلزام؛ فالمعنى: أنتم مؤمنون عابدون لله، وهذا يستلزم منكم أن تشكروه سبحانه على كل ما أعطاكم من نِعَم، فالله وحده هو المستحق للشكر على نِعَمه التي لا تُحصى، وذلك على الوجه الذي يليق به.

{كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ} الخطاب فيه عدول (انتقال) من الضمير إلى الاسم الظاهر، فلم يقل سبحانه: (واشكروني، أو: اشكروا لي) ولكن قال: {وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ} اسم الجلالة (الله) وهو إمام الأسماء (نكتة لطيفة جدًّا) حيث الإشعار بالمهابة الإلهية؛ فهو الإله المستحق للعبادة والشكر، والحمد له وحده والمخافة منه وحده، وإيماء بترك شكر آلهة المشركين المزعومة التي لا يأتيهم من قِبَلِها نفع ولا ضر ولا رزق ولا خلق ولا منع ولا عطاء، كما أنه إيماء بتبكيت المشركين الذين شكروا غير الله!!

وقفة:

(ما أُتي مَن أُتي إلا من قِبَل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظَفَر مَن ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء. ومِلاك ذلك الصبر؛ فإنه من الإيمان بمنزله الرأس من الجسد، فإذا قُطِع الرأس فلا بقاء لجسد).

فكل إنسان ضلّ وسقط في المعاصي ولم يعرف السبيل للخروج أو لم يعرف كيف يستقيم على الطريق عليه أن يبحث ويُنقِّب في أحواله، وهنا سيجد أمرين هما من أكثر الأمور التي تكون سببًا في إضاعة الخير من العبد:

١-إما أنه ضيَّع الشكر؛ وفَقْدُ الشكر يعني أن العبد لا يشكر الله كما يحب ويرضى. واعلموا: أن كل مَن عصى الله لم يشكر الله، وجوانب الشكر تَهدمها كلُّ معصية يقع فيها العبد.

٢- أو أهمل في الافتقار في الدعاء والذُّل بين يدي الله عز وجل عند الدعاء؛ أي أن دعاءه ضعيف.

(ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء) فالتوفيق والسداد والعون ولطف الله إذا حالف العبد فإنه حينئذٍ يكون قائمًا بالشكر ومتعبدًا لله عز وجل بالذُّل والانكسار والافتقار كما أن دعاءه يكون مكسوًّا بالتضرع.

(ومِلاك ذلك الصبر فإنه من الإيمان بمنزله الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأس فلا بقاء لجسد).

فمِلاك الأمر كله هو: الصبر؛ لأن الصبر في الدِّين يُعَد بمنزلة الرأس من الجسد، وبضياع الصبر لدى الإنسان يضيع إيمانه معه.

قوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾}.

{إِنَّمَا} أداة حصر، فهل المحرمات محصورة فيما ذُكِر في الآية فقط؟ لا، الآية ليس بها حصرٌ للمحرمات ولهذا:

١- **قال بعض العلماء:** إن المقصود هنا هو أجناس الخبائث أو أمهات المحرمات وليست كلها؛ لأن هناك أدلة أخرى تنص على تحريم أمور أخرى منها: عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ﵁، قَالَ: غَزَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَيْبَرَ، فَأَتَتِ الْيَهُودُ فَشَكَوْا أَنَّ النَّاسَ قَدْ أَسْرَعُوا إِلَى حَظَائِرِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلَا لَا تَحِلُّ أَمْوَالُ الْمُعَاهَدِينَ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَرَامٌ عَلَيْكُمْ حُمُرُ الْأَهْلِيَّةِ، وَخَيْلُهَا، وَبِغَالُهَا، وَكُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، وَكُلُّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ**»(١). وقال تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴿١٥٧﴾} [الأعراف]؛ فكل شيء خبيث حرام، إذن ليس الأمر قاصرًا على ما ذُكِر من أطعمة في الآية.

٢- **قول آخر للعلماء:** إن هذا تعريض بالمشركين؛ فقد حرموا أشياء كثيرة لم يُحرمها الله تبارك وتعالى منها (البحيرة، السائبة،

---

(١) سنن أبي داود (٣٨٠٦).

الحام)، كما أنهم أحلّوا لأنفسهم أشياء حرمها الله سبحانه، فأباحوا ما حرَّم الله وحرموا ما أباحه سبحانه وتعالى، كل ذلك كان تبعًا لأهوائهم!!

{ٱلۡمَيۡتَةَ} لُغةً: ما فارَقَتْه الرُّوحُ بِغَيرِ ذَبحٍ، شرعًا: ما مات بغيرِ ذَكاةٍ (ما ذُبحت على غير الهيئة الشرعية) فيندرج تحت ذلك أي شيء لم يُذكَّ، وتذكية الذبيحة: تكون بقطع الأوداج وإسالة الدم، أما {الْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ} فكله مُحرَّمٌ أكله شرعًا.

*فَالْمُنْخَنِقَةُ هي: التي تموت بالخنق، إما قصدًا بأن يخنقها شخص أو اتفاقًا بأن يتلوى عليها الحبل فيخنقها فتموت، وبهذا تكون حرامًا.

*وَالْمَوْقُوذَةُ هي: التي تُضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت.

*وَالْمُتَرَدِّيَةُ هي: التي تقع من موضع عالٍ (كالجبل، الحائط، السقف) فتسقط من أعلى إلى أسفل.

*وَالنَّطِيحَةُ هي: التي ماتت بسبب نطح غيرها لها.

*وأما مَا أَكَلَ السَّبُعُ فهي: ما عَدَا عليها سبعٌ كأسد أو ذئب أو فهد أو نمر أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك.

والآن هناك طُرُق أخرى لقتل الحيوانات في بعض الدول

الأوروبية منها: الكهرباء، وحُجتهم أنهم يفعلون ذلك رحمةً بالحيوان! في حين أن هذه الطريقة هي من أصعب الطُّرق للقتل لما تحمله من تعذيب للحيوان، أما طريقة الشريعة فليس فيها أي نوع من أنواع العذاب.

فائدة:

عند السفر إلى إحدى الدول الغير إسلامية لا يجوز تناول أي لحوم (دواجن، لحوم) غير مذبوحة حسب الشريعة الإسلامية، وكذا اللحوم التي يتم استيرادها من تلك الدول لا يجوز تناولها أيضًا حتى لو مكتوب عليها عبارة: حلال ومذبوحة على الشريعة، فلا يجوز الاستهانة بهذا الأمر، فالأكل منها من الكبائر.

*أما في الدول الإسلامية: فالمسلم ليس مُطلوبًا منه أن يتحرى هنا وهناك عن القائم بالذبح في داخل الدولة؛ فيكفيه أنه يأخذ من جزَّار مُسلم؛ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ قَوْمًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لاَ نَدْرِي أَذَكَرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لاَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**سَمُّوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَكُلُوهُ**»(١).

{وَٱلدَّمَ} والمقصود هنا: هو الدم المسفوح، فلا يجوز أكله أو شربه.

إذن الميتة والدم من المحرمات، ولكن هناك استثناء يخُص كُلًّا

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٧).

منهما:

* يُستثنى من الميتة: ميتة البحر.

*ويُستثنى من الدم: (الغير مسفوح- الموجود بداخل الذبيحة).

والدليل على ذلك: قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾} [المائدة]؛ فجماهير العلماء من الصحابة وممن جاء بعدهم على أن المقصود بـ {وَطَعَامُهُۥ} هو ميتة البحر.

- وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ، وَدَمَانِ. فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ**»(١).

- وَسَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَمَعَنَا الْقَلِيلُ مِنَ الْمَاءِ. فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**»(٢).

سؤال: الآية ذكرت كلمة (الدم) فقط، فلماذا قيل: إن المقصود هو الدم المسفوح؟

الجواب: الخصوصية جاءت في قوله تعالى: { قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ

(١) مسند أحمد (٥٧٢٣).
(٢) سنن أبي داود (٨٣)، سنن ابن ماجه (٣٨٦)، سنن الدارمي (٧٥٦).

أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾} [الأنعام]؛ فاستدل العلماء (إجماعًا) بهذه الآية على أن المسفوح هو الحرام، والتقييد بالمسفوح فيه دلالة على أن غير المسفوح ليس مُحرَّمًا، وهذا يعني: أن اللحوم التي تُشترى إذا كان بها بعض الدماء فلا إشكال في ذلك، بل إن شيخ الإسلام (ابن تيمية) قال: غسل الذبيحة من الدم بدعة.

والدم المسفوح له صورتان:

١- ما يؤخذ من البهيمة وهي على قيد الحياة، فقد كانت من عادة العرب في الجاهلية إصابة البهيمة بجرحٍ ما وشُرب ما يسيل منها من دماء! فحرَّم الله هذا الأمر.

٢- الدم الذي يُراق منها وقت الذبح، أما الدم المتبقي في أجزاء لحمها بعد تذكيتها فلا شيء فيه.

{وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ} أجمع العلماء على أن كل أجزاء الخنزير (نجس) فاللحم والشحم والجلد كله حرام.

{وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ} أصل الإهلال هو: رفع الصوت، والمراد: الذبيحة التي ذُبحت لغير الله؛ فقد كانوا يذبحون للأصنام والأوثان وغيرها من معبوداتهم.

أما الآن فإن الذبح لغير الله ما زال ساريًا (الذبح لأصحاب

القبور، أصحاب الطرق الصوفية) وهذا حرام لا يجوز؛ لأن الذبح عبادة لا تكون إلا لله عز وجل، فمَن وجهها لغير الله فقد أشرك.

{فَمَنِ ٱضۡطُرَّ} شخصٌ ما ألجأته الظروف لفعل أمر من هذه الأمور وإلا سيهلك (إن لم يأكل من الميتة فسوف يموت) فهو مضطر لفعله (ليس هناك تعمد) ماذا عليه أن يفعل؟ له أن يأكل منها قولًا واحدًا؛ فإن لم يأكل ومات فإنه يُعتبر قاتلًا لنفسه ويُحاسب على ذلك؛ لأن من مقاصد الشريعة حفظ النفس.

(والحكم ينطبق على باقي المحرمات) لقد أبيحت كل هذه الأمور حال الاضطرار ولكن هذه الإباحة قُيدت.

{غَيۡرَ بَاغٖ} أي ليس طالبًا للحرام ولا مُستحلًّا له ولا مُستهينًا به، ولكنه فعل ذلك لعدم قدرته على تحصيل الحلال الطيب الذي يُنجيه من الهلاك، وبالتالي أصبح الأمر بالإباحة رخصة له يُحاسب على تركها لو أصابه مكروه.

{وَلَا عَادٖ} أي لم يتعدَّ حدود الله، وهناك قولان للعلماء:

*قال جمهور العلماء: يأكل قدر الضرورة فقط، وإن من صور العدوان: أن يأكل كثيرًا من الميتة، فمن المفترض على هذا المضطر أن يأكل ما يسد به رمقه فقط؛ أي ما يسد جوعه فقط فلا يصل للشبع! فهذا من العدوان.

*قال بعض أهل العلم (كالإمام مالك): إنه لامانع أن يأكل كثيرًا

وأن يشبع، بل ويتزوّد بما يغنيه عن الحاجة؛ واحتجوا بأنه قد يكون في سفر أو بمكان مقطوع، وهذا أمر قد أحله الله له، فرُفع عنه التحريم في هذه الحالة.

{فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ} مرفوع عنه الحرج، فلا إثم عليه ولا عقوبة.

والقاعدة المعروفة: (الضرورات تبيح المحظورات) أي تجعلها مباحة بعد أن كانت محرمة.

{إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ} صفتان لله سبحانه تعالى وهما: المغفرة والرحمة، وختم الآية بهما لأننا بشر؛ الأصل فينا النقص والتقصير ولا نأتي بالشيء على أكمل وجه، والله أرحم الراحمين يعلم هذا؛ فقد يُقصر الإنسان في البحث عن طعام حلال وهو في هذا الضيق، فيقع منه التقصير بضعف نفسه فلا يمتثل لأمر الله، فلهذا ختم الله الآية بهذا الختام.

قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤}.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ} أي كتموا كل شيء كان ينبغي إظهاره؛ كالبينات والهدى والأحكام والحلال والحرام.

{ٱلۡكِتَٰبِ} الألف واللام في كلمة الكتاب قد تكون للعهد أو للجنس:

*فإن كانت للعهد فالمقصود به: (التوراة)؛ والمراد أن اليهود كتموا الحق وكتموا صفة النبي ﷺ وكل معلومة تؤيده فأضلّوا أمة بكاملها ومن ورائها أُمم وصرفوا قلوبهم عن اتباع الحق، وهذا ذنب عظيم وفعل مشين، فعاشوا على الكفر وماتوا عليه.

*وإن كانت للجنس فالمقصود به: (جنس الكتاب)؛ فيشمل التوراة والإنجيل وغيرها، فاللفظ هنا عام.

{وَيَشْتَرُونَ بِهِ} يأخذون به. ولكن علامَ يعود الضمير في (بِهِ)؟ **قيل**: عائد على ما أنزل الله؛ فهؤلاء بدّلوا وحرّفوا ما أنزل الله. **وقيل**: يعود الضمير على الكتم؛ أي كتموا صفة الرسول ﷺ. ولو تأملنا في القولين لوجدنا أن اليهود قاموا بالأمرين!

{ثَمَنًا قَلِيلًا} وصف الثمن بالقليل يدل على (التقليل) و(التحقير) أي هذا الذي أخذوه مقابل التحريف كان قليلًا حقيرًا في إشارة بدناءة النفس التي رضيت بهذا القليل.

- وقد يتساءل البعض: قد يكون المقابل المأخوذ كبيرًا جدًّا، ومثل هذا من يأخذ أموال الناس بالباطل فتكون لديه أموال طائلة، فكيف يوصف هذا بالقليل؟!!

الجواب: هذا قد يكون كثيرًا بمقاييس الدنيا، لكن ماذا عند الله؟!! فهو قليل إذا ما قورن بما ضيّعوا من نعيم الآخرة؛ فنعيم الآخرة لا يحاط به وصف ولا يدركه عقل، والجنة التي قال عنها النبي ﷺ:

«**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا**»(١)؛ فهذا نعيم عظيم لا يُتصور! فمهما كانت الأموال كثيرة لأهل الباطل إلا إنها إذا قورنت بالنعيم الأبدي عند الله فستصبح قليلة؛ فكان التعبير بالقليل للتحقير من شأن هذه النفس الخبيثة الدنيئة التي ضيّعت الكثير الدائم الباقي، ورضيت بالقليل الفاني.

{أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ} أولئك: اسم اشارة للبعيد، واستعمل هنا لبيان مدى بعدهم عن أي خير، وللتنفير من أفعالهم المشينة.

*ومعنى الآية: أن هذا العمل الذي فعلوه يستوجب دخولهم النار، وهي تدل أيضًا أن الثمن الذي أخذوه كان مالًا؛ لأنهم اشتروا به ما يُؤكل، فالأكل يُشترى بالمال. كما تدل كلمة {بُطُونِهِمۡ} على الشراهة والانغماس في الدنيا وبعدهم عن الآخرة، فكل اهتماماتهم بالمأكل والمطعم والملبس وهذا هو مبلغ علمهم.

- وهذا الكلام ليس لعلماء اليهود فقط، بل ينطبق على كل مَن أخفى وبدّل وباع دينه بثمن قليل، فمثل هؤلاء يدخلون في هذا الذم والتوبيخ أيضًا.

سؤال: هل سيأكلون في بطونهم نارًا؟!

الجواب: نعم، فهناك أدلة على أن من عذاب الله لأهل النار أنهم

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٥١).

سيأكلون من الزقوم وستحيط بهم النار وبأجسادهم من كل الجوانب.

- أيضًا هناك حديث النبي ﷺ الذي ينهى فيه عن الأكل في آنية الذهب والفضة فقال ﷺ: «**الَّذِي يَشْرَبُ فِي إِناءِ الفِضَّةِ إِنَّما يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نارَ جَهَنَّمَ**»[١].

- والرجل الذي دخل على النبي ﷺ وهو يرتدي خاتمًا من ذهب فأنكر النبي ﷺ هذا الفعل وقال: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلى جَمْرَةٍ مِن نَارٍ فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ**»[٢].

- وأيضًا عندما قال النبي ﷺ للرجل الذي لم يَغْسِلْ عَقِبَيْهِ عند الوضوء: «**وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ**»[٣].

فكل هذه أدلة على أنهم سيأكلون في بطونهم النار يوم القيامة نتيجة الأفعال التي اقترفوها والتي أوصلتهم إلى هذا الأمر.

{وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ} تقرر عند جمهور علماء الأصول أن (الفعل في سياق النفي من صيغ العموم)، ومعنى ذلك أن الله لن يكلمهم أبدًا، وهناك آيات أخرى في كتاب الله تدل على أن الله في بعض مشاهد يوم القيامة سيكلم الكفار مثل {رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}، **فكيف**

(١) أخرجه البخاري (٥٦٣٤)، ومسلم (٢٠٦٥).
(٢) صحيح مسلم (٢٠٩٠).
(٣) صحيح مسلم (٢٤٢).

نجمع بين القولين؟!

- الجواب: نجمع بين القولين بأن الله عز وجل نفى أنه سيكلمهم الكلام الذي فيه خير أو تزكية أو كلام يشعرهم أنه سيَرحمهم خلاف المؤمن الذي سيكلمه الله كما جاء في الحديث الذي ورد في «صحيح البخاري»: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**».

*إذًا فكلام الله للكفار سيكون كلام توبيخ وتقريع وإهانة ومذلة وذلك نوع من أنواع العذاب المعنوي؛ فكيف به على رؤوس الخلائق يوم القيامة يُنادى عليه {هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ}.

- فالكافر إذًا سيُعذب عذابًا معنويًّا بهذه الإهانة وعدم كلام الله له بما يحب، وأيضًا عذابًا ماديًّا بدخوله بجسده النار.

{وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ} لهم عذاب مُؤْلِمٌ؛ أَيْ مُوجِعٌ؛ مؤلم نفسيًّا ومعنويًّا وبدنيًّا.. كل أنواع العذاب المؤلم نَكَالًا بهم.

قوله تعالى: {أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥}.

للعلماء قولان في بداية الآية باسم الإشارة {أُوْلَٰٓئِكَ}:

القول الأول: اسم الإشارة تكرر بدون واو العطف للتنبيه على أن الأحكام التي ستأتي في هذه الآية مختلفة عن الأحكام السابقة، لذلك لم يحدث عطف في هذه الآية على السابقة.

القول الثاني: هذه الجملة مستأنفة اسْتِئْنافًا بَيانِيًّا؛ لبيان سبب انغماسهم في عذاب النار، فقد يسأل سائل: لمَ عاقبهم الله بتلك العقوبات الأليمة! فأراد الله عز وجل أن يبين أنهم فعلوا أفعالًا تستوجب لهم الخلود في النار؛ فلقد أخَذُوا الضَّلالَ وتَركوا الهُدى واخْتارُوا العَذابَ، فهم الذين اختاروه، كما سيأتي تفصيلًا.. وما ربك بظلام للعبيد.

{ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ} أخَذُوا الضَّلالَ ونَبَذُوا الهُدى واخْتارُوا العَذابَ وتركوا المَغْفِرَةَ، فلم يجبرهم أحد على فعل ذلك، بل فعلوا ذلك باختيارهم وإرادتهم الكاملة بالرغم من بيان الحق، فتعمدوا الضلال والإضلال، وتعمدوا ترك مغفرة الله، وكتموا الحق وأخفوه، وأفسدوا تأويل الآيات، كل هذا أوجب لهم هذا العذاب الأليم.

{فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ} قال بعض العلماء (ما) هنا استفهامية؛ والمعنى: ما الشيء الذي أصبرهم على النار كي يتركوا الحق ويتبعوا الباطل؟ أو بمعنى آخر.. ما أصبرهم على النار حتى أنهم تجرؤوا على هذه الأعمال التي يعلمون أنها تستوجب النار؟!!

ومن العلماء من قال: المعنى هنا للعجب؛ والمعنى كقول الله تعالى {قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ}، فالعجب في قوله {فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ} من شدة جرأتهم! وكيف أنهم يعلمون عن الحساب والجنة والنار، ومع هذا يستمرون في هذه الأعمال!!

لكن هل العجب هنا من الله أم من العباد؟ للعلماء أقوال:

١- **(التعجب من العباد):** فهؤلاء يخبر الله عنهم حتى يتعجب العباد وكل من رآهم وهم مستمرون ومصرون على أفعالهم على الرغم من وعيد الله.

٢- **(العجب من الله):** أي أن الله هو الذي يعجب، فهل صفة العجب صفة ثابتة لله؟ نعم، ثابتة بالقرآن وبالسنة.

*فأما القرآن ففي قوله تعالى في أحد القراءات السبعية المتواترة الثابتة عن رسول الله ﷺ: ﴿بَلْ عَجِبْتُ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات] بضم التاء في (عجبتُ) لكن عندنا في قراءة حفص نقرأها بالفتح، إذاً عندما يقول الله ﴿عَجِبْتُ﴾ أثبتنا لله صفة العجب.

*وأما دليل الحديث فهناك حديث في «صحيح مسلم»: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ أعرابيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي مَجْهُودٌ، فَأَرْسَلَ إِلَى بَعْضِ نِسَائِهِ فَقَالَتْ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أُخْرَى فَقَالَتْ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهُنَّ مِثْلَ ذَلِكَ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا عِنْدِي إِلَّا مَاءٌ، فَقَالَ: «**مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ**

رَحِمَهُ اللَّهُ؟» فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي. قَالَ: فَعَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ. قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ **فَقَالَ: «قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»**.

***الشاهد في الحديث:** (عَجِبَ اللَّهُ مِن صَنِيعِكُما).

بعض الناس تتعجب من إثبات صفة (العجب لله) وذلك لفهمهم لمعنى التعجب على أن هذا الشيء أو هذا التصرف كان خفيًا ثم ظهر، وهذا هو الذي يُحدث التعجب، فكيف يكون ذلك في حق الله عز وجل الذي يعلم كل شيء ويعلم ما سيكون من قبل أن يكون؟!! والحقيقة أن التعجب بهذا المفهوم الذي ذكرناه معنى ناقص لتعريف التعجب؛ فمن معاني العجب: خروج الشيء عن نظائره أو عما ينبغي أن يكون عليه مع علم المتعجب، وهذا هو الثابت لله تعالى؛ ففي الحديث الذي ذكرناه «**عَجِبَ اللَّهُ مِن صَنِيعِكُما**» فالله سبحانه وتعالى يعلم كل ما فعله الرجل وزوجته، لكن هذا شيء خرج عن الشيء الطبيعي وعن المعتاد من البشر.

قوله تعالى: {ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾}.

{ذَٰلِكَ} اسم إشارة؛ أي أن هذا العذاب الذي لحق بهم (ذلك استحقوه بسبب أفعالهم التي فعلوها من كتمانهم ما أنزل الله وتبديله وإخفائهم الحق، وكل هذا خلاف مراد الله الذي أراد أن يُبيّن الحق للعباد وما ينفعهم في دنياهم وأخراهم.

{بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ} الباء التي اتصلت (بِأَنَّ) للسببية؛ أي بسبب فعلهم الشنيع استحقوا العقوبة.

وهنا مسألة هامة: لأن المعنى هنا خلاف قول (الجبرية) الذين يدّعون أن فعل الله مجرد مشيئة!! ومعنى قولهم هذا أن أفعال الله ليست لحكمة!! بل مجرد مشيئة، شاء فريقًا في الجنة وفريقًا في النار، فريق عاص وفريق يطيع بدون حكمة!!! تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا... وهذه الفرقة موجودة وهذا هو اعتقادهم!!

- فالباء في الآية الكريمة للسببية {بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ} فقد استحقوا هذه العقوبة بسبب؛ وهو أفعالهم الشنيعة التي اقترفوها بأيديهم فأوجبت لهم هذا العقاب، وليس مجرد مشيئة...لا، بل كانت بحكمة؛ لأن الحق جاءهم مرارًا وتكرارًا لكنهم أصروا على الباطل.

{وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ} اختلف العلماء في المراد بالكتاب:

منهم من قال: المراد به (التَّوْرَاةَ)، والذين اختلفوا فيه هم (اليهود والنصارى)؛ فأما اليهود فأنكروا قَصَص عيسى ابن مريم

وأمه وأخفوا شأنها، وسبّوا عيسى وأمه، وأما النصارى فكفروا ببعض ما جاءت به التوراة وجعلوا عيسى إلهًا وحرَّفوا وبدَّلوا. واليهود والنصارى كلاهما كفروا بما أنزل الله في التوراة من الأمر بتصديق محمد ﷺ وصفته الثابتة عندهم، فأخفوها ولم يعترفوا بها.

ومنهم مَن قال: المراد به (القرآن)، والذين اختلفوا فيه هم (اليهود والنصارى والمشركون)؛ فاليهود والنصارى أنكروا، أما المشركون فقالوا: هُوَ سِحْرٌ، وبعضهم قال: أساطير الأوَّلين.

{وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ} كل فريق من اليهود والنصارى يريد أن ينتصر لنفسه، بالرغم من أنه يعلم أن الحق ليس معه.

تنبيه:

بعض الناس لديهم اعتقاد أن الاختلاف رحمة!! وهذا الكلام غير صحيح، وحديث «اختلاف أمتي رحمة» لا يصح عن رسول الله ﷺ. كيف يكون الخلاف رحمة؟!! فهذا لا يصح، لكن هناك اختلاف محمود واختلاف مذموم؛ فالاختلاف المحمود مثل: الذي يكون بين الفقهاء والعلماء الربانيين- الذين يريدون نفع الناس والوصول بهم إلى الحق- في مسألة فقهية؛ لكن نتج عن خلافهم هذا رحمة للعباد.

- فالعالم إذا اجتهد في جمع الأدلة ولم يدخل في الأمر هَوى،

فحتى إن أخطأ بعد ذلك فهو مأجور، هذه هي الرحمة، أما أن نسعى للخلاف ونقول: الخلاف رحمة!! واختلاف أمتي رحمة!! كلام لا يصح أبدًا.

{شِقَاقٍ} نزاع. وسُمي النزاع شقاقًا؛ لأن المتنازعين كل واحد منهم في شق، كل واحد منهم في جانب، وهذا الشقاق يتولد منه مفاسد ومشاكل لا حصر لها، وهذا هو الخلاف المذموم.

قال الله سبحانه: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ
ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ
وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ
بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ
ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ
عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ
وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ
فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾

{لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ...} الآية جاءت ختامًا لتلك المحاجاة التي حدثت بشأن تحويل القبلة، والتي جاءت في الآيات السابقة، وكيف شَقَّ ذَلِكَ عَلَى نُفُوسِ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وقاموا بتهويل الأمر على المسلمين حسدًا منهم، وقالوا: إن المسلمين أضاعوا البِرَّ الذي كانوا قد فعلوه عند الصلاة إلى بيت المقدس! وأكثروا الخوض في أمر القبلة، فأراد ربنا سبحانه وتعالى أن يقول للمسلمين أَعْرِضُوا عن هذا التهويل لهؤلاء المغرضين، فأَنْزَلَ اللَّه تعالى بيان حِكْمَتِهِ في ذلك، ونزلت هذه الآية ردًّا عليهم كما سنوضح.

{ٱلۡبِرَّ} لماذا ذُكِر البر بتعريفه للجنس؟ قولان:

القول الأول: تعريفه للجنس لإفادة عموم النفي؛ فقد ادّعى كل فريق من أهل الكتاب -اليهود والنصارى- حصر (البر) على قبلته ردًّا على الآخر؛ فحصر اليهود البر في قبلتهم؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن ينفي هذا الاعتقاد الفاسد، وأن البر ليس الصلاة إلى قبلة هؤلاء، ولا إلى قبلة هؤلاء.

القول الثاني: ليكون الخطاب عامًّا لأهل الكتاب والمسلمين؛ كي ينزجروا عن هذا الادّعاء بأن المسلمين أضاعوا البر عندما كانوا يصلون إلى بيت المقدس ثم تحولت إلى البيت الحرام! وأيضًا خطاب للمسلمين كي يعلموا ما هو البر، فلا يتأثروا ويختلط عليهم الأمر بهذه الادّعاءات وعقائد أهل الكتاب الفاسدة.

{ٱلْبِرَّ} كلمة جامعة شاملة لكل خير، وهي كلمة قوية جدًّا؛ لأن الفعل إذا كان بإحسان شديد يُقال عليه بِرّ؛ مثال: لماذا نقول (بر الوالدين) وليس (إحسان للوالدين)؟ لأن البر درجة أقوى في الإحسان، فالأمر ليس بالإحسان فقط بل بالدرجة الأعلى في الإحسان وهي البر. والمقصود بالبر في هذه الآية هو بر العبد ربه تبارك وتعالى بحسن المعاملة مع الله في تلقّي الأوامر، واجتناب النواهي، وقبول الشرائع، هذا هو البر.

{قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ} أي ليس الخير المَرضي عند الله مجرد الاتجاه إلى جهة المشرق أو المغرب.

{وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ} فبيّن سبحانه هنا ما هو البر، وهو تحقيق للحق وبيان بطلان الباطل.

{مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ} أول علامات البر (الإيمان بالله الواحد الأحد) هو سبحانه الموصوف بكل صفات الكمال والجلال، والمنزّه عن كل نقص من كل وجه.

{وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ} وهو كل ما أخبر به ربنا تبارك وتعالى وأخبر به النبي ﷺ مما سيكون بعد الموت؛ فهو يبدأ عند الإنسان من بعد موته إلى يوم البعث والنشور والحساب والجزاء؛ فيؤمن بقبض ملك الموت لروحه بعد موته، وحياة البرزخ، وسؤال القبر، ونعيمه أو عذابه.... كل ذلك من الإيمان باليوم الآخر.

{وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ} أي آمن وصدَّق بأنهم عبادٌ مكرمون لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، مخلوقون من نور، وصفهم اللهُ عز وجل ونبيُّه ﷺ بأوصاف محددة، فلا ينبغي للمؤمن أن يخرج عن هذه الصفات.

{وَٱلْكِتَٰبِ} والكتاب تعريفه للجنس هنا لـ (الاستغراق)، وذلك حتى لا يكون المقصود بالكتاب كتابًا واحدًا فقط، بل يشمل كل الكتب التي نزلت من عند الله على رسل الله حتى خُتِمَتْ بأشرفها، وهو القرآن الذي انتهى إليه كل خير.

{وَٱلنَّبِيِّـۧنَ} فنؤمن بكل الأنبياء بلا تفريق، لكن ينبغي أن نعلم أن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء له خصوصية معينة؛ فهو خاتم الأنبياء وأفضلهم وسيد الأولين والآخرين واصطفاه الله واجتباه، وسيأتي لاحقًا كيفية الجمع بين (عدم التفريق بين الرسل) و(إثبات خصائص النبي ﷺ وأنه أفضل الرسل).

{وَءَاتَى ٱلْمَالَ} كل ما يتموّل به الإنسان يُقال عليه مالٌ، سواء كان كثيرًا أو قليلًا.

{عَلَىٰ حُبِّهِۦ} فالمال محبوب للنفوس؛ قال تعالى: {وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾} [العاديات] فقد أجمع العلماء على أن الخير هنا في الآية هو المال؛ أي مع شدة حبه للمال يخرجها لله كي يُرضيه سبحانه! وهذا دليل الإيمان؛ قلنا من قبل: (المحبة هي المحرك) فلا شيء يجعلني أُضحي بهذا المال المحبوب إلا إن كنت أتيقن أن هناك

محبوبًا أعلى من هذا المال.

في هذه الآية أثبت الله عز وجل حب النفوس للمال، ولا يستطيع أحد أن ينكر هذا لكن تتفاوت درجات تلك المحبة؛ فمن الناس من يحب المال حبًّا يتملّكه، فيحرص على جمعه أشد الحرص من أجل المظاهر والتعالي على الناس، ومن الناس من يشعر أن الأمان في جمع المال حتى لا يحتاج إلى أحد، وقد نجد من يحب المال لحبه التصدق به على الفقراء، ومنهم من يحبه لأداء العمرة أو الحج. نعم يتفاوت الحب؛ فمنه المحمود ومنه المذموم، لكن يبقى المال محبوبًا للنفوس.

لذلك في الحديث: (أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النبيِّ ﷺ فَقَالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قالَ: «**أَنْ تَصَدَّقَ وأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفَقْرَ، وتَأْمُلُ الغِنَى، ولَا تُمْهِلُ حتَّى إذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، ولِفُلَانٍ كَذَا، وقدْ كَانَ لِفُلَانٍ**»[١]).

*__شرح الحديث:__ هناك رجُل جاء إلى النبي ﷺ فسَأله: أيُّ الصَّدَقةِ أَعظَمُ أجْرًا وأكثَرُ نفعًا لصاحِبِها؟ فأخبَرَه ﷺ أنَّ ما يَتصَدَّقُ بها الإنسانُ وهو (صَحِيحٌ): أي ليس به مرَضٌ أو عِلَّةٌ، فهو لا يزال يأمل أن يعيش كثيرًا ويستمتع بهذا المال. و(شحيح): الشُّح: وهو البخل مع الحرص، ويخاف من الوقوع في الفقر، ويَأْمُلُ الغِنَى

---

(١) صحيح البخاري (١٤١٩).

ويرجوه ويطمع فيه لنفسه، ومع ذلك فإنه يتصَدَّق مع كلِّ هذه الموانع والمغريات التي تَحُثُّه على حِفظِ المالِ، فذلك أعظَمُ أجرًا، وذلك لأنه خالف هوى نفسه، فإنفاق الشحيح بهذه الصورة أفضل من إنفاق الكريم الغني الذي من طبعه أن ينفق يمينًا ويسارًا، وإنفاق الصحيح أفضل من إنفاق المريض الذي قد يظن أنه لن يعيش طويلًا، وكل هذا دليل وبرهان على الإيمان.

ملحوظة هامة: ليس معنى هذا الكلام أن الكريم الغني ليس له أجر إذا أنفق! لا، لكنها درجات؛ فالمشقة عند الفقير الشحيح أصعب؛ لذلك درجته أعلى.

بل قد يأتي الثواب للكريم الغني أيضًا عندما ينفق مما يحب من تلك الأشياء الثمينة التي رزقه الله إياها، فيأخذ الأجر من باب ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ فيتصدق منها على الرغم من حبه لتلك الأشياء.

فائدة:

أعمال البر كلَّما صعبت كان أجرها أعظم؛ لذلك قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها في الحج: «**ولَكِنَّهَا عَلَى قَدْرِ نَفَقَتِكِ أَوْ نَصَبِكِ**»[١].

أي: إنَّ الأجرَ فيها على قَدْرِ النَّصَبِ والتَّعبِ والجهْدِ والمالِ، فكُلَّما زادَ المالُ المُنفَقُ والجهدُ المبذولُ زادَ الأجرُ مِنَ اللهِ تعالى؛ فأي

(١) أخرجه البخاري (١٧٨٧)، ومسلم (١٢١١).

تعب أو مشقة يواجهها العبد في طريقه إلى الله عليه أن يستحضر أن الأجر يكون فيها مُضاعَفًا، بل إن الله يضاعف الأجر أضعافًا كثيرة فهو الكريم المنّان.

{ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ} أي الأقارب؛ وهم أَوْلَى الناس بهذا البر وهذا الإحسان، فعلى المرء أن يصل رحمه ويُفرج عنهم إن استطاع لذلك سبيلًا.

قال رسول الله ﷺ: «**الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صِلَةٌ، وَصَدَقَةٌ**»(١). أي إن الصدقة على الرحم ستأخذ بها أجرَين: أجْرُ صِلَةِ الرَّحِمِ - أجْرُ التَّصدُّقِ.

{وَٱلْيَتَـٰمَىٰ} الغالب في تعريف العلماء أن اليتيم: مَن مات أبوه وهو دون سن البلوغ؛ فإنه لا كَسْب له، ولا قوة له أن يعمل ليكسب قوت يومه.

{وَٱلْمَسَـٰكِينَ} هم مَن أَسكنتهم الحاجة، وأذلّهم الفقر، والمساكين لهم حق على الأغنياء؛ فعلى الأغنياء أن يدفعوا عنهم المسكنة، ويخففوا عنهم الآلام ما استطاعوا، سواء بالزكاة أو بالصدقات، كلٌّ قدر طاقته واستطاعته.

{وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ} هو الغريب الذي انقطع في السفر عن أهله

(١) أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله.

ووطنه، فحتى إن كان في بلده غنيًّا لكنه الآن تعرّض لمشكلة فلا ينبغي تركه هكذا بل إنه يُعطى له أيضًا من زكاة المال؛ لأن ذلك من مصارف الزكاة.

{وَٱلسَّآئِلِينَ} هم الذين تعرض لهم حاجةٌ توجب سؤال الناس، ويدخل في ذلك شخص قد لا يكون فقيرًا؛ مثال: شخص يركب سيارة فقَتَل عن طريق الخطأ شخصًا آخر فوجب عليه دفع دية ولا بُد، والقانون يُحتم عليه دفع هذه الدية، وهو لا يملكها فأصبح بذلك بمثابة المديون، فيُدفع لهم هذا الدين.

- وهكذا كل من تعرض لهم حاجةٌ؛ ولا يقدر أن يؤديها.

فائدة:

بعض الناس تظن أن الفقير الذي تُعطى له الصدقة يجب أن يكون مُقَطَّعَ الثياب ويظهر ذلك عليه! لا، بل قد يكون مَن يحتاج إلى الصدقة موظف محترم ويعمل! ولكن راتبه لا يكفيه.

{وَفِي ٱلرِّقَابِ} أي تحرير الرقاب؛ سواء كان أسيرًا فيفك أسره، أو عبدًا فيدفع لسيده ويفك رقبته.

{وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ} تكلمنا كثيرًا من قبل عن الصلاة، وكيفية القَرْن بينها وبين الزكاة في مواضع كثيرة في القرآن؛ وذلك لأهمية هاتين العبادتين: فالصلاة عبادة قلبية وبدنية، والزكاة عبادة مالية، وبهما يحصل الإيمان، وهما دليلٌ وبرهان على الإيمان بالله

واليوم الآخر.

{وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَـٰهَدُواْۖ} و(العهد): هو الالتزام بإلزام الله من الأوامر التي أمر الله سبحانه وتعالى العباد أن يلتزموا بها، أو إلزام العبد لنفسه بشيء مثل: مَن يَنْذِر نَذْرًا معينًا؛ فهو الذي ألزم نفسه بهذا، فلا بُد له وواجب عليه أن يوفي.

ويدخل تحتها كل الوعود التي يعد بها الإنسان؛ فكم من إنسان وعد بألا يفعل الذنب مرة أخرى ثم يخلف وعده ويعود! كم من مرة وعد الإنسان بأن يفعل طاعة ويتقرب إلى الله ثم يُخلف وعده ولا يفعل! فليحذر كل مَن خالف وعده وعهده أن يموت على ذلك بغير توبة.

{وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلۡبَأۡسَآءِ} البأساء: تُقال في الغالب على الفقر، لكن قد تُقال على المشقة وسوء الحال والمكروه.

سؤال: لماذا قيد الصبر هنا في البأساء؟

الجواب: لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة:

- يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره، فإن تنعّم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألّم؛ وخاصة إن تعرّض إلى الجوع والمرض لأنهما من الأشياء التي تشقّ على النفس؛ فلا يجد مالًا لشراء الطعام أو العلاج.

- فإن لم يكن لديه صبر وعِلم عن الله فإنه سَيُفْتن في دينه؛ فقد

يُفسد الشيطان عليه عقيدته بالظن السيئ عن الله، ولو عَلِم عن الله حقًّا لتيقّن أن الله الذي بيده الخزائن التي لا تنفذ يعلم أن هذا هو الخير للعبد، فلا يمنع إلا بحكمة، والمنع من الله إحسان، وإن لم يعلم هذا عن الله فلن يستطيع الصبر.

{وَٱلضَّرَّآءِ} المرض والآلام باختلاف أنواعها، أيضًا تحتاج إلى صبر من العبد؛ لأنه يعلم أن الله سبحانه قادرٌ على أن يشفيه وربما لا يزال مريضًا فيتألم ويتوجّع، فإن لم يكن لديه إيمان بصفات الله، ومَن هو الله.. سيُفتن في دينه، وهذه هي فائدة العلم عن الله، وتوفيق الله له في فَهم مثل تلك الأمور.

{وَحِينَ ٱلْبَأْسِ} أي في وقت القتال والْتِقَاءِ الأعداء فيحتاج العبد إلى الصبر فلا يَفِرُّ؛ فوقت القتال والجهاد فيه مشقة، بل إنه من أعلى درجات المشاقّ على النفس؛ لأنه يدخل في ساحة المعركة ويعلم أنه قد يُقتل، فقد تجزع النفس وتحدثه بالفرار فيقع في ذنب، وقد يُجرح وقد يُصاب، كل ذلك يحتاج إلى الصبر.

{أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ} أي: هؤلاء الذين اتَّصَفُوا بهذه الصفات من العقائد الحسنة والأعمال العظيمة والأفعال الحميدة والأخلاق الجليلة أولئك الذين صدقوا؛ صدقوا في إيمانهم وفي أقوالهم وفي أعمالهم.

{وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ} فالصادق سيُحصِّل التقوى، وإذا لم

يوجد صدق فلن يكون هناك تقوى، فالمتَّقي ترك كل المُحرّم والمحظور وفعل المأمور.

- هؤلاء جمعوا كل خصال الخير التي ذكرها الله سبحانه في الآية؛ وهؤلاء هم الأبرار حقًّا، هم الصادقون حقًّا، هم المتقون حقًّا، وثوابهم عند الله لا يعلمه إلا الله.

فائدة:

هذه الآية الكريمة آية عظيمة جمعت كل خصال الخير، ولن نوفيها حقها لأن الموضع هنا موضع تدبر وليس موضع رقائق؛ فالآية شملت بأسلوب رائع وبكلمات قوية يعجز عنها كل خطيب وحكيم، فلا يُقال هذا الإعجاز إلا من الله العلي الأعلى العليم الخبير الحكيم.

- وجمعت الآية خصال الخير كلها فشملت ما ينصلح به المجتمع من أفراد وجماعات، وفيها أصول الاعتقاد، وفيها من الأعمال الصالحات مثل: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ورعاية المحتاجين من ذوي القربى واليتامى والمساكين، وتعزيز جانب الحرية فتُنْفَق الأموالُ كي تساعد العبيد أن يكونوا أحرارًا، وفيها الشجاعة عند ملاقاة العدو في ساحة القتال.

إذًا فالآية تعريض لأهل الكتاب الذين ظنوا أن قبلتهم هذه هي القبلة، وأن المسلمين فقدوا البر بتركهم للقبلة التي كانوا يُصلّون

إليها، وأن القبلة ليست مجرد الاتجاه إلى جهة المشرق أو المغرب، ولكنَّ الخير كلَّ الخير فيمن أتى بهذه الأمور التي وردت في الآية الكريمة.

- فكل هذه الأمور وغيرها جاءت بأسلوب بديع! فلو طلبنا من أحد الأدباء أن يكتب هذه المعاني الموجودة في الآية فبأي أسلوب سيكتب؟!! وكم عدد الصفحات التي سيكتب فيها كي يوصل تلك المعاني للناس؟!! فسبحان الله العظيم!!

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾.

﴿ٱلۡقِصَاصُ﴾ معناه في اللغة: المماثلة والمساواة، وأصله من قولهم (قَصَصْتَ آثارهم) أي تَتَبَعْت. والمراد بالقصاص في الآية: مماثلة النفوس والجروح؛ فأما النفوس فذكرت في هذه الآية، وأما الجروح فذُكرت في سورة المائدة ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾.

ومعنى ﴿ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ أي: المساواة فيه؛ فيُقتل القاتل على نفس الصفة التي قَتَل عليها المقتول، وكذلك إذا جرحه جرحًا معينًا، فالجرح مثل الجرح؛ العين مثل العين، واليد مثل اليد... وذلك إقامة للعدل والقسط بين العباد.

- فقد كان المجتمع الجاهلي لديه إفراط في هذا الأمر؛ فإذا قُتِل واحد منهم أرادوا أن يقتلوا أمامه مائة! لا يبالي بهؤلاء المائة، ولكن المهم أن يقتص لنفسه وقبيلته على قدر قوته وقوة قبيلته لا على القدر الذي يستحق.

- فجاء الإسلام وأبطل أفعال الجاهلية، وشرع للمسلمين القصاص بطريقة عادلة ليس فيها جور أو ظلم، بل قد يصل الأمر إلى العفو.

سؤال: في أول الآية {كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى} و(كُتِبَ) معناها فرض وحكم، وحكم يعني وجب، لكن بعد ذلك في الآية {فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ} أي أن ولي الدم مُخيّر بين أمرين؛ أن يقتص لوليه ويُقتل القاتل، أو يعفو عن القاتل ويأخذ الدية، فكيف نجمع بينهما؟ بداية الآية فرض، ونهايتها تقول إنه قد يكون هناك عفو؟! فكيف ذلك؟

الجواب: الله عز وجل فرض القصاص إلزامًا وهذا هو الأصل بحيث أنه مَن قَتَل يُقتل؛ فلا يوجد أفضلية لأحد على أحد وإن كان أغنى الأغنياء وله مكانة مرموقة، فلا يوجد في الدين تلك الاعتبارات، لكن العفو ليس إلزاميًّا؛ فهو بالخيار؛ إما أن يقتص (فهذا حقه وهو الأصل)، أو يقبل الدية ويعفو عن القاتل (وهذا ليس إلزاميًّا) فلا يوجد تعارض بين القولين.

وهذه الآية بها رد على الخوارج الذين يكفرون المسلمين بالكبائر، فالقاتل في اعتقادهم خارج من الملة! وخارج من الإسلام!! فهل يخرج القاتل من الإسلام؟! الجواب: لا.. لا يخرج القاتل من الإسلام طالما لم يستحل القتل؛ أي إن كان في وقت غلبه الهوى وغلبته العصبية، فهذا عند أهل السنة والجماعة مسلم لم يخرج من دائرة الإسلام، لا شك أنه في مصيبة عظيمة؛ لأنه ارتكب كبيرة من الكبائر، فلا نقلل من هذا، ولكن لا يُخلد في النار، ولا يخرج من دائرة الإسلام.

والآية الكريمة توضح ذلك؛ فتخبرنا أن حكم القاتل القصاص منه، إما أن يُقتل أو يعفو ولي الدم عنه مقابل الدية، ولم تُبيِّن الآية أنه قد أصبح كافرًا.

أيضًا هناك أدلة أخرى كثيرةعلى عدم خروج مرتكب الكبيرة من الإسلام؛ ومنها: قول الله تعالى: { وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا..} إلى قوله { إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ..} [الحجرات:٩-١٠] فلم يخرجوا من دائرة الأخوة ودائرة الإيمان على الرغم أن بداية الآيات أنهم اقتتلوا.

وأيضًا قول الله تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ} [النساء] فكل مَن مات على غير الكفر من الموحدين - حتى وإن ارتكب الكبائر - فهو في المشيئة.

فائدة:

ليس معنى قولنا للخوارج بأن القاتل لا يخرج من دائرة الإسلام أننا نستهين بكبيرة القتل، لا.. فينبغي الانتباه!! فالقتل مسألة خطيرة، ويجب على المسلم أن ينتبه ويربي أبناءه على أنها كبيرة من الكبائر؛ قال النبي ﷺ: «**لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِن دِينِهِ، ما لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**»[١]. وقال أيضًا ﷺ: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**»[٢].

بعض المسائل المتعلقة بالآية:

هل يقتل الرجل بالمرأة؟ أي هل لو قَتل الرجلُ المرأةَ يُقتل أم لا؟

الجواب: يُقتل إجماعًا؛ ونقل هذا الإجماع عددٌ من العلماء منهم القرطبي؛ قال رسولنا ﷺ: «**الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ**»[٣].

هل يُقتل المسلم بالكافر؟

الجواب: لا يقتل المسلم بالكافر، والدليل على ذلك حديث: «**وَأَنْ**

---

(١) صحيح البخاري (٦٨٦٢).
(٢) صحيح البخاري (٦٨٨٢).
(٣) أخرجه أبو داود، وأحمد، وغيرهما.

لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ»[١]. فقول الجمهور على أن المسلم لا يقتل بكافر أبدًا؛ فنفس المسلم عزيزة لا تُقتل بنفس كافر، هذه أحكام الله وهو الذي أرادها.

هل يقتل الجماعة بالواحد؟ أي لو قتل الجماعة واحدًا، فهل يُقتلوا؟

الجواب: نزاع بين أهل العلم، لكن أكثر أهل العلم على أن يُقتل الجماعة بالواحد؛ لأنه ورد عن (عمر بن الخطاب) أنه قتل نفرًا خمسة أو سبعة برجل واحد من أهل صنعاء، وقال: «**لَوْ تَمَالأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ جَمِيعًا**». لو تمالأ: أي تعاون واجتمع عليه.

- أيضًا ورد عن (علي بن أبي طالب) أنه قتل الجماعة بالواحد؛ وذلك لما قتل الخوارج (عبد الله بن خباب بن الأرتّ) فذبحوه بصورة وحشية كما تُذبح الشاة، فقال لهم: أَقِيدُونِي من ابن خبَّابٍ. قَالُوا: كُلُّنَا قَتَلَهُ. فَحِينَئِذٍ اسْتَحَلَّ قِتَالَهُمْ.

- لكن لماذا إذًا قال تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾؟ هذا هو الأصل؛ أي لو قَتَلَ الحُرُّ حُرًّا آخر فإنه يُقتل، أو أنثى قتلت أنثى فإنها تُقتل، وهكذا... لكن فرضًا لو كان الأمر أن رجلًا قتل أنثى، أو أنثى قتلت عبدًا؛ فإنه يقتل أيضًا ويشمله نفس الحكم؛ لأن الآية تبين تكافؤ الدماء فقط.

---

(١) صحيح البخاري (٣٠٤٧).

{فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ} أي إذا اختار وليّ الدم أن يعفو عن القاتل مقابل الدية فعليه اتباع القاتل في طلب الدية بالمعروف.

{وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ} أي على القاتل أداء الدية بإحسان، من غير مماطلة وتسويف.

{ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ} فهذه الأحكام نوع من أنواع التخفيف من الله سبحانه على العباد، فربما كان القتل في لحظة ضعف إيمان، وشرعنا الحنيف تترتب أحكامه على مصالح العباد ومراعاة النفوس والمشاعر والأحوال، فيُعطي الله عز وجل العباد مساحة للعفو والتسامح بينهم، وربما يتوب القاتل ويدفع الدية ويعود أفضل من السابق، وفي هذا رحمة من الله سبحانه وتعالى بهذا القاتل.

{فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ} لا يتعدّى وليّ الدم الذي اختار أن يعفو عن القاتل مقابل الدية؛ وذلك لأن البعض يكون لديه غِلٌّ من القاتل فيختار أولًا أن يأخذ الدية ثم بعد ذلك أيضًا يقتل القاتل! فنهى الله سبحانه وتعالى عن هذا.

قوله تعالى: {وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾}.

أصحاب العقول الضيقة أعداء هذا الدين تهكموا وقالوا: كيف

يكون القتل حياة! ولكنهم لو عقلوا لوجدوا حكمة عظيمة بالغة من الله في أمر القصاص، وكيف أنه حكم إلهي عظيم حكيم من أجل الحفاظ على الأنفس وبقاء حياة البشر؛ فكيف ذلك؟ لأن القاتل لو علم أنه سيُقتل يقينًا إذا قَتَل انكف عن صنيعه الفاسد ويخاف؛ فيكون فِي ذَلِك حَيَاةُ النُّفُوسِ!

- وكم من إنسان كان يتمنى أن يقتل أحدًا ولكن منعه عِلمه أنه إن قتل سيقتل.

﴿حَيَوٰةٌ﴾ أي أن القصاص سبب في بقاء الأنفس وحياتها، وبدونه سيسهل القتل وارتكاب الجرائم.

﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي يا أصحاب العقول والأفهام السليمة؛ فهؤلاء هم الذين يتقون الله تعالى بالانقياد لشرعه والعمل بأمره.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلكم تنزجرون وتتركوا محارم الله والمآثم وكل ما يُغضب الرب سبحانه وتعالى؛ وهذا أحد معاني التقوى: اسْمٌ جَامِعٌ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمُنْكِرَاتِ، فلعلكم تتقون هذه العقوبة وتتقوا غضب الله وتتقوا محارم الله خوفًا وخشية لله سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين.

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ هل معنى ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾

أنه يرى ملائكة الموت التي تنزل من السماء مع ملك الموت لأخذ الروح؟ لا؛ لأن هذه اللحظة ينقطع فيها العمل، لكن المعنى هنا أي حضر أسباب الموت، منها على سبيل المثال: مرض مزمن، كِبر السن،...... أي شيء من الشواهد التي تدل على قرب الموت، ففي هذه الحالة يجب عليه أن يكتب الوصية.

سؤال: هل كتابة الوصية واجبة؟

الجواب: لا، جماهير العلماء على أن الوصية ليست واجبة، والدليل على ذلك:

١- كثير من الصحابة لم يوصوا، ومع ذلك لم ينكر عليهم أحد، ومعلوم أن الصحابة أكثر الناس معرفة بالشريعة، فدلّ ذلك على الاستحباب وليس الوجوب.

٢- الوصية عَطِيّة، ولا يُجبر أحدٌ على العطايا!

٣- من العلماء مَن قال إن هذه الآية منسوخة كما سيأتي معنا لاحقًا.

لكن يبقى السؤال: إن كانت الوصية مستحبة وليست واجبة كما ذكرنا فلماذا جاءت كلمة {كُتِبَ} التي هي بمعنى الوجوب والفرض؟!!

قال العلماء: إنه فرض وواجب على كل مَن عليه حق للغير، مثل الديون؛ فلا بُد أن يكتب «فلان له عندي كذا..» وهذا يجب أن

يفعله الشخص في حياته، ولكن إذا شعر باقتراب موته ولديه الشواهد على ذلك فقد أصبح واجبًا عليه أن يكتب وصيته؛ وذلك حتى يعلم الورثة ويسددوا عنه هذا الدين.

*وقد نقل القرطبي رحمه الله الإجماع على أن الوصية ليست واجبة إلا على رجل عليه دين أو عنده مال لقوم.

{خَيْرًا} هو المال الكثير.

{لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ} **هل هذه الآية مُحْكَمَة أم منسوخة؟** للعلماء ثلاثة أقوال:

القول الأول: (محكمة لم تنسخ) ظاهرها العموم يُراد به الخصوص؛ والخصوص هنا في الوالدين الذَيْن لا يرثان، وفي الأقربين من غير الورثة، والمعنى أن هذا الخير الذي سيكتبه هو للوالدين والأقربين غير الوارثين.

وقد يتساءل البعض كيف أن الوالدين من غير الوارثين؟!! قد يكون الوالدان كفارًا، فلا يرث الكافر المسلم بأي حال. إذًا هذا القول ينص على أن الآية مُحكمة وحُجتهم أنها نزلت فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث، والأقربين الذين ليس لهم ميراث.

القول الثاني: (جزء منها منسوخ وجزء منها محكم): فأما الجزء المنسوخ منها: فالوصية للوالدين والأقارب الوارثين؛ وهي منسوخة بآية المواريث في سورة النساء، ومنسوخة بقول الرسول

ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**»(١). وأما المحكم منها: الوالدان والأقربون غير الوارثين؛ إما بالكفر أو الرِّق - فالعبيد لا يرثون- أو غير ذلك من الموانع.

القول الثالث: وهو لجماهير العلماء (أن الآية كلها منسوخة) منسوخة بآية المواريث في سورة النساء، ومنسوخة بحديث «**لَا وصيَّةَ لوارثٍ**» فالوالدان ورثة في الغالب؛ وقَلَّ أن نجد الوالدَيْن كافرين، هذا استثناء يخرج بالحديث، أما الآية فهي منسوخة. وهذا القول للأئمة الأربعة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمهم الله، وغيرهم من أئمة الحديث والفقه.

{حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ} أي أن فِعْل هذا حقٌّ مؤكد على المتقين لله تعالى، والذي يتقي الله عندما يكون مديونًا فإنه سيكتب الوصية ولا بُد.

*وهذا الذي احتجّ به مَن قالوا إن الآية ليست منسوخة؛ لأن نهاية الآية حقًّا على المتقين.

فائدة:

قد يريد أحد أن يكتب جزءًا من ماله للفقراء أو لبناء مسجد أو أي عمل خيري ليكون صدقة جارية له، فما هو المقدار الذي يوصي به في هذا الأمر؟

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه وأحمد وغيرهم.

- العلماء قالوا: الثلث أو الربع، والربع أفضل. لماذا؟ لحديث سعد بن أبي وقاص قال: (كانَ النبي ﷺ يَعُودُنِي وأَنَا مَرِيضٌ بمَكَّةَ، فَقُلْتُ: لي مَالٌ، أُوصِي بمَالِي كُلِّهِ؟ قالَ: «لَا». قُلتُ: فَالشَّطْرِ؟ قالَ: «لَا». قُلتُ: فَالثُّلُثِ؟ قالَ: **«الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَثِيرٌ، أنْ تَدَعَ ورَثَتَكَ أغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِن أنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»**[1].

* في هذا الحديثِ يَحكي سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ جاءه يعودُه من وَجَعٍ قارَبَ منه على الموت، وكان لديه مال، ولم يكن لديه سوى بنت واحدة، وكان يريد أن يتصدق بماله ويخرج هذا المال في أعمال البِرّ بعد موته، فسأل النبي ﷺ هل يُوصي بمالِه كُلِّه، فنَهاهُ النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ أن يخرج الشطر (أي النصف)، فنَهاهُ النبي ﷺ، فسأله عن الثلث؛ فأجابَه ﷺ أنْ يَكفِيكَ الوصيَّةُ بالثُّلثِ، وهو كَثيرٌ.

واستدل العلماء من كلمة (وهو كَثيرٌ) أن الأَولى أن ينزل من الثلث إلى الربع، لكن لو وصّى بالثلث فيجوز، ثم ذكر النبي ﷺ عِلّة هذا بأن الأفضل له أن يترك وَرَثَتَه أغنياءَ؛ فهو خَيرٌ مِن أنْ يَترُكَهم فُقراءَ يسألون الناس.

- كل هذا بالطبع لغير الورثة؛ إن أراد صدقة جارية أو أي شيء من تلك الأعمال الصالحة.

---

(١) صحيح البخاري (٥٣٥٤).

سؤال: هل للإنسان أن يرجع عن وصيته؟

الجواب: نعم. طوال فترة حياته يمكنه الرجوع فيها لا مانع، وقد أجمع العلماء على جواز ذلك، فقد ذكرنا أنها عطية وله الحرية في هذه العطية.

قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾.

- علامَ تعود الضمائر في (بَدَّلَهُ) (سَمِعَهُ) (إِثْمُهُ) (يُبَدِّلُونَهُ)؟

- عائدة على القول أو الكلام الذي قاله الموصي حال الوصية الخاصة به.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُ﴾ أي بدّل الوصية التي سمعها من الموصي بعدما سمعها منه.

لكن مَن الذي يجب عليه تنفيذ الوصية؟

-من الممكن أن يكون: الورثة كالأبناء، والشهود على الوصية؛ على سبيل المثال: قد يكون الإنسان في سفر ويشعر بالموت فيأتي بشهود ليخبرهم بالوصية.

- قد يكون الموصي تاركًا لأموال كثيرة فيأتي المسئول عن تنفيذ الوصية (قد يكون أحد الأبناء) ويجد أن الموصي أوصى بجزء كبير من المال لأحد الأقارب أو لعمل مشروع خيري، فيستنكر ذلك

وتبدأ نفسه تحدثه بالامتناع عن تنفيذ هذه الوصية، وهذا عذابه شديد عند الله عز وجل.

{فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ} نفى الإثم عن الموصي. {فَإِنَّمَآ} أداة حصر وقصر؛ تفيد حصر الحكم في المذكور، لكن هل معنى هذا أن المبدل الذي لم ينفذ الوصية هو فقط من يكون عليه الإثم؟! لا؛ فمعنى الكلام هنا أن هذا الشخص يرتكب ذنبًا كبيرًا جدًّا، والإثم وقع عليه لكنه لا يمنع أن هناك آخريين سيحملون هذا الإثم أيضًا!! فمَن هم؟!! كُل مَن تحايل لتبديل الوصية حتى يوصل لبعض الأشخاص المال؛ كنوع من أنواع المجاملة والمحاباة؛ فأما هذا فقد ظلم نفسه ظلمًا عظيمًا.

- أيضًا هناك إثم كبير على مَن أخذ المال وهو يعلم بتبديل الوصية، والدليل على ذلك حديث أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها عَنِ النبي ﷺ قال: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يَكونَ ألْحَنَ بحُجَّتِهِ مِن بَعْضٍ، فأقْضِي علَى نَحْوِ ما أسْمَعُ، فمَن قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»[١].

*والشرح: أنه من الممكن لاثنين أن يختصموا في قضية معينة ويكون واحد منهم ألحن من الثاني؛ أي أحسن في الكلام والحُجة؛

(١) صحيح البخاري (٧١٦٩).

طَلِق اللسان، أما الآخر فهو مسكين لا يستطيع أن يأخذ بحقه، فيقضي للأول ظنًّا بأن معه الحق لفصاحة بيانه، لكن حذّر النبي ﷺ مثل هؤلاء، وكل مَن أخذ ذلك الحَقَّ وهو يعلَمُ أنَّه باطِلٌ وظُلْمٌ لغيرِه، فإنه يأخُذُ شيئًا يؤدِّي به إلى النَّارِ في الآخِرةِ.

فائدة:

هناك البعض ممن يريد أن يوصي في الأمور المستحبة -غير الواجبة- كفعل صدقة جارية أو يريد التصدق أو إعطاء المال لشخص معين يمتنع عن كتابة الوصية؛ لأنه يعلم أن الورثة قد يبدلونها؛ فالله عز وجل بيّن في هذه الآية أن يكتبها، وأن الإثم ليس عليه إن قام أحد بتبديلها، وأنه سيأخذ الأجر كاملًا ويؤجر بنيته حتى ولو لم ينفذ الورثة الوصية كما أوصى بها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وعيد شديد للمُبدِّل لأن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ أي سمع كلام الموصي والوصية التي أوصى بها ويعلم جيدًا ما قاله، و﴿عَلِيمٌ﴾ أي يعلم بجَور هذا المبدل وظُلمه وتحايله على الحق وتبديله للوصية كي يبطل الحقوق، وكأنه ينكر أن الله يسمعه ويعلم ما يفعله.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ
فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ
عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ
١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ
مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ
خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ
رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ
وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا
أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ
بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ
وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ
أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ
يَرۡشُدُونَ ١٨٦ ﴾

{فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} الآية بها بيان مسألة هامة يقع فيها كثير من الناس؛ ألا وهي الوصية والميراث، فالله عز وجل بيّن أمورًا عظيمة في هذا الشأن:

{مُّوصٍ} هو الشخص الذي يحتضر ويوصي غيره.

{جَنَفًا} هو الخطأ عن غير عمد؛ أي خطأ غير مقصود.

{إِثْمًا} هو تعمد الخطأ؛ لأن الواو تقتضي المغايرة؛ فيكون (الإثم) تعمد الذنب، و(الجنف) الخطأ دون التعمد.

- بيّن الله عز وجل أن مَن حضر الوصية ووجد من الموصي في وصيته خطأً سواء كان متعمدًا أو غير متعمد فعليه أن ينصح؛ فالنصيحة بالأفضل والأعدل واجبة على المسلمين؛ قال رسول الله ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنا: لِمَنْ؟ قالَ: «**لِلَّهِ ولِكِتابِهِ ولِرَسولِهِ ولأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وعامَّتِهِمْ**»[(١)]. فالنصيحة واجبة على المسلم بقدر استطاعته، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

- فعلى كل مَن حضر أو علم بأن شخصًا أوصى بجور أو ظلم أن ينصح ولا يخاف في الله لومة لائم؛ فيُذكِّره بالله وبأنه سيلاقيه، وأن ما يُقدم عليه منكرًا لا يرضي ربه، وينصحه بأن يتقي الله سبحانه وتعالى.

---

(١) صحيح مسلم (٥٥).

{فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ} أي على العاقل الرشيد (رجل أو امرأة) أن يقوم بالإصلاح، لكن الإصلاح يكون بين مَن؟

- **قيل**: بين الموصِي والورثة؛ فقد يظلم (الموصي) أحدًا ممن أوجب الله لهم الميراث، فينصحه ذلك العاقل، وعلى (الورثة) أيضًا ألا يمنعوا الموصي من حقه في كتابة الوصية؛ فمن الناس مَن يمنع الموصي بكتابة شيء للأعمال الخيرية أو الصدقات الجارية أو غيره، فقد أحل الله له أن يتصرف في ثلث التركة كيف يشاء، لكن للأسف البعض يستكثر هذا الجزء ويطمع فيه! فيمنعوه من ذلك رغم أن هذا ماله ومن حقه أن يتصرف فيه! فعلى الشخص الرشيد الذي حضر الوصية أن يمنع مثل هؤلاء ويذكرهم بأن يتقوا الله في أنفسهم، وأن هذا المال مال المحتضر، وحقه في أن يُجعل له صدقة جارية بعد موته.

- **وقيل**: بأن يُصلحَ بعد موت الموصي بين الورثة وبين الموصَى لهم؛ فقد يوجد جور وظلم في هذا الأمر فيحدث شحناء، فعلى العاقل الرشيد الإصلاح بينهم، وأن يطلب منهم أن يسامحوا الموصي في ذلك لعل الله أن يعفو عنه.

- **وقيل**: يصلح بين الورثة أنفسهم؛ فقد يقوم الأب أو الأم بتمييز أحد الأبناء مما يُحدث غلًّا وحقدًا في قلوب البقية، فعليه أن يذكّرهم بفضل والديهم وأن يسامحوهما، فيحاول بذلك أن يصلح بين الورثة أنفسهم ويزيل هذه الضغينة.

وهكذا يحاول أن يصلح بين الثلاث طوائف: الموصي، والورثة، والموصَى لهم، وأن يردهم إلى الحق والعدل.

لذلك علينا جميعًا - وخاصة مَن تعلّم - أن يرفع عن الناس هذا الجهل وهذا الإثم، ويُبيّن لهم أحكام الشريعة الحق التي فيها كمال الخير للعباد، وأن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر حتى لا يحق عليهم عذاب الله عز وجل.

فالنبي ﷺ قال: «**انْصُرْ أخاكَ ظالِمًا أوْ مَظْلُومًا**» فقالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللَّهِ، أنْصُرُهُ إذَا كَانَ مَظْلُومًا، أفَرَأَيْتَ إذَا كَانَ ظَالِمًا، كيفَ أنْصُرُهُ؟ قالَ: «**تَحْجُزُهُ -أوْ تَمْنَعُهُ- مِنَ الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ**» [(١)].
إذن أنصره إن كان ظالمًا بأن أمنعه من الظلم.

{فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ} أي فلا إثم على هذا العاقل الرشيد، بل إنه عمل عظيم؛ لأنه يمنع الظلم والجور ويدفع عن الميت العذاب.

{إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ} ختم الله عز وجل الآية بهذا؛ لأنه هو (الغفور) الذي يغفر الزلات، ويصفح عن التبعات، و(الرحيم)؛ لأنه من رحمة الله بعباده أنه وإن وصّى الميت بجور أو ظلم وسامحه الورثة فقد برأت ذمته أمام الله! فسبحان الله على واسع رحمته وعفوه، وعلى تربية الله لعباده على المسامحة والحب بينهم؛ فالله سبحانه يحب أن يكون بين العباد تراحم وتعاطف وتواد.

---

(١) صحيح البخاري (٦٩٥٢).

قوله تعالى: { يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣}.

- سورة البقرة من السور التي يوجد بها الكثير من الأحكام؛ وهنا سنتحدث عن (حُكم الصيام).

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} تَقَدّم الخطاب بالنداء يعني أن الأمر ذو شأن.

تعليق النداء بوصف الإيمان له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى (الإغراء بالانتساب): أي من باب التحفيز والالتزام بالإيمان ومقتضياته لأنه منتسب للإيمان.

الفائدة الثانية (أنه مقتضى الايمان): فمقتضى الإيمان أن تلبي النداء وتقوم بالمطلوب.

الفائدة الثالثة (أنّ تركه نقص في الإيمان): أي أن عدم القيام به نقص في الإيمان.

{كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ} الصيام في اللغة: الإمساك، ومنه قوله تعالى { إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦} [مريم]، والصيام في الشرع: التعبد لله عز وجل بترك كل المفطرات من طلوع الفجر إلى أذان المغرب.

{كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ} التشبيه هنا تشبيه كتابة

بكتابة وليس تشبيه مكتوب بمكتوب؛ فالمقصود (أصل الصوم وليس عين الصوم ولا قدره ولا كيفيته؛ فكُتب أي فُرِض عليكم كما فرض على الأمم من قبلكم من اليهود والنصارى، ولكن تفاصيل الصيام مختلفة.

ولهذا التشبيه فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: التسلية والتأسّي بمن سبق؛ فعندما يعلم أن الصوم كان مفروضًا على الأمم السابقة يتأسى بهم ولا يشعر بمشقته ويهون الأمر عليه.

الفائدة الثانية: أن الله أكرم هذه الأمة كما أكرم الأمم السابقة؛ لأن الصيام نعمة كبيرة وله فضل عظيم؛ يكفي فيه قول النبي ﷺ: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا, إِلَى سَبْعِمِائَةَ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي, وَأَنَا أَجْزِي بِهِ؛ يَدَعُ طَعَامَهُ, وَشَرَابَهُ, وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِي**»[(١)].

- ولا يكتفي المسلم بالصيام عن الطعام والشراب فقط ولكن ينبغي أيضًا الحرص على صيام الجوارح عن الآثام! حتى ينال هذا الجزاء العظيم الذي ذُكر في الحديث.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله عن الصيام: (الصوم لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب

---

(١) صحيح مسلم (١٦٤).

العالمين من بين سائر الأعمال).

{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} فالصيام سبب للتقوى؛ لأنه من الأعمال الصالحة العظيمة وهو أيضًا ركن من أركان الإسلام، إذا فعله المسلم على الوجه الذي ذكرناه فإنه بذلك يحقق التقوى.

قوله تعالى: { أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤}.

{أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ} إشارة إلى القلة والسهولة؛ لأن (كل قليل يسهل عدّه) فهذه الأيام المفروضة عليكم هي أيام قليلة من السَّنة ومن السهل القيام بها.

- ثم زاد الله سبحانه تيسيرًا على هذا التيسير فقال: {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} فبالرغم من أن الأيام المفروضة عليكم قليلة جدًّا إلا أنه أيضًا من كان منكم مريضًا مرضًا يشق معه الصوم، أو مسافرًا، (أو من أصحاب الأعذار) فله أن يفطر، ثم عليه أن يقضي بقدر ما أفطر من الأيام.

ولكن ينبغي أن نتوقف عند مسألة (المسافر)؛ هل الفطر أفضل للمسافر أم الصوم؟ خاصة أن هناك من الأحاديث الصحيحة ما وردت في الصيام في السفر، وأحاديث أخرى وردت في أفضلية

عدم الصيام في السفر، فكيف نجمع بينهما؟

الجواب: في الحديث (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي السَّفَرِ، فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمُفْطِرُ، فَنَزَلْنَا فِي يَوْمٍ حَارٍّ وَاتَّخَذْنَا ظِلَالًا، فَسَقَطَ الصُّوَّامُ، وَقَامَ الْمُفْطِرُونَ فَسَقَوْا الرِّكَابَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ذَهَبَ الْمُفْطِرُونَ الْيَوْمَ بِالْأَجْرِ**»[١].

قد يُعتقد من الحديث أن المفطر أفضل من الصائم! لكن الحديث يقصد صنفًا من المفطرين؛ وهو الذي يفطر ويقوم بخدمة الناس وسقياهم ومأكلهم، فهذا نفعه متعدٍّ، وخير الناس أنفعهم للناس. فهذا الأفضل له أن يُفطر.

- وهناك أيضًا حديث «**لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ**»[٢]. فهو من العام المخصوص؛ فقد رَأى القوم رجُلًا كاد يقع بسَبَبَ ضَعْفِهِ؛ لأنه كان صائمًا ولم يَأخُذْ برُخصةِ الإفطارِ في السَّفَرِ، فقال النبي هذا الحديث لكل مَن كان هذا حاله في السفر.

* ولكي نجمع بين الأحاديث ننظر لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: كُنَّا نَغْزُو مع رَسولِ اللهِ ﷺ في رَمَضَانَ، فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا المُفْطِرُ، فلا يَجِدُ الصَّائِمُ علَى المُفْطِرِ، وَلَا المُفْطِرُ علَى الصَّائِمِ، يَرَوْنَ أنَّ مَن وَجَدَ قُوَّةً فَصَامَ فإنَّ ذلكَ حَسَنٌ، وَيَرَوْنَ أنَّ مَن وَجَدَ

---

(١) سنن النسائي (٢٢٨٣).

(٢) صحيح البخاري (١٩٤٦).

ضَعْفًا فأفْطَرَ فإنَّ ذلكَ حَسَنٌ[(١)].

هنا نتعلم أنه إذا كان هناك هلاك للنفس في الصيام فالأولى الإفطار، وإذا استطاع العبد الصيام في السفر فليصم. ولقد فعل النبي ﷺ ذلك ليبين للناس رخصة الإفطار في السفر.

إذًا الحكم الفقهي لمَن كان مريضًا أو في مشقة السفر ولا يستطيع الصيام فعليه أن لا يصوم؛ لقوله تعالى {فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} أي أنه يقضي هذه الأيام في وقت آخر.

ملحوظة: جاءت {أَيَّامٍ أُخَرَ} نكرة؛ فلم تُحدّد أيام القضاء؛ وكانت عائشة رضي الله عنها تقضي ما عليها من رمضان في شعبان، وهناك بعض مَن يبدأ الصيام من ثاني أيام شهر شوال، على الرغم من أن الآية لم تحدد متى أيام القضاء، ولذلك يجوز صيام أيام القضاء قبل أن يأتي رمضان آخر لفعل عائشة رضي الله عنها.

- ولا يُفهم من هذا الأمر التشجيع على التأخير!! لكن لتوضيح الأمر بالجواز خاصة إن كانت المرأة مريضة أو لا تستطيع القضاء بعد رمضان مباشرة.

{وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} للعلماء أقوال في معنى الآية؛ أشهرها قولان:

---

(١) صحيح مسلم (١١١٦).

القول الأول: إن هذه الآية منسوخة، وهو قول سلمة بن الأكوع وابن عمر ومعاذ بن جبل وكثير من الصحابة؛ حيث أن الصوم كان لمن يطيق ويستطيع الصيام فقط ثم نسخت بقوله تعالى: {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ}.

القول الثاني: إن هذه الآية نزلت في الشيخ والمرأة العجوز بصفة عامة - الذي يطيق والذي لا يطيق- فلهما هذه الرخصة ثم نسخت في حق الشيخ الكبير والمرأة العجوز بقوله {فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ} فزالت الرخصة إلا لمن لا يطيق فقط، فلهم رخصة في الإفطار ويطعمون بدلًا عن كل يوم أفطروا فيه إطعام مسكين.

والذي عليه الجمهور أن الآية عامة للجميع ممن لا يطيقون (من أصحاب الأعذار والرخص) أن يطعموا عن كل يوم مسكينًا.

{فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ} أي مَن لديه مرض مزمن لا يُرجى بُرْؤه حتى يموت، فهذا ليس عليه صيام.

- **وقال فريق من جمهور العلماء:** إنه يفطر لكن يكفر عن كل يوم بإطعامه لمسكين.

- **وفريق آخر (وهذا ما أرجحه):** أنه لا يصوم ولا يكفر؛ لأنه لا يطيق، والله سبحانه وتعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فيسقط عنه الصيام بعدم سعته له، وإذا أطعم فيكون هذا من باب الإحسان.

فإذا أخذ أحد بالرأي الأول وأحب أن يزيد عن إطعام واحد فقط إلى اثنين أو ثلاثة....فمن تطوع خيرًا فهو خير له.

- أو أنه قضى ما عليه وأحب أن يزيد ويطعم.....فمن تطوع خيرًا فهو خير له..

فالمراد من {فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ} أي أعطى أكثر مما طُلب منه؛ فهي غير مقيدة.

{وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} لكن في نهاية الأمر يُستحب الصيام؛ لذلك الإمام أحمد مثلًا استحب الصيام للمسافر أو غيره من أصحاب الأعذار ممن وجد في نفسه قوة على الصيام.

فبعدما رخّص رب العالمين للمريض والمسافر والعجوز بيّن أن الأفضل الصيام فقال سبحانه وتعالى {وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ} فلو لديه القدرة والطاقة للصيام فالأفضل له الصيام؛ لأن فيه فوائد عظيمة جدًّا جدًّا.

قوله تعالى: { شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾}.

{شَهْرُ رَمَضَانَ} قيل إنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره أيامًا

معدودات، وكأنه أراد أن يقول الأيام المعدودات هي شهر رمضان.

سؤال: قال تعالى {شَهْرُ رَمَضَانَ} ولم يقل (رمضان) فلماذا؟

الجواب: لثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: أنه لو قال رمضان الذي أنزل فيه القرآن؛ اقتضى اللفظ أن يكون القرآن كله نزل على جميع رمضان أي الثلاثون يومًا، وهذا ليس صحيحًا؛ فمعلوم أن جماهير العلماء على أن القرآن نزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في بيت العزة؛ لأثر ابن عباس المشهور والمعروف، والذي عليه جماهير العلماء، بل نقل القرطبي أن لا خلاف بين أهل العلم في هذا، إذًا لو قال رمضان سيقتضي رمضان كله، فقيّدها بشهر رمضان.

الفائدة الثانية: قالوا: إن رمضان شهر ممدوح من الله؛ أي أن الله مدحه وعظّمه، ولو لم يذكر كلمة شهر فقد يتبادر إلى الأذهان أن الشهر الممدوح هو الذي نزل فيه القرآن في عهد النبي ﷺ فقط، وأن كل رمضان بعد ذلك ليس ممدوحًا! لذلك علّق حكم التعظيم بهلال الشهر الكريم؛ فكلما هلَّ هذا الشهر كان إعلانًا بقدوم الشهر الكريم المعظم.

الفائدة الثالثة: التبيين في الأيام المعدودات؛ لأن الأيام تُبيَّن بالأيام وبالشهر ونحوه، ولا تبين بلفظ رمضان، فحددها بشهر

رمضان؛ فقد يسأل سائل: ما هي تلك الأيام المعدودات؟ فيكون الجواب: شهر رمضان.

*ونجد في السُّنة حذف كلمة (شهر) له فائدة؛ كحديث «**مَن صَامَ رَمَضَانَ إيمَانًا واحْتِسَابًا**» فقال النبي ﷺ رمضان ولم يقل شهر رمضان؛ وذلك حتى يتناول كل الشهر فدلّ على صيامه كله، وهذا يسمى المفعول على السِّعَة؛ أي تناول أفرادًا كثيرة، والمعنى هنا أن كل الشهر يُصام.

{شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ} هذا القرآن الذي اهتدينا به للحق، ولكل ما يحبه الله ويرضاه، وكل آياته بينات واضحات، يصدق بعضها بعضًا، و(الفرقان) فرق به بين الحق والباطل، فقد أعطانا الله سبحانه وتعالى كل هذه النِّعَم، فكان لهذا الشهر فضلٌ كبيرٌ.

{فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} هنا الفاء للشرط، وقيل: للوقت الذي وقت عليكم فيه.

{شَهِدَ} تحمل معنى: حضر أو أخبر أو اطّلع.

{وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} إعادة الآية حتى لا يتوهم شخص أن هناك نسخًا للحكم؛ فقد يُتوهّم أن رخصة المريض والمسافر نُسخت بل هي باقية.

{يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ} الله سبحانه يريد

بنا اليسر دائمًا، والشريعة كلها يسر.

{وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ} لتكملوا عدة الشهر أي صيامه؛ إما تسع وعشرون أو ثلاثون حسب رؤية الهلال.

{وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ} شرع الذكر دائمًا بعد انقضاء العبادات، وهذه لافتة هامة؛ لأن الإنسان متلبس بالتقصير حال العبادات، لذلك عليه بالذكر، فما بالنا في حال المعصية!!

- وورد الكثير في هذا الأمر في القرآن والسنة؛ منها قوله تعالى {فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا.. ﴿٢٠٠﴾} [البقرة].

- وقد كان النبي ﷺ يرفع صوته بالذكر بعد الصلاة فيعلمون بانتهائها، عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: (أنَّ رفعَ الصَّوتِ بالذِّكرِ حينَ ينصرِفُ النَّاسُ مِن المكتوبةِ كان على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ) وفي لفظٍ: (مَا كنَّا نعرِفُ انقضاءَ صلاةِ رسولِ اللهِ ﷺ إلَّا بالتَّكبيرِ).

{وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ} لكن متى نُكبِّر؟ نُكبِّرعندما نرى هلال شوال بعد ختام شهر رمضان.

- فتكبروا الله على أن وفقكم لصومه، وأعانكم على إكماله؛ فتعظموه على هذه الهداية العظيمة التي هدى بها عباده المسلمين، وقد ضلّت الأمم السابقة فتركوا الصيام وحرّفوا الكتب وخرّبوا البلاد والعباد، لكن هدى الله المسلمين لهذا الشهر الكريم، ومَنّ عليهم فيه

بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، كل هذه من النِّعَم التي تستوجب الشكر والتكبير تعظيمًا لله سبحانه.

{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} أي: كي تشكروا الله سبحانه وتعالى وتقوموا بواجب التكبير والتعظيم.

قوله تعالى: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾}.

قيل: إنها معطوفة على الآية السابقة، وحدث هنا التفات؛ فقد التفت من خطاب للمؤمنين بقوله في الآية السابقة {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} إلى خطاب للنبي ﷺ بقوله {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى} فلماذا؟ قيل لتعظيم شأن النبي ﷺ وأنه نبي الأمة؛ وهو معلمهم، وهو أفضل الخلق الذي يسألونه عندما يحتاجون إليه فيُجيبهم بوحي من الله.

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى} بها تصريح بأن الأمر سيحدث ويقع في المستقبل ويقينًا سيحدث؛ لأن استعمال الشرط بطريقة السؤال تكون بقصد الاهتمام، كما أن استعمال (إذا) متحقق الوقوع.

- ويؤكد هذا المعنى أن كل سؤال في القرآن من الصحابة للنبي ﷺ كانت الإجابة بكلمة (قل) أي قل لهم يا محمد...أما هذا الموضع فلم تُذكر كلمة (قل).

- إذًا فالمعنى: أي عندما يسألك عبادي عني أو عن الدعاء أو

كيفية الدعاء.. فأجب عليهم بـ {فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إذا دعان}، وليس سبب نزول الآية حديث (هل ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه) فليس هذا صحيحًا.

- **وقيل أيضًا:** إن هذه الآية جملة معترضَة بين أحكام الصيام؛ فقبلها أحكام صيام وبعدها أحكام صيام، فأتت بينهما وكأن المراد أن الله سبحانه سيجازيكم على فعل تلك الأحكام خير الجزاء، وبعدها قاموا بصيام الشهر واستكماله والذكر والتكبير والتعظيم يسألونه عن ما سينالون من الأجر وثواب هذا العمل.

- **وقيل:** لأن ختام الآية السابقة {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} وهو ثناء على الله عز وجل، ثم قال تعالى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي} ومن آداب الدعاء أن نثني على الله أولًا ثم نصلي على النبي ﷺ ثم ندعو.

*ولكن يجوز الدعاء بدون تلك المقدمة لأن هناك مواضع في السنة دعا فيها النبي ﷺ بدون هذه المقدمة مثل: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**» إلى غير ذلك من الأدعية.

- لكن الأفضل الثناء على الله ثم الصلاة على النبي ﷺ، وتوجد آداب كثيرة للدعاء[(١)].

---

(١) ولمن أراد المزيد عن آداب الدعاء وموانع الإجابة الرجوع إلى درس اسم الله (المجيب) من سلسلة أسماء الله الحسنى بالمكتبة الصوتية بالموقع: رابط الجزء الأول: https://omtameem.com/6817 رابط الجزء الثاني: https://omtameem.com/6819

قال سبحانه وتعالى {فإني قريب} ولم يقل (قل لهم إني قريب)؟

- **قيل**: لأن السؤال افتراضي كما ذكرنا.

- **وقيل**: لم يذكر النبي ﷺ حتى يعلمنا بأن الله قريب منا دائمًا بدون واسطة، وهذه من أعظم النِّعَم فلا واسطة بيننا وبين الله.

{فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي} **قيل:** إنها عطف مغايرة؛ الفعل الأول للأمر، والثاني للدوام والثبات. **وقيل**: هي من باب عطف الخاص على العام؛ فالاستجابة تشمل دعوة الإيمان.

{لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} أي كي يصلوا للرشاد والحق فيفعلوا كل الأفعال التي تُرضي الله عنهم.

.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ
نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ
تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ
مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ
مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ
وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ
وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ
وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ
وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ
ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩ وَقَٰتِلُواْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾

{ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ ...} هذه الآية تحتوي على أحكام كثيرة تلزم كل مسلم مُكلّف؛ لأن الصيام من (فروض العين)، فيجب على كل مسلم ومسلمة معرفة جميع الأحكام المتعلقة بالصيام.

سبب نزول الآية: في بداية فرض الصيام كان الرجل إذا أفطر يحل له الأكل والشرب والوطء إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلّى العشاء حرم عليه ما ذُكر إلى الليلة الثانية، فشقّ ذلك على المسلمين مشقة كبيرة.

وقد وقع في هذا المحظور بعض الصحابه، فنزلت الآية لتحِلّ ما كان محرمًا قبل ذلك وتنسخه تيسيرًا على المسلمين ورحمة بهم لما وقع عليهم من الضرر والمشقة بسبب تقيد الطعام والشراب إما بالنوم وإما بصلاه العشاء.

كما جاء في حديث البراء بن عازب ﵁: كانَ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إذَا كانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الإفْطَارُ، فَنَامَ قَبْلَ أنْ يُفْطِرَ؛ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ ولَا يَومَهُ حتَّى يُمْسِيَ...

(وإنَّ قَيْسَ بنَ صِرْمَةَ الأنْصَارِيَّ كانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الإفْطَارُ أتَى امْرَأَتَهُ، فَقالَ لَهَا: أعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قالَتْ: لَا، ولَكِنْ أنْطَلِقُ فأطْلُبُ لَكَ، وكانَ يومَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قالَتْ: خَيْبَةً لَكَ! فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عليه، فَذُكِرَ ذلكَ للنَّبيِّ ﷺ،

فَنَزَلَتْ هذِه الآيَةُ: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} [البقرة: ١٨٧]، فَفَرِحُوا بهَا فَرَحًا شَدِيدًا، ونَزَلَتْ: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ} [البقرة: ١٨٧] (١).

- **وقيل أيضًا:** إن سبب نزولها أن الرجال كانوا يمتنعون عن أزواجهم طوال رمضان، وكان يشق ذلك عليهم فأنزل الله الآية تخفيفًا ورحمة.

- (لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضانَ كانُوا لا يَقْرَبُونَ النِّساءَ رَمَضانَ كُلَّهُ، وكانَ رِجالٌ يَخُونُونَ أنْفُسَهُمْ. فأنْزَلَ اللَّهُ {عَلِمَ اللَّهُ أنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أنْفُسَكُمْ فَتابَ عليْكُم وعَفا عَنْكُمْ} (٢).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه في قولِ اللهِ تعالَى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ} إلى قَوْلِهِ: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} قَالَ: «كَانَ المسلِمونَ قبلَ أن تنزلَ هذه الآيةُ إذا صلَّوا العِشاءَ الآخِرَةَ حُرِّمَ عليهِمُ الطَّعامُ والشَّرابُ والنِّساءُ حتَّى يُفطِروا، وإنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ أصابَ أهلَهُ بعد صلاةِ العِشاءِ، وإنَّ صِرمَةَ بنَ قيسٍ الأنصاريَّ غلَبَتْهُ عينُهُ بعدَ صلاةِ المغرِبِ، فنامَ ولم يَشبَعْ من الطَّعامِ، ولم يَستيقِظ حتَّى صلَّى رسولُ الله ﷺ العِشاءَ، فقامَ فأكلَ وشربَ، فلمَّا أصبحَ أتى رسولَ الله ﷺ فأَخْبَرهُ بذلكَ، فأنزلَ اللهُ عند

(١) صحيح البخاري (١٩١٥).
(٢) صحيح البخاري (٤٥٠٨).

ذلكَ: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ}».

فعمر بن الخطاب ﵁ أتى امرأته بعد صلاة العشاء، وصِرمة بن قيس الأنصاري أغشي عليه مرة، فإذا كان هذا الأمر يشق على الصحابة فما دون الصحابة أصعب وأشق.

{أُحِلَّ} مبنية للمفعول؛ وهذا من باب الإضمار؛ لأنه من المعلوم عند أي مؤمن أن الذي يحل ويحرم هو الله. **وفيها:** التفات للخروج من المتكلم إلى المخاطب؛ فالمتكلم في قوله تعالى في الآية السابقة {أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى} ثم التفات إلى المخاطب وهم المؤمنون {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ} وهذا الأمر من روعة وعظمة القرآن التي تصرف عن القلوب الملل والسآمة. **وفيها** (طباق معنوي)؛ والطباق معناه الجمع بين متقابلين؛ فلفظ {أُحِلَّ} يقتضي أن الأمر كان محرمًا ثم أُحلّ كما فصّلنا.

{لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ} أي وقت الإفطار، وحتى طلوع الفجر.

{ٱلرَّفَثُ} أي الجماع ومقدماته؛ فيباح له الجماع من بعد المغرب وحتى طلوع الفجر. وذِكر لفظ (الرفث) من آداب القرآن؛ فالمسلم يجب أن يكون حييًّا حريصًا على أن يبتعد عن الألفاظ التي تنافي الحياء.

{هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ} اللباس أصله الثوب. قال أبو عبيدة: إن المرأة يقال عليها لباس وفراش؛ فكما أن اللباس يلتصق

بالجسد كذلك المرأة مع زوجها في حال الجماع، كل منهما يغطي الآخر كما الثوب يغطي الجسد. وقيل: معناها سكن؛ أي يسكن بعضكم إلى بعض؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿٤٧﴾﴾ [الفرقان] أي سكنًا.

وقدّم المرأة على الرجل؛ لأن الرجل هو الذي يحتاج إلى المرأة، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى المرأة قُدرة على ضبط شهوتها أكثر من الرجل؛ فهي أضعف منه في الاحتياج للشهوة.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ فهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وقد عَلِمَ الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم، لكن ما الفرق بين لفظ الخيانة و﴿تَخْتَانُونَ﴾؟ لفظ ﴿تَخْتَانُونَ﴾ أقوى؛ لأن فيها زيادة مبنى عن لفظ (الخيانة) وبالتالي فيها زيادة معنى.

- **وقيل في معنى تختانون:** عدم المساعدة؛ ومثال ذلك عندما نقول (خانتني عيني فلم أرَ جيدًا) أو (خانتني الذاكرة فنسيت) وهكذا..أي لم تساعده نفسه على فعل الخير بتنفيذ الأحكام.

- **وقيل: الاختيان من الخيانة**: ومعناها: أنكم نقضتم العهد وخنتم أنفسكم وظلمتموها بأنكم عصيتم الله ولم تمتثلوا أمره بعدم امتناعكم عن الطعام والشراب بعد العشاء، وعَلِمَ الله هذه الخيانة من النفس وأنكم ضعفاء فتاب عليكم.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي تاب عليكم عند فعلكم لهذا المحظور،

وتوبته عليكم بتخفيف الحكم بأن أباح الطعام والشراب والجماع حتى الفجر كقوله تعالى {عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ ۝٢٠} [المزمل]. إذًا معنى {تاب عليكم} أي خَفَّف عنكم الحكم.

{وَعَفَا عَنكُمۡ} أي عفا عن الذنوب؛ فلم يؤاخذ العبد على خطئِه، فالكريم سبحانه لم يغفر فقط (يتجاوز عن الذنب) بل عفا أثر الذنب؛ أي مَحَا أثره، وذلك مبالغة في العفو، فالعفو أبلغ من المغفرة.

فكرم الله كرمٌ على كرم؛ لم يتجاوز الذنب فقط بل عفا أثره.

{فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ} أي مباح للزوج مباشرة زوجته وجماعها من وقت المغرب وحتى طلوع الفجر. والأمر هنا ليس على الوجوب بل على الإباحة؛ لأن الأمر بعد النهي يفيد الإباحة.

{وَٱبۡتَغُواْ} أي اطلبوا.

{مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ} **قيل**: الولد الصالح؛ أي ليس الأمر لقضاء الشهوة فحسب إنما أيضًا ابتغاء الولد الصالح الموحِّد لله، قال رسول الله ﷺ: «**تَنَاكَحُوا، تَكْثُرُوا، فَإِنِّي أُبَاهِي بِكُمُ الْأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

وقيل: ابتغوا ليلة القدر؛ لأن الله عندما أرشد الصحابة إلى إباحة الطعام والشراب والجماع ليالي رمضان، أرشدهم أيضًا إلى الحرص على ليلة القدر وما فيها من خير، فحتى لو فعلت المباح كن حريصًا على ابتغاء فضل هذه الليلة ولا تضيّعها بالانشغال بالأكل

(١) مصنف عبد الرزاق (١٠٣٩١).

والشرب والجماع إن لم تكن معتكفًا.

- **وقيل**: ما كتب الله لكم في إباحة وطء الزوجة في مكان الحرث أي القُبُل.

وكلها معاني مقبولة في الآية.. وأظهرها الولد الصالح.

و(كَتَبَ) بمعنى (جعل) كما قال تعالى {كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ}، و(كَتَبَ) بمعنى (قضى) كقوله تعالى {قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا}، و(كَتَبَ) بمعنى (ما أثبته الله في اللوح المحفوظ)؛ كـ {وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ} أي خذوا بالأسباب التي تجعلكم تنالوا ما كُتب في اللوح المحفوظ من الولد الصالح وليلة القدر. وهذا دليل على ضرورة الأخذ بالأسباب.

{وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ} سبب النزول: (عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه، قالَ: أُنْزِلَتْ: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ} [البقرة: ١٨٧] ولَمْ يَنْزِلْ {مِنَ الْفَجْرِ}، فَكانَ رِجَالٌ إذَا أرَادُوا الصَّوْمَ رَبطَ أحَدُهُمْ في رِجْلِهِ الخَيْطَ الأبْيَضَ والخَيْطَ الأسْوَدَ، ولَمْ يَزَلْ يَأْكُلُ حتَّى يَتَبَيَّنَ له رُؤْيَتُهُمَا، فأنْزَلَ اللَّهُ بَعْدُ: {مِنَ الْفَجْرِ} [البقرة: ١٨٧]، فَعَلِمُوا أنَّه إنَّما يَعْنِي اللَّيْلَ والنَّهَارَ[١]).

- (عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

(١) صحيح البخاري (١٩١٧).

الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ}، قَالَ: أَخَذْتُ عِقَالًا أَبْيَضَ وَعِقَالًا أَسْوَدَ، فَوَضَعْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَتَبَيَّنْ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَضَحِكَ فَقَالَ: «**إِنَّ وِسَادَكَ لَعَرِيضٌ طَوِيلٌ، إِنَّمَا هُوَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**»[1]. فأباحَتْ لهم الآيةُ الأكْلَ والشُّربَ طُوالَ اللَّيلِ وحتَّى طُلوعِ الفجْرِ.

هناك بعض المسائل المتعقلة بـ (السحور) في الآية:

١ـ**السحور بركة:** قال رسول الله ﷺ: «**تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً**»[2]. فيجب الحرص عليه ولو على تمرة؛ قال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَ سَحُورُ الْمُؤْمِنِ التَّمْرُ**»[3]، فحَثُّ النبيِّ ﷺ عليه دليلٌ على مَا في هذا الوقتِ والتَّمْرِ من بَرَكةٍ يَستعينُ بهما الصَّائمُ على نهارِه.

٢ـ **في السحور مخالفة لأهل الكتاب:** لأنهم لا يتسحرون؛ قال رسول الله ﷺ: «**فَصْلُ مَا بيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ**»[4].

٣ـ **تأخير السحور**: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَزَالُ أُمَّتِي بخَيْرٍ مَا**

---

(١) سنن أبي داود (٢٣٤٩).
(٢) صحيح البخاري (١٩٢٣).
(٣) سنن أبي داود (٢٣٤٥).
(٤) صحيح مسلم (١٠٩٦).

عَجِّلُوا الفِطْرَ»[١]، وهناك زيادة على الحديث لكنها ضعيفة فلا توجد في الصحيحين «**وأَخِّرُوا السُّحورَ**»، ولكن هناك حديث أنس عن زيد بن ثابت قال: (تسحَّرْنا معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قمنا إلى الصَّلاةِ. قُلْتُ: كم بينَهما؟ قالَ: قدرُ قراءةِ خمسينَ آيةً)[٢]. فعُلم من الحديث أن السحور كان آخر الليل.

فمن سنة النبي ﷺ تأخير السحور، وأي شيء مخالف لسُنة رسول الله ﷺ يجعل الضرر يقع على الإنسان؛ لأن في سنته واتّباعه كل الخير في الدنيا والدين.

*وهذا على الاستحباب وليس على الوجوب، لكن مَن يترك سنة النبي ﷺ يترك خيرًا عظيمًا.

بعض المسائل المتعلقة بـ (أحكام الصوم):

*لو أن رجلًا جامع زوجته قبل الفجر ولم يغتسل حتى طلوع الفجر هل يصح صومه؟ جماهير العلماء من السلف والخلف على أن صيامه صحيح بما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يُصبِحُ جُنُبًا مِن جِماعٍ غيرِ احتِلامٍ، ثمَّ يَصومُ.

- وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رَجُلًا جَاءَ إلى النَّبيِّ

---

(١) صحيح البخاري (١٩٥٧)، مسند أحمد (٢١٣١٢).
(٢) صحيح مسلم (١٠٩٧).

ﷺ يَستفْتِيه، وَهي تَسْمَعُ مِن وَرَاءِ البَابِ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ، أَفَأَصُومُ؟ فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**وَأَنَا تُدْرِكُنِي الصَّلَاةُ وَأَنَا جُنُبٌ فأصُومُ**» فَقالَ: لَسْتَ مِثْلَنَا يا رَسولَ اللهِ؛ قدْ غفَرَ اللَّهُ لكَ ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ، فَقالَ: «**وَاللَّهِ، إنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بما أَتَّقِي**».

*مسألة الوصال في الصوم**: والوصال: مُواصَلَة الصَّومِ بتَرْكِ الطَّعامِ لَيْلًا ونَهارًا، لعدة أيام، وقد نهى رسول الله ﷺ عنه فقال: «**لَا تُواصِلُوا**» قالوا: إنَّكَ تُواصِلُ، قالَ: «**إنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إنِّي أبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي ويَسْقِينِي**» فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الوِصالِ، فَواصَلَ بهِمُ النبيُّ ﷺ يَومَيْنِ أوْ لَيْلَتَيْنِ، ثُمَّ رَأَوُا الهِلالَ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**لو تَأَخَّرَ الهِلالُ لَزِدْتُكُمْ**» كالْمُنَكِّلِ لَهُمْ(١).

*فقد أراد الصحابة أن يواصلوا الصيام لعدة أيام كما كان يفعل النبي ﷺ بدون طعام وشراب اقتداءً به في الصبر والجَلَد ورياضة النفس على فعل الطاعات! لكنه ﷺ بَيّن لهم أن ذلك إنما هو خُصوصيَّةٌ مِن خُصوصيَّاتِه ﷺ فهو يَبيتُ يُطعِمُه ربُّه ويَسقيهِ؛ قال العلماء في معنى «يُطْعِمُنِي رَبِّي ويَسْقِينِي»: أي يعطيه الله قوة في بدنه كالآكل والشارب فلا يحتاج إلى طعام وشراب. وقيل: يطعمني ويسقيني على الوجه الحسي، وهذا معنى بعيد؛ لأنه لا تحصل به

---

(١) صحيح البخاري (٧٢٩٩).

فائدة من الوصال.

- لكن أرشد النبي ﷺ مَن أراد أن يواصل إلى أن المباح له حتى وقت السحر؛ فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُواصِلُوا، فأيُّكم أرادَ أن يواصِلَ، فليُواصل حتَّى السَّحَرَ**» قالوا: فإنَّكَ تُواصِلُ، قالَ: «**إنِّي لَستُ كَهَيئتِكُم، إنَّ لي مُطعمًا يُطعمُني، وَسَاقيًا يَسْقِيني**»[(١)].

{وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ} ننتقل هنا إلى حكم آخر من الأحكام وهي الأحكام المتعلقة بالاعتكاف؛ فحتى لا يُظن أن الأمر بالإباحة للجماع - الذي ذُكر في بداية الآيات - يدخل فيه المعتكف! أراد الله سبحانه وتعالى أن يبيّن أن المعتكف له أحكام خاصة؛ منها:

- لا يباح للمعتكف مباشرة زوجته أثناء الاعتكاف؛ فلا يحل له الجماع ولا مقدماته، فإن جامعها فقد خرج من الاعتكاف.

- له أن يعتكف في أي مسجد؛ سواء تقام فيه الجمعة والجماعات أو غير ذلك.

- ولا يشهد جنازة، ولا يخرج لزيارة، ولا يذهب إلى بيته إلا لضرورة.

-والأصل في الاعتكاف أنه في رمضان.

---

(١) سنن أبي داود (٢٣٦١).

{تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا} **قيل**: حدود الله هي الأحكام. **وقيل**: حدود الله هي المحارم (ومنها أن المعتكف لا يباشر المرأة، ولا يفطر رمضان بدون عذر، وغيرها من أحكام الصيام). **وقيل**: حدود الله هي فرائض الله. **وقيل**: المقادير التي قدرها الله ومنع من مخالفتها.

* إذًا أي حُكم أَمَر الله به أو نهى عنه فلا يسع مسلم أن يترك هذا الأمر بغير عذر ولا أن يأتي بالنهي. وأصل كلمة (الحد) المنع؛ ولذلك يُسمى البواب والسَّجّان حدَّادًا؛ لأن البواب يمنع غير صاحب المكان من الدخول، وكذلك السجان يمنع المسجون من الخروج.

*وسميت الأوامر والنواهي بالحدود لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، أو يخرج عنها ما هو منها. **وقيل أيضًا**: إنها سُميت بالحدود؛ لأنها تمنع صاحبها من أن يقترب منها إذا كانت من النواهي، وتمنعه أن يبتعد عنها إذا كانت من الأوامر.

{كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} فيه إشارة أن هذه الأمور التي ذُكرت من الأحكام والأوامر والنواهي، ونسخ الحكم من الثقل إلى التخفيف، كلها آيات من الله يبينها للناس كي يتقوا الله، ويمتنعوا عن إتيان محارم الله وعن مخالفة الأمر أو إتيان النهي، والالتزام بتلك الأمور في المعاملات والعبادات؛ لأن الله هو الهادي إلى الحق والهادي إلى سواء السبيل، وأي إنسان عاقل يعلم أن ما أمر الله بأمر إلا وفيه مصلحة راجحة أو كاملة، ولم ينهَ عن

شيء إلا وفيه مضرة ومفسدة راجحة أو كاملة.

قوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٨٨}.

هذه الآية من آيات الأحكام: {وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم} عبّر الله عز وجل عن المال بالأكل لأن أقوى وجوه الانتفاع بالمال هو الأكل؛ فإذا كان الإنسان سيهلك وأمامه الأكل وشيء آخر فإنه سيقدم الأكل على غيره. وقال {أَمْوَٰلَكُم} ولم يقل (أموالهم) مع أن المقصود أموالهم - فلن يأكل الإنسان ماله - وذلك لتقبيح الأمر في النفوس وتنفير النفوس من هذه المعصية، وأيضًا للتحفيز على الأمر بالمعروف وكأن المال ماله هو، وليس مال غيره فيحافظ عليه كما يحافظ على ماله.

ما هي أنواع أكل الأموال بالباطل؟

كل ما هو باطل من: غِشّ وغصب وسرقة وأموال ربوية وخيانة في البيع والشراء، أو استئجار عامل وعدم إعطائه ماله، وأيضًا جمع أموال الصدقات من أصحابها ثم أخذها واستحلالها للنفس وعدم إنفاقها كما أراد أصحابها.... كل هذا من صور أكل أموال الناس بالباطل، ومن يفعل ذلك فإنما يأكل في بطنه نارًا، وما أكثر وجوه الغش في هذا الزمن!!

{بِٱلْبَٰطِلِ} الباء حرف جر للتعدي والمصاحبة. والتعدي: أي لا

تجعل الباطل وسيلة لأخذ أموال الناس؛ كأن يكون لسانك لَحِنًا تستطيع أن تنتصر لنفسك فتأخذ الحق لك لتصل للمال بالباطل. والمصاحبة: أي لا تأكل الأموال أكلًا مصحوبًا بالباطل؛ فشمل بذلك المحرم لذاته كالسرقة، والمحرم لوصف به كالقمار والربا.

﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ تدلوا: أي ترسلوا. وهذا الأكل للمال الحرام قد يكون عن طريق:

- إما الرشوة؛ فيرسلها للحاكم ليستخرج منه الحكم الجائر، وهذا محرم ويُعدّ كبيرة من الكبائر.

- أو أن يقوم أحدٌ بتوكيل أحد الأشخاص ليدافع عنه في قضية ما، وهذا الشخص يعلم أن هذا الموكّل على الباطل وكاذب! ففي هذه الحالة يكون ماله حرامًا قولًا واحدًا، ويشترك معه في الإثم؛ قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ۝٢﴾ [المائدة]، وقال تعالى ﴿ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝١٠٥﴾ [النساء] فلا يحل لأحد أن يخاصم عن الخائن.

- أيضًا عن طريق لحن القول؛ قال النبي ﷺ: **«إنَّما أنا بَشَرٌ وإنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يَكونَ ألْحَنَ بحُجَّتِهِ مِن بَعْضٍ، فأقْضِي علَى نَحْوِ ما أسْمَعُ، فمَن قَضَيْتُ له مِن حَقِّ أخِيهِ شَيئًا، فَلَا يَأْخُذْهُ فإنَّما أقْطَعُ له قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»** (١).

---

(١) صحيح البخاري (٧١٨٥).

فحتى إن حَكَم القاضي لهذا الشخص الذي ألحن القول وأتى بالأدلة وهو يعلم أنه على باطل فإنّ حكم القاضي لا يحل حرامًا ولا يحرم حلالًا، فليس معنى حكمه أن ما أخذته من حرام قد أصبح حلالًا لك!

{لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: لا تخاصموا بها إلى الحكام لتأكلوا طائفة من أموال الناس بالجور والظلم المتعمد وأنتم تعلمون أنه ذنب! {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} توبيخ؛ لأن الإنسان الذي يعصي الله على علم يختلف حكمه عن حكم الجاهل كما بيّنا في حال اليهود.

وختم الآية بهذا التوبيخ لمن يأكل أموال الناس بغير حق.

إشكال: قال في بداية الآية {ولا تأكلوا} ثم قال {لتأكلوا} فكيف يعلل الحكم بنفس الحكم؟

الرد: اللام في {لتأكلوا} ليست للتعليل بل اللام هنا للعاقبة. فالمعنى: لا تأكلوا أموال الناس لأن العاقبة هي أكل فريق من أموال الناس بالباطل، وذلك كقوله تعالى في شأن آل فرعون: {فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} اللام هنا للعاقبة؛ فلم يلتقطوه لهذه العِلة، ولكن كانت هذه هي العاقبة: أنه أصبح لهم عدوًّا وحزنًا.

قوله تعالى: { يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟

ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٨٩﴾} الإجابة بكلمة (قل) تعني أن السؤال وقع.

سؤال: هل السؤال هنا عن الغاية والحكمة، أم السؤال عن السبب والعلة؟

الجواب: السؤال عن الغاية والحكمة يقينًا، وليس عن السبب والعلة؛ فالسؤال هنا من الصحابة عن الحكمة للهلال: هل له حكمة ونفع في أمور الدين؟ وليس عن ذات الهلال وهيئته. والسبب أن القمر لم يكن جديدًا على عهد الصحابة حتى يسألوا عنه. والحكمة هنا أن للقمر نفعًا للناس في أمور دينهم لقوله تعالى {قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ} ويؤيد هذا القول أكثر من موضع في القرآن منها: {هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ.. ﴿٥﴾} [يونس]؛ فدلّ ذلك على أن الله جعل الشمس والقمر لتقدير عدد السنين والحساب.

{قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ} أي أن هذا القمر يظهر للناس على هذه الهيئة لنفعهم في دينهم، والمضاف محذوف تقديره (مواقيت لأعمال الناس) التي منها حساب الأشهر والصيام والزكاة والكفّارات وعدة المعتدة وغيرها.

- عطف الحج على الناس من باب عطف الخاص على العام؛ فالحج من أعمال الناس، وذلك لبيان الأهمية؛ فالناس تحتاج إلى

توقيت الحج بعد أن كان أهل الجاهلية ينسأون في بعض السنوات فكانوا يؤجِّلون أشهر الحج فيحج الناس في أي وقت! فأبطل الله تبارك وتعالى أعمال الجاهلية هذه، وبذلك يتم تحديد أشهر الحج من خلال الهلال.

{وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ}
سبب نزول الآية كما جاء في (البخاري) من حديث البراء بن عازب ﷺ: (نَزَلَتْ هذِه الآيَةُ فِينَا؛ كَانَتِ الأنْصَارُ إذَا حَجُّوا فَجَاؤُوا، لَمْ يَدْخُلُوا مِن قِبَلِ أبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، ولَكِنْ مِن ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ فَدَخَلَ مِن قِبَلِ بَابِهِ، فَكَأنَّهُ عُيِّرَ بذلكَ، فَنَزَلَتْ الآية).

وهذا الفعل كان من أفعال الجاهلية؛ لذلك نزلت الآية وأبطل الله بها هذا الفعل،و بيَّن للناس أن التقرب إلى الله يكون بشرع الله.

ملحوظة هامة:

أي عمل يَتَقَرَّب به العبد إلى الله دون أن يشرعه الله ورسوله ﷺ فهو بدعة، وهذا هو ضابط البدعة والسنة.

{ٱتَّقَىٰ} أمر الله تبارك وتعالى عباده أن يحصلوا على مقصودهم بأسهل الطرق المشروعة دون تعنت أو ابتداع.

*ولم يُذكر في هذه الآية مَن المتقي، فقد سبق ذكرها في قوله تعالى { وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ..} الآية.

- **وقيل**: في الآية حذف، البعض قدَّره بـ (ولكن ذا البِرّ مَن اتقى) وقيل أيضًا: (ولكن البِرَّ بِرُّ مَن اتقى). والآية بها معانٍ كثيرة من فعل الطاعات على مراد الله دون بدعة.

{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} التقوى تُحدث في القلب رغبةً في الخير ورهبةً من الشر، وحدوثهما ناتج عن العلم واليقين، ولن تكتمل الرغبة فيما عند الله من الخير، والرهبة من الشر إلا بالعلم واليقين عن الله، فأرشد الله عباده إلى أفضل الأعمال وهي التقوى - رأس الأمر كله - فكم يحتاجها العبد وهو يسير في طريقه إلى الله تبارك وتعالى! ولذلك أمر الله بها في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

قوله تعالى: { وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾}.

الآية بها الأمر بالقتال في سبيل الله، وكان ذلك بعد هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة عندما أصبح للمسلمين قوة مادية وإيمانية لمواجهة الأعداء وقد قويت شوكتهم.

{فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ} القتال يجب أن يكون في سبيل الله؛ لأن أي قتال ليس لإعلاء كلمة الإسلام فهو ليس في سبيل الله، والعبد يكون بذلك غير مأجور عليه؛ ودليل ذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، ويُقَاتِلُ شَجَاعَةً، ويُقَاتِلُ

رِيَاءً، فأيُّ ذلكَ في سَبيلِ اللَّهِ؟ قالَ: «**مَن قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هي العُلْيَا، فَهُو في سَبيلِ اللَّهِ**»[(١)].

{ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ} تَهْيِيجٌ وإِغْرَاءٌ بالأعداء الَّذِين ليس لهم هَمّ سوى إذلال المسلمين ومحاولة إبادة الإسلام والحقد على المسلمين كما قال تعالى {وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ ﴿٣٦﴾} [التوبة].

{وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ} أي ابتداءً لا تعتدوا في أمور لم يشرعها الله في القتال مثل:

١- قتال النساء والأطفال والشيوخ الذين لم يقاتلوكم إلا إذا بدأوا هم بقتالكم.

٢- إذا أراد المسلمون فتح بلد غير مسلمة فعليهم أن يعرضوا عليهم الدين أولًا، فإن وافقوا دخلوا الإسلام، وإن رفضوا فعليهم دفع الجزية ويظلوا على دينهم، فإن دفعوا الجزية فلا يجوز الاعتداء عليهم.

٣- من صور الاعتداء أيضًا قتل الحيوانات وقطع الأشجار وتعطيل مصالح الناس والغدر بهم.

٤- من صور الاعتداء أيضًا تقطيع بعض الأعضاء من الجسم

---

(١) صحيح البخاري (٧٤٥٨).

(التمثيل بالجثث) وهو من أفعال غير المسلمين! فكل هذا من صور الاعتداء ولا يجوز للمسلمين فعل ذلك حتى وإن تمكّن المسلمون منهم.

(كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذَا أَمَّرَ أَمِيرًا علَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ في خَاصَّتِهِ بتَقْوَى اللهِ، وَمَن معهُ مِنَ المُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قالَ: **«اغْزُوا باسْمِ اللهِ في سَبيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَن كَفَرَ باللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا،..»** [(١)].

{وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ} ظاهر الآية يدل على أن الله تبارك وتعالى لم يأمر بقتال الكفار إلا إذا بدأوا بالقتال! وهذا كلام غير صحيح؛ فقد أمر الله المسلمين بفتح البلاد غير المسلمة ونشر دين الإسلام بالضوابط التي ذكرها الشرع دون اعتداء على الطرف الآخر، والدليل على ذلك: {وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ}، وقوله {فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ} وهذا أمر بالقتال ابتداءً لكن بضوابط دون اعتداء؛ فإذا دخل المسلمون لفتح بلد غير مسلمة لم يبدأوا بالحرب؛ فالبلاد بلاد الله والعباد عباد الله، والله الملك الحق أراد أن ينشر الدين ويكون للمسلمين اليد العليا، وهذه إرادة الله، يفعل ما يشاء في ملكه، وهذه

---

(١) صحيح مسلم (١٧٣١).

الإرادة ليس فيها ظلم -حاشا لله- لأنه إن لم يكن للمسلمين اليد العليا فسيقضي الكافر على المسلم كما هو الحال الآن! وهذا بسبب التفريط في دين الله الذي هو سبب ما نحن فيه.

ويبدأ فتح المسلمين للبلاد الغير مسلمة عن طريق عرض الدين على أهل البلد، فإن رفضوا فعليهم دفع الجزية والبقاء على دينهم وذلك لأن المسلم يقوم على حماية البلاد وقتال المعتدين والحفاظ على أهل هذه البلد، أما غير المسلم الموجود في هذه البلد فيدفع الجزية مقابل حماية ماله وعدم مطالبته بالقتال مع صفوف المسلمين.

- والمسلم يدفع زكاة المال، ويذهب لساحة القتال؛ يقاتل من أجل حماية البلاد، والمشرك لا يحارب ويستمتع في بيته مع أولاده.. كل هذا مقابل دفع الجزية، وهذا شيء لا يُذكَر مقابل الحماية.

من العلماء من قال إن هذه الآية نسخت بآية {فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ} وحُجة مَن قال بهذا الرأي: أن الله عندما شرّع الجهاد للعباد - وهو أمر عظيم على النفس- شرّعه بالتدريج؛ وهذا من الحكمة البالغة لله تبارك وتعالى لأن النفوس لم تكن معتادة عليه.

- كذلك أيضًا فرض الله الصيام في البداية على الاستحباب؛ فمَن أراد أن يصوم فليصم، ومن أراد أن يفطر فعليه أن يفتدي حتى جاء الأمر القاطع بفرض الصيام.

*هذا هو منهج الإسلام في التشريع ليتم تَقَبُّل شرع الله واستيعاب النفوس لأمر الله.

فائدة:

عند الدعوة إلى الله يجب استعمال نهج القرآن؛ وهو التدرج، فمهلًا يا أهل الإسلام في الدعوة لمن هم في بداية الطريق كي لا ينفروا من الدين!! نريد إقبال الناس على الدين وليس النفور.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ
أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ
فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢
وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى
ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ
فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ
١٩٤ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا
تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ
فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا
ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ
تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦ ﴾

{ثَقِفْتُمُوهُمْ} قال الطبري: (ومعنى الثِّقْفَة بالأمر الحِذق به والبصر، يقال: إنه لَثَقِفٌ لَقِفٌ، إذا كان جيد الحَذر في القتال، بصيرًا بمواقع القتل. وأما «التَّثْقيف» فهو التقويم. فالمعنى: {واقتلوهم حيث ثقفتموهم} اقتلوهم في أي مكان تمكنتم من قتلهم، وأبصرتم مقاتلهم). فأرشد الله تبارك وتعالى المسلمين أن يقتلوا المشركين حيث وجدوهم.

{وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُم} معلوم أن المسلمين كانوا يعيشون في مكة وأن الكفار كانوا سببًا في إخراجهم من أرضهم وديارهم وتجارتهم.

- فعندما ظهر النبي ﷺ وصدع بالحق اعترض المشركون ولاقى المسلمون ما لاقوا على مدار ثلاثة عشر عامًا وهم صابرون ويجاهدون، ولم يأذن الله تبارك وتعالى وقتها بالقتال في مكة فتحملوا ألوان العذاب والشقاء من هؤلاء المجرمين.

- ومعلوم قصة تعذيب الكفار للمسلمين في مكة، فأمر الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ رحمة بعباده بالهجرة إلى المدينة ومعه الصحابة، فهاجروا على فترات، لكنهم تركوا أموالهم وديارهم، بل منهم مَن ترك أولاده! فكان الأمر في غاية الصعوبة؛ فكان النبي ﷺ حزينًا جدًّا وقال: «**عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ**

عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[١] وكان عظيمًا على نفوس المسلمين أيضًا.

فأراد الله أن يرد إليهم أموالهم وديارهم فأمر النبي ﷺ بفتح مكة عام ثمانية هجرية بقوله تعالى {وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ} فهذه الديار هي دياركم في الأصل، والمشركون هم من أخرجوكم منها ابتداءً، فأخرِجوهم منها مثل ما أخرجوكم من مكة.

{وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ} الفتنة معلوم في اللغة أنها هي الابتلاء والاختبار.

*وأما في الآية فلها أكثر من معنى عند العلماء:

١- هي إقدام الكفار على تخويف المسلمين وتشريدهم وإخراجهم من ديارهم، وهذه فتنة عظيمة أشد من القتل؛ أي أنه بالرغم من أن القتال قد ينتج عنه قتل بعض المسلمين في مواجهة الكفار إلا أننا إذا نظرنا في المفاسد والمصالح الناتجة عن القتال فسنجد أن مفسدة قتل بعض المسلمين أَخَفُّ عليه من الفِتْنَةِ.

٢- من العلماء من قال: إن الفتنة هي صدّهم عن المسجد الحرام، فالقتال عند المسجد الحرام لا يجوز، ولكن الفتنة هنا هي صد المسلمين عن الصلاة في المسجد الحرام ومنعهم من أداء

---

(١) مسند أحمد (١٨٧١٧).

مناسك الحج، وهي أعظم من القتال عند المسجد الحرام.

٣- من العلماء من قال: إن الفتنة هي أن يضغط الكفار على المسلمين لردّهم عن دينهم: سواء بالضغط المادي أو المعنوي أو التشكيك في الدين، وهذه أعظم فتنة على الإطلاق، ولا تعادلها فتنة القتل.

فائدة:

لا بد أن ننتبه أن الغزو الفكري هو أشد من الغزو بالسلاح والمعدات، وقد أيقن العدو هذا، وعلم أنه عندما يدخل بلدًا مسلمة تكون خسائره عظيمة؛ لأن المسلم يدافع عن بلده بعقيدة قوية ويواجه بكل قوة، لكن الغزو الفكري لبلاد المسلمين أقوى من الغزو بالسلاح والمعدات؛ حيث يؤدي إلى جعل المسلم صورة من الغرب في التلبس بالأفكار الرديئة وغيرها.. وهذا وللأسف الغالب على المسلمين الآن إلا من رحم ربي.

{وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ} هل الآية هنا محكمة أم منسوخة؟ للعلماء في هذه المسألة قولان:

القول الأول: إن الآية منسوخة بقوله تعالى {فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ} في سورة التوبة؛ أي أن القتال في كل مكان كما جاء في البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دخَلَ مَكَّةَ عامَ الفتحِ وعلى رَأسِه المِغْفَرُ فلمَّا نَزَعَه، جاءه رَجُلٌ وَقَالَ: ابنُ

خَطَلٍ متعلِّقٌ بأستارِ الكَعبةِ. فقال: «**اقْتُلُوه**»[١]. واستدلوا بذلك على أن الآية منسوخة؛ لأن النبي ﷺ أمر بقتل الرجل وهو في مكة.

القول الثاني: إن الآية ليست منسوخة، وأما آية {فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ} فهي نَص عام، وآية {وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ} نص خاص، ومعلوم أن العام لا ينسخ الخاص، وإنما يُستثنى الخاص من العام، والقتال ليس على الإطلاق، وإنما نقاتلهم إذا تواجدوا عند المسجد الحرام، فلا يُقاتَلوا إلا إذا بدأوا هم أولًا بقتال المسلمين.

*واستدلوا أيضًا بحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قالَ يَومَ فَتْحِ مَكَّةَ: «**إنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يومَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأرْضَ، فَهو حَرَامٌ بحُرْمَةِ اللَّهِ إلى يومِ القِيَامَةِ، وإنَّه لَمْ يَحِلَّ القِتَالُ فيه لأَحَدٍ قَبْلِي، ولَمْ يَحِلَّ لي إلَّا سَاعَةً مِن نَهَارٍ، فَهو حَرَامٌ بحُرْمَةِ اللَّهِ إلى يَومِ القِيَامَةِ، لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، ولَا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، ولَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إلَّا مَن عَرَّفَهَا، ولَا يُخْتَلَى خَلَاهُ**» فَقالَ العَبَّاسُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إلَّا الإذْخِرَ فإنَّه لِقَيْنِهِمْ ولِبُيُوتِهِمْ، قَالَ: «**إلَّا الإذْخِرَ**»[٢]. فهذا الحديث عمدة في المسألة: أن الله حرّم القتال في مكة إلى يوم القيامة غير ساعة من النهار (والساعة هي قطعة من الوقت).

---

(١) صحيح البخاري (١٨٤٦).
(٢) صحيح البخاري (٣١٨٩).

- والرد على حديث أن النبي ﷺ أمر بقتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة؛ فقد كان في الساعة التي أحل الله للنبي ﷺ القتال في مكة وليس على العموم؛ لأن هذه الحادثة كانت في فتح مكة وهذا هو الراجح في المسألة والله تعالى أعلى وأعلم؛ أن الآية خاصة، وآية سورة التوبة عامة، ويستثنى الخاص من العام.

قوله تعالى: {فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٢}.

أي إذا انتهوا عن قتالكم وتابوا ورجعوا إلى الله فلا تقاتلوهم واعفوا عنهم فإن الله غفور رحيم، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها.. والله يقبل توبة التائب، وكم من مشرك كان معاديًا للدين وللنبي ﷺ ثم أسلم وتاب بعد ذلك مثل: خالد بن الوليد وأبو سفيان وغيرهما.

قوله تعالى:{ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣}.

{وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ} أكثر أهل العلم على أن المقصود بالفتنة هنا (الشرك) ويؤيد هذا القول حديث النبي ﷺ: **«أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَقُولُوا: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، فمَنْ قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، عَصَمَ مِنِّي مالَهُ ونَفْسَهُ إلَّا بحَقِّهِ، وحِسابُهُ علَى اللَّهِ»**(١).

- وأيضًا حديث ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلَانِ في فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالَا: إنَّ النَّاسَ صَنَعُوا وأَنْتَ ابنُ عُمَرَ، وصَاحِبُ ﷺ، فَما يَمْنَعُكَ أنْ

---

(١) صحيح مسلم (٢١).

تَخْرُجَ؟ فَقَالَ: يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ دَمَ أَخِي. فَقَالَا: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ}، فَقَالَ: قَاتَلْنَا حتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ، وكانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ، ويَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ»[(١)].

{وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ} المراد بالدين هو دين الله، وأن العبادة تكون لله، ولا يكون هناك شرك ولا أوثان في مكة وغيرها.. وهذا أمرٌ من الله تبارك وتعالى أن يقاتلوا المشركين حتى يصبح المعبود الواحد جل جلاله هو الله، وتضمحل عبادة غير الله من الأنداد والأوثان التي نهى الله عنها وهذا تعليل للقتال: أن يكون الدين لله.

{فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ} اللفظ هنا عام.

سؤال: سُمي القتل عدوانًا مع أنه حق، وأن الله تبارك تعالى أمر به، فلماذا؟ الجواب: قال العلماء: إن هذه الآية من آيات المشاكلة؛ وهي التي يقع فيها اللفظ مماثلًا للفظ آخر في المعنى ليعطي نفس العقوبة دون زيادة ولا نقصان وليس المقصود به شيئًا سيئًا؛ أي أن لفظ العدوان جاء هنا؛ لأن المشركين اعتدوا عليكم من قبل فكان التعبير بكلمة العدوان للمماثلة والمشابهة، وذلك مثل قوله تعالى {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ}.

قوله تعالى: { ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ

---

(١) صحيح البخاري (٤٥١٣).

فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾}.

الآية استئناف بياني؛ لأن الله عز وجل لما عمّم الأماكن بالقتال وبيّن للمسلمين أنهم يستطيعون قتال المشركين في أي مكان، واستثنى من ذلك (البلد الحرام)، أراد أن يبيّن لهم الأزمنة المستثناة من القتال: فبيّن أنها هي الأشهر الحرم.

{ٱلشَّهۡرُ} الشهر هنا للجنس وليس للعهد.

{ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ} الأشهر الحرم عددها أربعة كما جاء في قوله تعالى {إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ.. ﴿٣٦﴾} [التوبة].

*وتفصيل الأربع أَشْهُر جاء في السُّنة في حديث أبي بكرة رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ الزَّمانَ قَدِ اسْتَدارَ كَهَيْئَتِهِ يَومَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَواتِ والأرْضَ، السَّنَةُ اثْنا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْها أرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثٌ مُتَوالِياتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وذُو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ، مُضَرَ الذي بيْنَ جُمادَى، وشَعْبانَ»**(١).

{وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ} أي أن مراعاة حرمة الشهر واحترام هذه الأشهر واجب، لكن إذا اعتدى عليكم أحد وهتك حرمة هذه الأشهر فلكم أن تردوا الاعتداء عليه؛ أي المماثلة في الجزاء مع الانتصاف،

---

(١) صحيح البخاري (٤٦٦٢).

ولكن لا يبدأ المسلمون بقتال الكفار ولا فتح البلاد غير المسلمة في هذه الأشهر الحرم كما جاء في السنة عن جابرٍ: «لم يكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ يغزو في الشَّهرِ الحرامِ إلَّا أن يُغْزَى».

وهناك وجه آخر للآية: قيل: الشهر الحرام المقصود به (صلح الحديبية) الذي كان فِي سَنَةِ سِتٍّ مِنَ الْهِجْرَةِ، وحَبَسَ المشركون المسلمين عن الدُّخول إلى البيت، وكان ذلك في ذي القعدة، وهو شهر حرام؛ فالله يسلي المؤمنين بأنهم رجعوا دون حج في صلح الحديبية وأنهم سيدخلون مكة ثانية في الفتح أيضًا في الشهر الحرام.

إذًا على وجه العموم الأشهر الحرم لا يجوز فيها القتال إلا إذا بدأ المشركون بقتال المسلمين أولًا فيردوا عليهم للقصاص.

{فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ} هذه الجملة تفريع على {والحرمات قصاص} أي أنه إذا اعتدى عليكم أحد فاعتدوا عليه للقصاص في ذلك الوقت، فالجملة نتيجة الاعتداء عليكم، ولذلك قال العلماء: إنها من الفذلكة، وتسمية جزاء الاعتداء اعتداءً من باب المشاكلة.

{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ} أمر من الله بالتقوى؛ فهو سبحانه {مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ} وهي معية رعاية وحفظ وعناية وذلك بالتأييد والنصر، وليست معية ذات لأن الله عز وجل مستوٍ على عرشه.

سؤال: في هذه الآيات أمرنا الله عز وجل بأخذ الحق، وكذلك في القرآن آيات كثيرة ترشد للقصاص، ولكن هناك أيضًا آيات أخرى ترشد إلى العفو مثل قوله تعالى ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ٣٤﴾ [فصلت] فكيف يكون ذلك؟ الجواب: للعلماء هنا قولان:

- إن الله شرّع للعباد القصاص والانتصاف بدون تعدٍّ، وأرشد العباد للأفضل من ذلك وهو ترك هذا الأمر، والعفو فهذا أفضل بكثير، قال تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل].

*ولكن هذا الكلام ليس على الإطلاق؛ لأن هناك مواقف لا يصلح فيها العفو فقد يترتب على العفو في بعض الأحيان مفسدة من ضياع بعض الحقوق أو تمادي الظالم في ظلمه؛ مثال: شخص اشتهر بالكذب والنصب وأكل أموال الناس بالباطل! هنا لا يصلح العفو؛ لأن العفو يجعله يتمادى في الباطل فالأمر يحتاج إلى حِكمة ودراية.

والأمر بالتقوى في الآية؛ لأن من طبيعة الإنسان حب الانتصار للنفس والانتقام فحذّر الله من هذا وأمر عباده بالتقوى.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى

ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾}.

{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} يأمر الحق سبحانه وتعالى عباده في هذه الآية بالإنفاق في سبيله (إخراج الأموال) وإخراج هذه الأموال ينبغي أن يكون في كافة الطُّرق الموصلة لرضا الله عز وجل، وبالتالي فهي ليست قاصرة على بابٍ دون باب، لكن أعلى أوجه الإنفاق هو بذل المال في الجهاد في سبيل الله، وهذا من أعظم المصالح التي ينبغي على الإنسان أن يُجاهد نفسه ويُنفق فيها.

- والجهاد في سبيل الله بالمال أساسٌ؛ لأن انعدام المال يؤدي إلى انعدام القدرة على شراء السلاح ومِن ثَمَّ عدم القدرة على مواجهة العدو!

{وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ} الإلقاء: قذف الشيء وطرحه. وعُدي بـ (إِلَى) لتضمن معنى الانتهاء؛ أي أن هذه المسألة ستكون نهايتها الهلاك.

{بِأَيۡدِيكُمۡ} الباء زائدة لتأكيد المعنى؛ والمقصود بها هنا الأنفس ولكن ذُكِر الجزء وأُريد به الكُل (مزيد اختصاص) لأن أكثر أفعال العباد تكون بالأيدي.

وجملة {وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ} تعليل.

وللعلماء أقوال في معنى (الإلقاء باليد إلى التهلكة):

١- أخرج البخاري في كتاب التفسير: عند قول الله

تعالى{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} قال حذيفة بن اليمان: نزلت في النفقة.

٢- عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيّ، قَالَ: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ المُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى الجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ. فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَتُؤَوِّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلَاحَهَا وَتَرْكَنَا الغَزْوَ، فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ»[(١)].

*فقد كان أبو أيوب الأنصاري الصحابي الجليل يعلم حكم الجهاد، وبالتالي لن يتخاذل ولن يُقصِّر في الجهاد - حاشاه فهو

(١) سنن الترمذي (٢٩٧٢).

صحابي جليل-، ولقد فهم الأنصار الآية خلاف فهم أبي أيوب؛ فإنهم جاهدوا وفعلوا الكثير من الأعمال، وأنفقوا الكثير من الأموال في سبيل الله، ويمكنهم الآن بعد أن عزَّ الإسلام وكثُرَ ناصروه أن يعودوا لحياتهم فيصلحوا أموالهم، ولكن عندما نزلت الآية فسّر أبو أيوب الأنصاري (الإلقاء بالأيدي إلى التَّهلُكةِ) أن الهلاك هو (الإقامة على الأموالِ وإصلاحها وترك الجهاد)، فلم يزَلْ أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه يُجاهد في سبيل الله لا يتركه حتَّى دُفِن بِأرض الرُّوم وهو يقاتل في سبيل الله تعالى.

ملحوظة: حكم الجهاد فرضُ كفاية؛ إذا قام به البعض فإنه يسقط عن الآخرين، والجهاد لا يُصبح فرض عين إلا في حالات قليلة جدًّا.

٣- روى الإمام الطبري بسند صحيح أن البراء بن عازب رضي الله عنه قال في هذه الآية: هو الرجل يُصيبُ الذنوبَ فيُلقي بيده إلى التهلكة، يقول: لا توبة لي.

*وبإمعان النظر فيما أورده الإمام البخاري والإمام الترمذي والإمام الطبري نجد أن معنى هذه الآية يشمل كل شيء وليس فقط الامتناع عن الجهاد، بالفعل أعلاه أن يمتنع الإنسان عن الجهاد وهو فرضٌ عليه (فتلك مصيبة كبرى) لكن الأمر يندرج تحته كل شيء.

- فلا تترك يا عبد الله أمرًا واجبًا وتُعرِّض نفسك لسخط الله، ولا

تأخذ نفسك لمكان فيه هلاك فتُعرّض روحك وبدنك للتلف (الأمور التي بها مخاطرة بالنفس لا تجوز، وهي محرمة شرعًا).

*إذن الآية تشمل كل باب يمكن أن يؤدي إلى هلاك النفس حيث أنها لم يرد فيها تخصيص، وقد سبق القول أن: اللفظ إذا احتمل عدة معانٍ ليس بينها تضاد فالأولى أن نحمل هذا اللفظ على كل المعاني ولا نُخصص إلا بدليل، وهذه قاعدة معلومة عند جمهور الأصوليين: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

{وَأَحۡسِنُوٓاْۚ} هذا الأمر الإلهي يشمل جميع أنواع الإحسان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تعليم الناس العلم النافع، قضاء حوائج المسلمين، تفريج الكربات ،عيادة المريض، تشييع الجنازة، كل وجوه القربات تُعد من أنواع الإحسان).

- وعلى رأس كل تلك الأنواع من الإحسانِ الإحسانُ في عبادة الله عزَّ وجل:

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عندما سأله جبريل عليه السلام **(قَالَ: فأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَراهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ**[١]. فعلينا أن نُراقب أقوالنا وأفعالنا وأن نُراقب الله تبارك وتعالى.

{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ} الله جلَّ جلاله يُحب الشخص

(١) صحيح مسلم (٨).

المحسن، ومتى أحب الله العبد أكرمه غاية الإكرام وأيّده وأعزّه وأعلاه ونصره وأغناه.

وقفة:

على القارئ لكتاب الله أن ينتبه لتلك الوقفات في القرآن؛ لأن ذلك يحمل القلوب على فهم المعاني؛ فيتأمل كيف أن الله تبارك وتعالى حين تكلم عن الاعتداء قال: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} حتى يُنَفِّر النفوس من الاعتداء بكل صوره، فشعور العبد أن الله لا يحبه أمرٌ صعب وشديد جدًّا على النفس، وعندما أصبح الكلام عن الإحسان قال:{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} فلا تبخل أيها العبد على العباد بالعطاء لأن هذا العطاء يقود العبد إلى حب الله سبحانه، وهنا يعجز اللسان عن التعبير بالكلمات عن شعور الإنسان إذا ما تيقن من حب الله له.

قوله تعالى:{ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦}.

{وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ} ما هو سبب التقييد والتخصيص بـ (لله)؟ بمعنى آخر: عندما يتكلم الله عز وجل عن الصلاة أو الزكاة أو الصيام لم يقُل (لله) فلماذا عندما تكلم سبحانه عن الحج قال (لله)؟ من المعلوم أن الأعمال كلها لله لكن هذا التخصيص أو التقييد مع عبادة الحج؛ لأن العرب كانت تقصد بالحج الاجتماع والتظاهر والتفاخر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق، وكل ذلك ليس لله فيه طاعة!! بل إنهم كانوا يُقدّمون بعض أعمال الحج للأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله!! فيشركون في إحرامهم ويقولون: لَبَّيْك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملكك!!

فنهى الله سبحانه وتعالى عن كل هذه الأعمال البغيضة من أفعال الجاهلية، وأمر الله سبحانه المسلمين بالقصد إليه وحده (لله) لأداء فرضه وقضاء حقه وأن تكون أحوالهم ونواياهم لله سبحانه، ثم تجاوز عنهم في أمور التجارة فقط.

لكن ما المقصود بالإتمام هنا؟ للعلماء في هذا الأمر قولان:

١- المقصود هو أداء الحج والعمرة كما ينبغي.

٢- المقصود هو إتمام الحج والعمرة وعدم الخروج منهما، وهذا من باب {وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} فإذا تَلَبَّس العبد بمنسك الحج والعمرة فعليه أن لا يخرج منه بـ (أفعال شنيعة ،ارتكاب محظور يُبطِل الإحرام،ترك ركن من الأركان).

سؤال: هل يوجد في الآية دليل على وجوب العمرة؟

الراجح من أقوال أهل العلم أنها ليست واجبة؛ لأن الآية لا يوجد فيها دليل على وجوب العمرة، لكن الأمر إجمالًا جاء بإتمام العمل إذا بدأ وعدم تركه أو التراجع عنه. ومن احتج بأنها واجبة لاقترانها بالحج (وهو واجب) قوله غير صحيح؛ لأن الحج ورد فيه دليل خاص في القرآن قال سبحانه: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾ [آل عمران]؛ كما أن السنة أيضًا بها أدلة على وجوب الحج. إذن الاستدلال على وجوب العمرة لأنها اقترنت بأمر واجب استدلال ضعيف.

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ الإحصار هو المنع، وللعلماء في هذا المنع أقوال:

١ـ **القول الأول:** يتضمن كل مانع يمنع العبد من الوصول لأداء المناسك في مكة أيًّا كان هذا المانع فهو يشمل الجميع، وذلك كما حدث مع النبي ﷺ وأصحابه ﷺ في العام الذي عُقِدَ فيه صلح الحديبية.

٢ـ **القول الثاني:** يُقْصِر الإحصار على العدو فقط.

٣ـ **القول الثالث:** يُقصره على المرض.

الأَوْلَى أن الإحصار كلمة أُطلقت؛ واللفظ إذا أطلق لا يُقيد إلا

بدليل، وبناء عليه إذا حصل إحصار للعبد ولم يستطع الوصول لأداء المناسك لأي سبب كان فعليه ما استْيسر من الهَدْي.

{فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ} هنا محذوف مُقدر؛ فالمعنى: (الواجب عليكم إن أُحصرتم ما استيسر من الهدي)، أو (انحروا ما استيسر من الهدي إن أُحصرتم)، أو (فإن أُحصرتم فاهدوا ما استيسر من الهدي).

*الخلاصة: هناك قول محذوف، وفائدة الحذف الاختصار وهذا الاختصار يُكون له وقع جميل على الأسماع والقلوب.

سؤال: ما الواجب إهداؤه عند الإحصار حتى يتحلل العبد من إحرامه؟

الجواب: أقله شاة؛ فقد ورد عن ابن عباس من أكثر من طريق بأسانيد صحيحة أنه قال في قول الله تعالى: {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} (شاة). والشاة تشمل: الماعز والضأن. وَعَنْ عَائِشَةَ ﭬ: **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَهْدَى مَرَّةً غَنَمًا، وَقَلَّدَهَا**[١].

{وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ} هذا الجُزء من الآية علامَ عُطف؟ هل جاء العطف على أول الآية {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} أم أنه جاء على الجزء القريب منه {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} ؟ للعلماء قولان:

(١) سنن النسائي(٢٧٨٧)، وصححه الألباني.

القول الأول: هذا الجزء معطوف على الجزء القريب منه {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}.

القول الثاني: قيل إنه معطوف على {وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ}.

والراجح هو القول الثاني ولكن لماذا؟ لأن النبي ﷺ حين أُحصِر هو وأصحابه ومُنعوا من الوصول إلى البيت في عام الحديبية قام بذبح الهدي، وقص شعره، وتحلّل في مكانه في الحديبية (فالهدي لم يبلغ محله).

*والمقصود بالمحل: المكان الذي يتحلل فيه المُحرم من إحرامه. وما هو المكان الذي يمكن للمحرم أن يتحلل فيه؟ المكان الذي يبلغ فيه الهدي؛ فقيل إنه: (الحرم) قال تعالى:{ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣} [الحج]. وقيل: المحل هو المكان الذي أُحصر فيه الشخص أيًّا كان، وفي هذه الحالة يقوم بذبح الهدي (قول جمهور العلماء) واستندوا في ذلك إلى فعل النبي ﷺ وصحبه الكرام فقد قدّموا الهدي في مكان الحِل (حيث أُحصروا) وليس الحرم.

ومن أقوى الأدلة أيضًا التي استند إليها أصحاب هذا القول قوله تعالى:{ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي

رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ [الفتح].

ومن المعروف أن النبي ﷺ وأصحابه لم يبلغوا بما كان معهم من الهدي محله؛ أي المكان المفترض أن يُذبح فيه ولكنهم ذبحوا في المكان الذي أُحصروا فيه.

سؤال: الشخص الذي أراد أن يتحلل ماذا عليه أن يفعل؟ يقص شعره أم يحلق رأسه؟

كلاهما جائز، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ؟، قَالَ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ؟، قَالَ: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَلِلْمُقَصِّرِينَ؟ قَالَ: «**وَلِلْمُقَصِّرِينَ**»[1]. الشاهد: قوله «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُحَلِّقِينَ**» ثلاثًا، ثم بعد الإلحاح قال: «**وَلِلْمُقَصِّرِينَ**» فدلَّ ذلك على أن الحلق أفضل من التقصير في الحج والعمرة.

سؤال: هل يمكن للإنسان أن يشترط في الحج أم لا، وما هي صفة الاشتراط؟

الجواب: عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ لَهَا: «**لَعَلَّكِ أَرَدْتِ الحَجَّ؟**» قَالَتْ: وَاللَّهِ لاَ

---

(١) متفق عليه.

أَجِدُنِي إِلَّا وَجِعَةً، فَقَالَ لَهَا: «**حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي**» وَكَانَتْ تَحْتَ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ(١).

*(ضباعة) بنت الزبير بن عبد المطلب بنت عم رسول الله ﷺ. *(محلي) مكان تحللي من الإحرام. *(حيث حبستني) هو المكان الذي قدرت لي فيه الإصابة بعلّة المرض وعجزت عن الإتيان بالمناسك.

والمعنى: أن رسول الله ﷺ أمرها بعدم التكاسل عن الحج، وأن تأخذ بالأسباب، ولكن عليها أن تقول: «اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي».

ما هو المقصود بتلك الجملة «اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي»؟

المقصود هو: لو أن شخصًا مريضًا أراد أداء المناسك فقال هذه العبارة ثم خرج قاصدًا البيت الحرام (أي: تلبس بالإحرام، ومتى بدأ فلا يجوز له أن يتحلل إلا بعد الذبح وأداء المناسك هذا بالنسبة للحج) فاشتد عليه المرض فيما بعد، ولم يستطع الوصول إلى مكة، ففي هذه الحالة يُمكنه أن يتحلّل بدون ذبح.

- وهذا بخلاف الإحصار: فلو أن شخصًا أُحصر بعدو أو بمرض أو بأي سبب فلم يستطع الوصول إلى البيت الحرام فالواجب عليه أن يذبح هديًا في محله الذي أُحصر فيه، وإذا تمكّن من إرسال هذا الهدي إلى مكة كان بها، وإن لم يتمكن فلا شيء في ذلك، أما

(١) متفق عليه.

المُشترط فيمكنه أن يتحلل بدون إراقة الدم.

{فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} حكم آخر تضمنته هذه الآية: حيث بيَّن الله عز وجل حال المريض بمرض سبَّب له أذى جعله يرتكب محظورًا من محظورات الإحرام التي تُوجب إخراج فدية مثل: (الطِّيب، قص الأظافر، قص الشعر، ارتداء غير ملابس الإحرام بالنسبة للرجل، ارتداء القُفازين للمرأة).

ملحوظة هامة: الأحكام الواردة في الآية تقصد بيان محظورات الإحرام التي لو ارتكبها شخص يمكنه أن يُخرج فدية، وهذا بخلاف المحظورات التي تُبطل الحج (كالجماع مثلًا).

ما هي تلك المحظورات التي إذا وقع فيها الشخص وجب عليه إخراج فدية؟ عن كَعْب بْن عُجْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: وَقَفَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالحُدَيْبِيَةِ وَرَأْسِي يَتَهَافَتُ قَمْلًا، فَقَالَ: «**يُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ؟**»، قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَاحْلِقْ رَأْسَكَ**، أَوْ - قَالَ: **احْلِقْ** -»، قَالَ: فِيَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ} [البقرة: ١٩٦] إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**صُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ بَيْنَ سِتَّةٍ، أَوْ انْسُكْ بِمَا تَيَسَّرَ**»(١). وفي رواية مسلم: «**أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ بَيْنَ سِتَّةِ مَسَاكِينَ، أَوْ انْسُكْ مَا تَيَسَّرَ**».

(١) أخرجه البخاري (١٨١٥).

وللحديث متون عدة كلها تخلُص إلى أن الإنسان إذا اضطُر إلى ارتكاب محظور من محظورات الإحرام التي تستوجب فدية الأذي فعليه أن يُخرج هذه الفدية وهي (صيام ثلاثة أيام، إطعام ستة مساكين؛ الواحد منهم له نصف صاع، ينسك أي يذبح شاة من: ماعز أو ضأن).

لفظ (أو) الوارد في الآية هل هو للتخيير أم للترتيب؟ قول جماهير العلماء: إنها للتخيير.

{وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ} هذا الجزء يتضمن مقدرًا محذوفًا فما هو؟ حتى يبلغ الهدي محله وتنحروا.. لأن المفروض أن يكون الحلق بعد النحر، وهذا هو الأفضل.

- فإذا حلق الشخص أولًا ثم نحر فهو جائز أيضًا، فلماذا؟! لأن النبي ﷺ عندما كان يُسأل في حجة الوداع كان الرد يأتي «**افعل ولا حرج**» وذلك ليُبيِّن أن المسألة فيها سِعَة.

{فَإِذَآ أَمِنتُمۡ} أمنتم من الخوف، أمنتم من العدو، أمنتم من المرض الذي منع من أداء المناسك، أمنتم من أي حائل يحول بين العبد وبين الوصول إلى البيت وأدائه للمناسك.

{فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ} الكلام هنا يتناول نُسك التمتع، ومن المعلوم أن الحج ثلاثة أنساك (تمتع، إفراد، قِرَان).

ما هو نسك التمتع؟

هو الإهلال بالعمرة في أشهر الحج، ثم يتحلل الرجل (بالتقصير أو الحلق)، والمرأة (بأخذ قدر أُنملة من شعرها) فإذا ما جاء يوم عرفة أو يوم التروية قام بأداء مناسك الحج.

وهذا الشخص الذي نَوَى أن يحج حج التمتع عليه دم {فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} وكما سبق القول أقلها شاة.

ويُطلق -في عُرف السلف- على حج القران التمتع، ونقل هذا ابن عبد البر فقال: لا خلاف بين العلماء في أن التمتع المراد به الاعتمار في أشهر الحج قبل الحج، ومن التمتع أيضًا القران فلماذا؟ قيل: لأنه تمتع بسقوط سفر ثانٍ، فالقارن حج واعتمر في نفس السَّفَرَة.

سؤال: وهل في حج التمتع ينبغي على الحاج أن يُسافر ويرجع؟

الجواب: لا، ولكن مَن أراد حج التمتع فعليه أن يؤدي العمرة ثم يتحلل، فإن أراد العودة إلى بلاده فعليه عندما يأتي وقت الحج أن يُسافر مرة أخرى إلى الحرم، وإن أراد البقاء في مكة إلى أن يؤدي مناسك الحج فله ذلك، أما القارن فلا بُد له من جمع الأعمال مع بعضها.

(قَالَ جَابِرٌ ﷺ: حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ طَوَافِهِ عَلَى الْمَرْوَةِ، فَقَالَ:

«لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ، وَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيَحِلَّ، وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً»، فَقَامَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِأَبَدٍ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الْأُخْرَى، وَقَالَ: **«دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ»** مَرَّتَيْنِ **«لَا بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ»**(١).

ما هو الهدي الذي يُجزئ عن المتمتع؟

- شاة. وإذا أراد شخص أن يذبح بدنة فيمكن أن يُشاركه فيها ستة أفراد غيره، وبالتالي تكون مُقسمة إلى سبعة أجزاء، إذن يُجزئ عن الواحد (سُبع بدنة، سبع بقرة، شاة).

وَعَنْ أَبِي جَمْرَةَ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ الْمُتْعَةِ، فَأَمَرَنِي بِهَا، وَسَأَلْتُهُ عَنِ الهَدْيِ، فَقَالَ: «فِيهَا جَزُورٌ أَوْ بَقَرَةٌ أَوْ شَاةٌ أَوْ شِرْكٌ فِي دَمٍ»(٢).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، قَالَ: **«نَحَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ الْبَدَنَةَ عَنْ سَبْعَةٍ، وَالْبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ»**(٣).

وعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مُهِلِّينَ بِالْحَجِّ: **«فَأَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نَشْتَرِكَ فِي الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ، كُلُّ سَبْعَةٍ مِنَّا فِي**

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٢) أخرجه البخاري (١٦٨٨).
(٣) أخرجه مسلم (١٣١٨).

بَدَنَةٍ»[١].

{فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} شخص فقير لا يملك المال وخرج للحج (حج تمتع)، فأراد التمتع ولكنه لا يملك المال ليذبح (شاة أو سُبع بقرة) فماذا عليه أن يفعل؟ الرحمن الرحيم سبحانه جعل في الأمر سعة فقال: {فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} أي فمن لم تكن لديه الإمكانية المادية ليذبح فلديه رخصة (صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة أيام حين يعود إلى بلده)، والأيام الثلاثة تبدأ من وقت الإحرام بالعمرة إلى آخر أيام التشريق.

-**وقيل**: الأيام (السادس والسابع والثامن من مِنى).

-**وقيل**: (السابع والثامن والتاسع).

-**وقيل**: منذ الإهلال بالحج إلى آخر يوم عرفة.

الأقوال كثيرة في هذه المسألة ولكن أرجحها هو: من وقت الإحرام إلى آخر أيام التشريق.

{تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ} من المعلوم أن الثلاثة إذا جُمعت مع السبعة يكون الناتج عشرة؛ فلماذا خُتمت تلك الجزئية بقوله سبحانه {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ}؟

---

(١) أخرجه مسلم (١٣١٨).

قال العلماء: إن هذا يرجع لأوجه:

١- جاء هذا للتأكيد وتلك هي طريقة العرب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين، والأمثلة المُشابهة لذلك كثيرة مثل قول الحق سبحانه: { وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾} [العنكبوت] فمن المعلوم أن الكتابة تكون باليمين. وقال سبحانه:{ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةًۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾} [الأعراف].

٢- **وقيل**: إنها خبر ومعناه الأمر؛ أي لا بُد أن تصوموا هذه العشرة كاملةً.

٣- **وقيل**: دفعًا للتوهم؛ فقد يظن شخص غير مُلِم باللغة أن الواو للتخيير {وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ} فالأفهام مختلفة، ولكن الله عز وجل أراد بيان هذه المسألة فجاء بعدها {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ}.

{ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ} أجمع العلماء على أن المعنيين بهذه الآية على وجه الخصوص هم أهل الحرم.

- ومن العلماء مَن قال: إنه يدخل مع النوع الأول مَن يعيشون على مسافة من الحرم ولكن هذه المسافة لا تصل إلى مسافة السفر، فلأهل هذه المناطق أحكام مختلفة (الحرم والمنطقة التي تُحيط به) لا

يدخل فيها أحكام الهدي التي سبق ذكرُها.

{وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} أي لا تتجاوزوا حدود الله بالوقوع في الأخطاء، وراقبوه عند القيام بالمناسك، والأمر بتقوى الله أمر عام ولكن المناسبة هنا أنها جاءت خاصة بمناسك الحج، فاحذر يا عبد الله من الأخطاء التي يمكن أن تُفسد عليك حجك؛ فالله سميع وبصير ورقيب على العباد، وهو عليم خبير بالأحوال والأقوال والأفعال.

{وَٱعۡلَمُوٓاْ} تُشير إلى أن هناك تنبيهًا! وأن ما سيأتي أمرٌ هام (وكان السلف كثيرًا ما يذكرونها في كُتبهم)، وبالتالي على الإنسان حين يسمعها أن ينتبه لما سيُقال بعدها.

{أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ} عقابه شديد لكل مَن انتهك محارمه، وعلى كل عاقل أن يقف عند هذه الكلمة وقفة طويلة ويتزلزل قلبه من الخوف؛ لأن القول بأن العقاب سيكون شديدًا آتٍ من الله، فالقول فيه تهديد وتحذير وتخويف للعباد، فانتبهوا يا عباد الله! فالله شديد العقاب ولا تستهينوا بالمعاصي وتتجرأوا على اقتراف الذنوب.

.

قال الله سبحانه: ﴿ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ
فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ
يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي
ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ
فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ
ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ
ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ
ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ
ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ
رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن
يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا
عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ
ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢ ﴾

هذه الآية من آيات الأحكام؛ وبيان الأحكام الواردة بها مبسوط في كتب الفقه، لذلك سنقف على ما يناسبنا في هذا المقام، ونتعرض لما فيها من وقفات تدبرية.

{ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ} هل يوجد إضمار في الآية أم أن المعنى يستقيم هكذا؟ للعلماء ثلاثة أقوال:

القول الأول: نعم هناك حذف؛ والتقدير(أشهر الحج أشهر معلومات) أي هناك حذف للمضاف (أشهر) ببداية الكلام.

القول الثاني: قيل: المقصود به (لا حج إلا في هذه الأشهر) فلا يجوز في غير هذه الأوقات؛ وذلك لأنه كان من أفعال الجاهلية جواز الحج في غير هذه الأشهر المعلومات التي فرضها الله على العباد، فأراد سبحانه أن يُبيّن للعباد عدم جواز هذا الفعل، وأنه لا يُحَجّ في غير الأوقات التي بيّنها الله لنا في القرآن.

القول الثالث: قيل: إنه من الممكن أن يستقيم المعنى هكذا من غير إضمار ولا حذف؛ فعندما يُقال {ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ} عُلم في لغة العرب أن الحج أشهر معلومات.

إذًا لا يجوز انعقاد الحج ولا أداء نسك من مناسك الحج إلا في أشهر معينة، ولكن ما هي هذه الأشهر؟ أجمع العلماء على أن الأشهر المعلومات: شوال وذو القعدة يقينًا، واختلفوا في ذي الحجة: **هل يُعد الشهر كله من أشهر الحج أم بعض أيام منه؟** فريق من

العلماء قال: شهر ذو الحجة كله من الأشهر المعلومات؛ وحُجتهم أن ربنا سبحانه وتعالى يقول ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ فعندما يقول الله عز وجل كلمة (شهر) إذًا فهو شهر، فلماذا نفسّرها على أنها بعض أيام منه؟!! **وقيل**: أول عشر أيام فقط من ذي الحجة؛ وحُجتهم أن غالبية مناسك الحج تكون في هذه الأيام، كما أن العرب قد تطلق على الوقت كله بعض الوقت، فقد يُقال (قام الليل) ولا يراد به قيام الليل كله بل بعض الليل. **وقيل**: عشر ليالٍ فقط من شهر ذي الحجة هي من الأشهر المعلومات والباقي لا يدخل فيها. **وقيل**: من أول ذي الحجة إلى آخر أيام التشريق فقط من الأشهر المعلومات.

* وأظهر هذه الأقوال وأرجحها والله تعالى أعلم أن ذي الحجة كله من الأشهر المعلومات، لماذا؟ لأن هناك من أعمال الحج ما لا يكون في أول عشر أيام من ذي الحجة؛ مثل المبيت في مِنى وبعض الأعمال التي تكون في أيام التشريق.

- كما أن هناك من أعمال الحج ما يجوز تأديته حتى آخر شهر ذي الحجة مثل طواف الإفاضة (بل إن جماهير العلماء على أنه إذا كان هناك عذر لمن لم يؤدِّ طواف الإفاضة أن يؤديه متى انتهى عذره طوال العام، حتى وإن كان بعد شهر ذي الحجة؛ وذلك لأنه ركن من أركان الحج، على اختلاف من قال عليه دم وقتئذ أو لا) والأمر مبسوط في كتب الفقه.

- فكل هذه الأقوال تعضد وتؤيد أن شهر ذي الحجة كله من

الأشهر المعلومات وليس فقط أول عشر أيام، أو بعض أيام منه.

{فَرَضَ} أي أحرم؛ بمعنى: أنه عقد النية على أن يحج فلا يجوز له أن يخرج.

هل يلزمه لعقد النية التلبية؟

من العلماء مَن قال: نعم لا بُد مع عقد النية على الحج أن يقول (لبيك اللهم لبيك) عندما يصل إلى الميقات؛ وذلك حتى يكون عقد النية بالقلب وأطلق باللسان النسك، فبذلك تلبَّس بنسك الحج فلا يجوز أن يخرج منه.

*إذًا معنى {فَرَضَ} أحرم؛ وكيفية الإحرام: عقد النية ابتداءً بالقلب، ومن العلماء من قال يلزمه التلفظ أيضًا بالتلبية التي هي (الإهلال) حينما يصل الميقات.

هو الآن عقد النية أن يحج، وأحرم وقال (لبيك اللهم لبيك) ثم بيّن الله سبحانه وتعالى ماذا يجب عليه أن يفعل في هذا الحال: {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ} أي مَن عقد النية على أنه يحج فلا يجوز له أن يأتي بهذه المحظورات وهي: {رَفَثَ} الجماع ومقدماته. {فُسُوقَ} كل أنواع المعاصي. {جِدَالَ} هي المماراة والمنازعة والمخاصمة والكلام الذي يأتي بشر ويوغر الصدور ويجعل العداوة بين الناس.

وللأسف تقع مثل هذه الأشياء كثيرًا في الحج، فيريد الشيطان

أن يُفسد على العبد هذه العبادة الجليلة العظيمة التي يرجع منها العبد كما ولدته أمه، كما قال النبي ﷺ: «**مَن حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَومِ ولَدَتْهُ أُمُّهُ**»(١). فيخرج العبد تاركًا بيته ويُنفق ما يُنفق ويلاقي من التعب المعنوي والجسدي فلا يتركه الشيطان حتى يحاول الوقوع به فيُفسد عليه حجته أو يُضيّع عليه عظيم الثواب، فيجب عليه الحذر من مثل تلك الأمور.

{وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ} من خير: للتنصيص على العموم؛ أي أن كل خير وقربة ونية طيبة وكل عمل قدمته لله فإن الله يعلمه لأنه هو العليم.

وفي هذا غاية التحفيز والحث على أفعال الخير، خاصة في هذه الأيام المباركة التي يقضيها الحاج في أشرف بقاع الأرض مكة المكرمة وهو يؤدي مناسك الحج الذي هو ركن من أركان الإسلام.

{وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ} جمع بين زاد الدنيا وزاد المعاد؛ زاد الدنيا ما يحتاج إليه المسافر من طعام وشراب وأشياء يتزود بها، وهي سبب نزول الآية كما جاء في حديث ابن عباس في صحيح البخاري: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: كانَ أهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ ولَا يَتَزَوَّدُونَ، ويقولونَ: نَحْنُ المُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} [البقرة:

---

(١) صحيح البخاري (١٥٢١).

١٩٧])، فقد يحدث لدى البعض لبسًا بين الأخذ بالأسباب والتوكل، وبين التواكل وطلب الحاجة من الناس.

وأما زاد المعاد فهو زاد الآخرة؛ كقوله تعالى في سورة الأعراف {يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ} فجمع بين لباس الدنيا الذي يواري ويستر السوءة وبين لباس الآخرة (التقوى)، فيجب على الإنسان أن يُزيّن باطنه كما يُزيّن ظاهره (تزيين الظاهر مطلب وتزيين الباطن أفضل) ويكون تزيين الباطن بالحب والإخلاص وكل الأعمال التي تقرب إلى الله عز وجل.

{وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ} الخطاب لأولي الألباب؛ أي صاحب العقل هو الذي سيفهم ويعقل ويخاف مخالفة أوامر الله. ولتوضيح الأمر: إذا كان هناك على سبيل المثال اثنان على نفس درجة الذكاء والعقل في أمور الدنيا ويحتلان مكانة مرموقة بين الناس لكنهما متفاوتان في درجة الالتزام؛ فأحدهما عاصٍ والآخر متدين ملتزم بطاعة الله.. فستجد مسافات بينهما لا يعلمها إلا ذو بصيرة؛ فبالرغم من وجود تلك الدرجة العالية المرموقة مع العاصي إلا أنك تجد سفهًا، وأما الملتزم فتجد له وفرة في العقل.

- لذلك نبَّه اللهُ على هذه المسألة في أكثر من موضع في القرآن مثل قوله تعالى:{ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠} [المائدة]، وقوله { وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ} [البقرة: ٢٦٩، آل

عمران: ٧].

- فالذي لديه عقل وافر لا يمكن أن يعصي الله؛ لأنه في قبضة الملك، فهو سبحانه يراه ويعلم حاله، وكيف لعاقل أن يستخدم نِعَم الله في معصية الله!! كيف يحرم العاصي روحه من رضا الله وسعادة القرب من الله والسكينة وانشراح الصدر!! فكيف لعاقل أن يترك كل هذا الخير!!

قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾.

لما أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالتقوى في الآية السابقة رفع الحرج عنهم في ابتغاء الفضل منه سبحانه، لكن ما المقصود بالفضل في الآية؟ المقصود بالفضل هنا: التجارة في مواسم الحج؛ ودليل ذلك قوله تعالى في سورة الجمعة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وقبل هذه الآية قال تعالى ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ فدلّت الآية بلا خلاف عند العلماء أنها في التجارة.

- وقد كان ناسٌ مِن العرَبِ في الجاهليَّةِ يَتأثَّمون ويتحرّجون أنْ يَتَّجِروا أيَّامَ الحجِّ فرفع الله عنهم هذا الحرج بطلب الرِّزقَ الحَلالَ بالتِّجارةِ في أثناءِ الحجِّ، لكن بعد الانتهاء من أعمال الحج.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كَانَتْ عُكَاظٌ، ومَجَنَّةُ، وذُو المَجَازِ،

أسْوَاقًا في الجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كانَ الإسْلَامُ فَكَأنَّهُمْ تَأَثَّمُوا فِيهِ، فَنَزَلَتْ: {ليسَ علَيْكُم جُنَاحٌ أنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ} [البقرة: ١٩٨] في مَوَاسِمِ الحَجِّ قَرَأَهَا ابنُ عَبَّاسٍ(١).

- ولكن ينبغي الانتباه أن رَفْع الحرج عنهم بفضله وكرمه سبحانه يعني الإباحة؛ أي ليس فيه إثم، لكن الأفضل والأصلح لقلوب العباد أن يتفرغ لأداء تلك الشعيرة العظيمة؛ من تسبيح وتهليل واستغفار وتوبة ورد لحقوق العباد إلى غير ذلك من الأمور التي يحصّل بها الفائدة العظيمة من تلك الشعيرة الجليلة ويرجع كما ولدته أمه.

{فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ} أضاف الكسب الحلال والفضل إلى الله؛ وذلك حتى لا يتصور العبد أن عقله وذكاءه هو السبب في هذا الفضل، فيركن إلى السَّبب وينسى المُسبِّب! لكن يعلم أن الفضل كل الفضل لله.

{فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ} الإفاضة هي الدفع بكثرة والخروج بسرعة؛ ففيه تشبيه بليغ لمشهد اندفاع الحجاج وخروجهم من عرفات متجهين إلى مزدلفة كما يَفِيضُ ويسيل الماءُ في مُنْحَدَرِ الشِّعابِ.

- وينبغي على العبد أن يتذكر بذلك المشهد في موقف عرفات

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٠).

يوم الحشر، وكيف اجتماع الناس كلهم لا فرق بين غني وفقير في صعيد واحد!!

{فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ} وللعلماء في {ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ} قولان:

١- من العلماء من قال: إن المشعر الحرام هو (مزدلفة كلها).

٢- ومن العلماء من قال: هو جبل داخل مزدلفة، وحُجتهم حديث جابر بن عبد الله الذي روى فيه صفة حجة النبي ﷺ في «صحيح مسلم» وموضع الشاهد فيه: (حتَّى أَتَى المُزْدلِفَةَ، فَصَلَّى بهَا المَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بأَذَانٍ وَاحِدٍ وإقَامَتَيْنِ، وَلَمْ يُسَبِّحْ بيْنَهُما شيئًا..) أي لم يُصلِّ نوافل بين المغرب والعشاء بل جمع بينهما وقصر.

(ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسولُ اللهِ ﷺ حتَّى طَلَعَ الفَجْرُ، وَصَلَّى الفَجْرَ حِينَ تَبَيَّنَ له الصُّبْحُ بأَذَانٍ وإقَامَةٍ. ثُمَّ رَكِبَ القَصْوَاءَ حتَّى أَتَى المَشْعَرَ الحَرَامَ، فَاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ، فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حتَّى أَسْفَرَ جِدًّا، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ).

فدليلهم: في الموضع الأول قال: (حتَّى أَتَى المُزْدَلِفَةَ) ثم في الموضع الثاني قال بعدها: (حتَّى أَتَى المَشْعَرَ الحَرَامَ) فدلّ على أن المشعر الحرام جزء من المزدلفة، وليست كلها لتلك المغايرة.

وعلى كلٍّ سواء مَن قال إن المشعر الحرام هي مزدلفة كلها أو مَن قال إنه جزء من مزدلفة؛ ففي الحالتين يجوز الوقوف بأي مكان

عند المشعر الحرام لقول النبي ﷺ «**وَجَمْعٌ كُلُّهَا مَوْقِفٌ**»[١]. أي أنَّ المُزدَلِفةَ كلَّها مكانٌ للوُقوفِ، فالأمر يسير وفيه سعة بإذن الله تعالى.

{وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ} ذُكر في حديث جابر السابق أن النبي ﷺ اسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ فَدَعَا وَكَبَّرَ وَهَلَّلَ وَوَحَّدَ الله تبارك وتعالى، وظل على هذا الحال حتى ظهر الصبح وقبل طلوع الشمس.

هناك تشبيه أيضًا: ومفادة التشبيه هنا للتسوية في الحسن والكمال؛ فأنتم تذكرون الله تبارك وتعالى كما هداكم وأخرجكم من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن الضلال إلى الهدى.

{وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ} فقد منّ عليكم بالهداية بعد الضلال، فهذه من أكبر النِّعَم التي يُنعم الله بها على العباد.

وينبغي للمؤمن أن يستحضر تلك النعمة العظيمة ويتذكرها خاصة عندما يتعرض لأي ابتلاء أو ضيق، ليعلم أن هداية الله له هي من أعظم العطايا التي يعطيها الله سبحانه وتعالى فيهون عليه وقتئذ أي ابتلاء.

قوله تعالى: {ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾}. للعلماء في معنى الآية قولان:

١- **القول الأول:** أن سبب نزول الآية ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها

---

(١) صحيح مسلم (١٢١٨).

قالت (كَانَتْ قُرَيْشٌ ومَن دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بالمُزْدَلِفَةِ، وكَانُوا يُسَمَّوْنَ الحُمْسَ، وكانَ سَائِرُ العَرَبِ يَقِفُونَ بعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الإسْلَامُ أمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بهَا، ثُمَّ يُفِيضَ منها فَذلكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {ثُمَّ أفِيضُوا مِن حَيْثُ أفَاضَ النَّاسُ}[1]. الحُمْسُ: هم: قُرَيشٌ، وكِنانَةُ، وجَديلَةُ؛ سُمُّوا بذلك؛ لِتَحَمُّسِهم وتَشَدُّدِهم في دِينِهم؛ فقد كانوا يعتقدون أنهم أفضل الناس، فلا يفعلون ما يفعله البقية؛ فكان يفيضُ جَماعةُ النَّاسِ مِن عَرَفاتٍ وتفيضُ الحُمْسُ من مزدلفة! وذلك لِئَلَّا يَخرُجوا عن حُدودِ الحَرَمِ الذي شَرَّفَهمُ اللهُ به، وعَرَفةُ ليسَتْ مِنَ الحَرَمِ.

٢- **القول الثاني:** إن المقصود بالناس هنا في الآية هو إبراهيم عليه السلام، وإطلاق الجماعة على الواحد أمرٌ معروف عند العرب كقوله تعالى {ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ} عام أريد به الخصوص.

{ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ} وقبل هذه الآية {فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ} **فهل هما إفاضتان أم أنها إفاضة واحدة؟**

- الجواب: هي إفاضة واحدة من عرفات؛ ولكن (ثم) هنا تفيد الترتيب الذِّكْري وليس الترتيب الزمني؛ فما الفرق؟ الترتيب الزمني يفيد الترتيب مع التراخي: مثال: إذا قلنا (جاء محمد ثم علي) فمعناه

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٢٠).

(الترتيب) أي أن محمدًا جاء أولًا ثم بعد ذلك جاء علي، وأفادت أيضًا (التراخي) أي أن عليًّا جاء بعد محمد بفترة زمنية.

- لكن في الآية الكريمة جاءت (ثم) للترتيب الذكري- ترتيب للذِّكر فقط - لا الترتيب الزمني.

{وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} كثيرًا ما يحث الله سبحانه وتعالى العباد على الاستغفار بعد الأعمال الصالحة؛ وذلك لأن الأعمال تعتريها النقص ولا بُد.

عن ثوبان ﵁ مولى رسول الله ﷺ: كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ، إذَا انْصَرَفَ مِن صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقالَ: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ**»[١].

وعن عائشة ﵂ قالت: لمَّا نزلت { إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ} كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أنْ يقُولَ في رُكُوعِهِ وسُجُودِهِ: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»[٢].

وقال أبو بكر الصديق ﵁ للنبي ﷺ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أدْعُو به في صَلَاتِي، قالَ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، ولَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أنْتَ، فَاغْفِرْ لي مَغْفِرَةً مِن عِندِكَ، وارْحَمْنِي، إنَّكَ أنْتَ**

---

(١) صحيح مسلم (٥٩١).
(٢) صحيح البخاري (٤٩٦٨).

الغَفُورُ الرَّحِيمُ»[١].

فيجب علينا الانتباه! شَرَعَ اللهُ لنا الاستغفار بعد الأعمال الصالحة فكيف بغير الصالح من الأعمال!!

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾.

أرشد الله العباد بعد الفراغ من مناسك الحج أن يذكروا الله، وهو الذي تفضّل عليهم بجميع النِّعَم.

﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ فإن كنتم تفخرون وتذكرون الآباء لأنهم أحسنوا إليكم بالتربية إلى غير ذلك فالله أَولى أن يُذكر؛ لأن كل نعمة تتنعّمون بها هي منه سبحانه وتعالى.

كان أهل الجاهلية يفخرون بالآباء، وكانت عادة العرب إذا قضت حجها أن تُفَاخِرَ بالآباء، لكن نهى الله سبحانه وتعالى عن هذه الصفة البغيضة التي تؤدي إلى الشر، بل إن هؤلاء الآباء وضعوكم بمحنة لولا أن الله منَّ عليكم وهداكم وأخرجكم من هذا الضلال.

﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (أو): ليست هنا للتخيير، وإنما للتدرج في الخطاب إلى الأعلى وهو الإضراب الانتقالي؛ فلا

---

(١) صحيح البخاري (٦٣٢٦).

يُكتفى فقط بذكر مثل ذكر الآباء بل أعلى من ذلك.

{فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ} يوجد محذوف تقديره (كذا وكذا وكذا) أي (آتنا في الدنيا كذا وكذا وكذا) فقد يكون أولادًا أو مالًا أو جاهًا وسلطانًا... إلى آخره من أمور الدنيا. فمن الناس مَن يكون كل همه ومطلوبه الدنيا فقط!

{مِنْ خَلَٰقٍ} من نصيب؛ فلا يذكرون من أمر الآخرة شيئًا. ولا يُفهم من ذلك عدم طلب أمر من أمور الدنيا، وإنما التنفير هنا أن تكون الدنيا فقط هي كل همه وشغله الشاغل، وعدم الاهتمام بأمور الآخرة.

قوله تعالى: {وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾}.

{وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ} القائلون هم المؤمنون من أهل الإيمان الذين حجوا بيت الله خالصًا لله ورغبة فيما عنده، وعلى رأسهم النبي محمد ﷺ والصحابة وكل من تبعهم في هذا الأمر.

{رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً} (حسنة الآخرة) هي الجنة، ونقل القرطبي الإجماع على هذا في هذا الموضع. وأما (حسنة الدنيا) فللعلماء فيها أقوال: منهم من قال: (المعافاة) أي يعافيه الله في بدنه أو ماله أو صحته؛ ويشهد لهذا القول حديث أنس بن

مالك رضي الله عنه: (أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ، عَادَ رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ قدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الفَرْخِ، فَقالَ له رَسولُ اللهِ ﷺ: «**هلْ كُنْتَ تَدْعُو بشَيءٍ، أَوْ تَسْأَلُهُ إيَّاهُ؟**» قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ ما كُنْتَ مُعَاقِبِي به في الآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لي في الدُّنْيَا. فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ لا تُطِيقُهُ، أَوْ لا تَسْتَطِيعُهُ، أَفَلَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» قالَ: فَدَعَا اللَّهَ له، فَشَفَاهُ)[١] فَصَارَ مِثْلَ الفَرْخِ: أي صَارَ ضعيفًا، مثلَ الفرخِ لكَثرةِ نَحافتِه.

فأرشد النبي ﷺ الرجل لطلب المعافاة؛ لأن رحمة الله هي أوسع مهما كثرت الذنوب، ولا يتعارض هذا مع الرضا، فيرضى العبد عند الابتلاء، لكن أيضًا يسأل الله العافية.

وقيل: (الرزق الطيب). **وقيل:** (الزوجة الصالحة).

إلى غيره من أقوال العلماء، لكن اتفقنا من قبل أنه إذا كان اللفظ عامًّا فلا نخصصه؛ لذلك نسأل الله كل الخير سواء كان (عافية، صلاح الزوجة والذرية، سعة الرزق، راحة البال وطمأنينة النفس، العلم النافع والعمل الصالح.... كل ما يحتاجه الإنسان).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: كانَ أكْثَرُ دُعَاءِ النبيِّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وقِنَا عَذَابَ النَّارِ**»[٢]. إذا

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٨٨).
(٢) صحيح البخاري (٦٣٨٩).

كان هذا أكثر ما كان يدعو به النبي ﷺ فينبغي عدم ترك تلك السُّنة لأنها تحتوي على دعاء جامع شامل رائع خاصة إذا استحضر الإنسان كل الخير، فينال بذلك خيري الدنيا والآخرة.

{وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ} يسألون الله سبحانه وتعالى أن يقيهم عذاب النار.

{أُوْلَـٰٓئِكَ} ترجع للفريقين؛ الفريق الذي لا هَمَّ له إلا الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب، وترجع للفريق الذكيّ الذي عقِل الأمر ففاز بالدنيا والآخرة.

{ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ} ميَّز الله سبحانه وتعالى بين الفريقين القاصدين لهذه البقعة الشريفة؛ فريق ما أراد إلا الدنيا، وفريق آخر أراد الآخرة وطلب الدنيا أيضًا فأعطاها له الكريم سبحانه.

{وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ} تدل على تحقيق الوعد بحصول الإجابة، فكلمة الحساب تطلق على العدّ وتطلق أيضًا على الأشياء التي يراد بها الجزاء؛ ففيها بشارة لأهل الإيمان بأن الله سيعطيهم في الدنيا وفي الآخرة. فالله سبحانه يحاسب العباد ويعطي كل واحد ما يستحق من الشر أو الخير بحسب إيمانه وحسب نواياه.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن
تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ (٢٠٣) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ
وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا
وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ
أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ
بِٱلۡعِبَادِ (٢٠٧) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا
تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ (٢٠٨) فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلۡ يَنظُرُونَ
إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ
وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (٢١٠) ﴾

{وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ} **ما هي الأيام المعدودات؟** أجمع جماهير علماء المفسرين أن الأيام المعدودات هي أيام (مِنى)؛ أي: الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من ذي الحجة.

واستدلوا على هذا الرأي بـ:

١- آثار صحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الأيام المعدودات هي أيام التشريق». وقال بذلك غيره من السلف.

٢-حديث النبيّ ﷺ: «**أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله**»[١].

من المخاطَب بالآية؟

أجمع فقهاء الأمصار ومشاهير الصحابة والتابعين وأهل العلم أن المخاطب بالآية هو كل أحد؛ سواء الحاج وغير الحاج.

متى يكون التكبير؟

قال العلماء: إن التكبير يكون بعد الصلاة المكتوبة وهو من عمل السلف، واستدلوا بما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس: «كنت أعرف انقضاء صلاة النبي ﷺ بالتكبير». وفي رواية: «إن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة؛ كان على عهد النبي ﷺ».

---

(١) صحيح مسلم (١١٤١).

هل تدخل التلبية في الذكر (في الأيام المعدودات)؟

تنتهي التلبية عند رمي الجمرة يوم النحر، فلا تدخل في هذا الذكر.

ملحوظة:

المقصود بالذكر في هذه الآية؛ هو الذكر في أيام التشريق، والذي يكون عقب الصلاة المكتوبة، وليس الذكر المطلق في العشر الأوائل من ذي الحجة.

{فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ} أي من غادر (مِنى) قبل غروب شمس يوم الثاني عشر، ومن بقيَ فيها ولم يخرج بسبب غروب الشمس أو لأي سبب آخر فلا إثم عليه أن يبقى، ولا يحق له أن يخرج من مِنى إلا في اليوم التالي. ووجه رفع الإثم عمّن تعجل واضح؛ فلا يظن أحد أنه قصر في حجه، وإنما له رخصة أن يرمى يومين ثم ينصرف.

لكن لماذا يُرفع الإثم عن المتأخر؟

- لبيان أنه لا حرج على من أخذ بالرخصة؛ فبعض أهل العلم - كأبي حنيفة - يرى أن ترك الرخصة لا يجوز.

- حتى لا يعيب المتأخر على المتعجل، ولا المتعجل على المتأخر.

- لرفع الإثم عمّن اضطر للمبيت بعد اليوم الثاني عشر.

لماذا التقييد بالتقوى في قوله تعالى {لِـمَنِ اتَّقَى}؟

قال العلماء: إن اللام النافية للجنس تنفي كل إثم؛ لكي لا يُتوهم أن الحاج منفي عنه كل إثم؛ سواء اتقى أم لا؛ قيِّدت بشرط التّقوى لبيان أهميتها في كل أعمال الحج. ثم كرر التقوى في قوله تعالى {وَاتَّقُوا اللهَ}!! ففي الأولى يقصد بها (التقوى في أعمال الحج)، أما الأمر بالتقوى في الثانية يقصد بها (في الحج وفي غير الحج) أي في كل الأمور والأحوال وليس وقت العبادات فقط.

{وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ} (واعلموا): تصدير الأمر بالعلم يدل على أهمية العلم في إصلاح القلب والمنهج والمَسلك؛ فالعلم هو الذي يربي الإنسان ويزجره عن فعل المعصية.

وقفة:

قال تعالى {إليه تحشرون} وليس (تحشرون إليه): التقديم هنا يفيد الحصر؛ أي أن الحشر لا يكون إلا إليه. والغرض من هذا التَّذييل: التهديد والتحذير من المعصية والغفلة، وأننا سنُحشر إلى الله؛ فكما ينتهي الحاج من أعمال حجه ويرجع إلى بلده.. فإننا جميعًا سنرجع ونقف بين يدي الله العليم بذات الصدور.

قوله تعالى: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾}.

قال العلماء: إنهم المنافقون الذين لم يكن لهم في الحج إلا ذكر الآباء والأجداد.

{يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ} العَجَب؛ هو انفعال يعرض للنفس عند مشاهدة أمر غريب غير مألوف خفي السبب. والمنافق حين يتكلم يُعجب بكلامه؛ حيث يتكلم بفصاحة وانطلاق اللسان، الذي يأسر القلوب والنفوس - وخاصة العرب - فالمنافق يجذب القلوب لكلامه الباطل ويُشهد الله أن كلامه حق!!

{أَلَدُّ الخصام} أي: شديد الخصومة، أصل اللداد هو الاعوجاج، فعند الخصومة يظهر منه قبح الألفاظ وسوء الصفات؛ قال رسول الله ﷺ: «**أبغَضُ الرِّجالِ إلى اللَّهِ الألَدُّ الخَصِمُ**»[١][(٢)]، فيبغض اللهُ مَن تلبّس بهذه الصفة رجالًا ونساء، فالله عز وجل يحب اللَّيِّن السَّمح، الذي يتجاوز عن الآخرين، ويتنازل عن حقه خاصة إن كان في ذلك مصلحة أفضل.

قوله تعالى: { وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾}.

دليل على أن الإنسان مهما تكلم بكلمات جميلة وفصيحة إلا أنه لا ينبغي أن يُصدر الحكم على أحد بِبِرٍّ أو فجور إلا بالنظر إلى

١

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

أفعاله وأحواله.

{وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ} أصل التّولي هو الانصراف بالبدن، والسعي حقيقة المشي بالقدمين، فهذا المنافق إذا انصرف من أمام الناس سعى في الأرض ليفسد فيها، ومعروف أن السعي يكون في الأرض، فلماذا ذكرها الله (عز وجل) في الآية؟! ذِكْر كلمة الأرض أفاد العموم في المعنى؛ لأن اللام هنا لام العلة، فأينما حلّ هذا المنافق أراد الفساد.

{لِيُفۡسِدَ فِيهَا} الفساد؛ هو إخراج الشيء عن حالة محمودة لغير قصد صحيح، والفساد ضد الصلاح، وهذا خلاف ما أراده الله عز وجل؛ قال تعالى: {وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا.. ﴿٦١﴾} [هود] أي؛ استخلف الإنسان ليصلح فيها ويُعمرها، وليكون فيها نسل يعبد الله عز وجل. والفساد كلمة عامة تُطلق على الكفر والسرقة وهلاك الحرث.

{وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَ} عطف عِلة على عِلة؛ حتى يُبيّن أن أصل الفساد كله من هاتين الجهتين؛ **فقيل**: يهلك الحرث: أي يهلك الزروع والأشجار؛ مصدر حياة الإنسان. وأما فساد النسل: أي قتل النفس بغير حق، أو قتل الأولاد أو وأد البنات، فيهلك نسل بني آدم. **وقيل**: يهلك الحرث؛ أي: حرث بني آدم ونسائهم. والنسل أي الدواب.

* ومن العلماء من قال: أي منع الخير، فالمعاصي سبب في

تضييق الأرزاق، ومنع المطر.. { ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾} [الروم].

{وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ} الله لا يحب الفساد، ولكنه قدّره بقدره الكوني، فالقدر الكوني فيه كل ما يحبه الله ويرضاه، وما لا يحبه ولا يرضاه، أما القدر الشرعي فيه كل ما يحبه وما يرضاه ويأمر به.

قوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾}.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ} أي: إذا قيل له: اخْشَ اللهَ فإنك سَتُحاسَب يوم القيامة فلا يستجيب.

{أَخَذَتْهُ} احتوت عليه وأحاطت به. **وقيل**: (أخذته) من الأخذ؛ بمعنى الأسر، ومنها الأخيذ أي: الأسير، والمعنى: أسرته الجاهلية بحميتها وأفعالها وأخلاقها.

{فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ} فمن كان بهذا الحال تمكّن منه الكبر، فلا يستجيب ولا يسمع لمن يوصيه بالتقوى، فتكفيه جهنم إذا مات بهذا الحال دون توبة.

{ٱلْعِزَّةُ} أي: الأنفة والحمية، وهي نتاج الكبر (وليست العزة المحمودة).

{وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ} المهاد: هو موطن الهدوء والاستطابة

والراحة. فيكون المهاد هو موطنه الذي يخلد فيه، وهو جهنم وبئس المصير؛ لأنه مات على النفاق العقدي.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

هذه الآية من آيات المقابلة؛ فلما ذكر الله تبارك وتعالى الصنف الأول؛ وهو المنافق الذي تخالف أقواله أفعاله، والذي يسعى في الأرض فسادًا، ذكر الله تعالى الصنف الآخر.

وقد يرى البعض أن هذه المقابلة غير صريحة لكن الآية تضمنتها بمفهومها؛ فلا بد للعبد الذي يبيع نفسه لله أن يتحرّى الإخلاص والصدق ولا يخالف قوله فعله، ويخاف الله في السر والعلن، وهذا حال المؤمن التقي.

﴿يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي: يبيع نفسه حتى يرضى عنه الله عز وجل.

وللآية سبب نزول: وهو أن صهيب الرومي لما أراد أن يخرج من مكة مهاجرًا اتبعه نفر من قريش، فنزل عن راحلته ونثَلَ كِنانَتَه (وفي رواية: كان في كنانته أربعين سهمًا) وقال: (لقد علِمتُم أنّي مِن أَرْماكُم، وايْمُ اللهِ لا تَصِلونَ إلَيَّ حتى أرميَ بكلِّ سَهمٍ معي، ثُمَّ أضرِبَكم بسَيفي، فإنْ شِئتُم دلَلتُكم على مالي، وخَلَّيتُم سَبيلي؟ قالوا: نَفعَلُ. فلمَّا قدِمَ على النَّبيِّ ﷺ، قال: «**رَبِحَ البَيعُ أَبَا يَحْيَى!**» ونزَلَتْ:

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ} [البقرة: ٢٠٧][(١)].

وإن كانت الآية نزلت لسبب مخصوص إلا أن كل الأمة مخاطبة بها، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فلا بُد من إخلاص النية لله، والتضحية ابتغاء مرضات الله، وشدة التعلق بالآخرة، وهو ما جعل هذا الصحابي يفعل ذلك دون تردد، وقد تقبل الله منه، وأبدله خيرًا مما ترك، فيكفيه عزًّا أن نزل فيه قرآن يُتلى إلى يوم القيامة تشريفًا له ولِشأنه.

{وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلۡعِبَادِ} الله اسم الجلالة، له كمال التأله والتعبد، فلا معبود بحقٍّ إلا الله.

ومن رأفته بعباده:

- أن جعل النعيم الدائم جزاء العمل القليل المنقطع.
- ألّا يكلف نفسًا إلا وسعها.
- جوّز لعباده كلمة الكفر من أجل إبقاء النفس!
- أن قَبِل توبة مَن كان مُصرًّا على المعاصي إن تاب، حتى وإن كان على الكفر من قبل، ويسقط عنه العقوبة ويبدله بالنعيم الدائم.
- أن يقبل من العبد ما يبذله من ماله، سواء بالإنفاق في سبيل

---

(١) حلية الأولياء (١/١٥١).

الله أو الحج أو الزكاة، وهو في الأصل ملكه، فالمال مال الله وهِبة الله للعبد، وعندما ينفقه العبد يشتريه الله منه ويقبله بفضله ومنّه ورحمته.

وقفة:

مِن أعظم الأشياء التي يعلو بها الإيمان؛ هو فهم أسماء الله الحسنى وصفاته العُلى.

قوله تعالى: {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾}.

{يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} بدأت الآية بنِداء من الله عز وجل للمؤمنين، والابتداء بالنداء دليل على:

- العناية، والمقصود تنبيه المخاطب على أمر مهم.

- الحث والإغراء بالإيمان على امتثال أمر الله؛ فمقتضى الإيمان إن كان العبد مؤمنًا حقًّا الامتثال لأمر الله.

- الامتثال لأمر الله دليل على زيادة الإيمان، حتى إذا فعلوا كل الأوامر كان دليلًا على كمال الإيمان؛ ففي النداء إقرار بإيمانهم إذا فعلوا ما أمرهم الله به، وإذا تركوا الأمر فيكون في ذلك نقص الإيمان، فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

{ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً} أي ادخلوا في الإسلام؛ وهو الاستسلام

لله في الظاهر والباطن.

سؤال: كيف أثبت لهم الإيمان بالنداء في أول الآية، ثم أمرهم بالدخول في الإسلام؟

الجواب: كلمة {كآفّة} اسم يفيد الإحاطة بأجزاء ما وُصِف به، أي: ادخلوا في كل شرائع الإسلام (الاستسلام في الظاهر والباطن) لا تتركوا منها شيئًا.

فالإيمان أكمل بلا شك من الإسلام، لكن الأمر هنا بالدخول في كل شرائع الإسلام، فلا تتركوا منها شيئًا، فيكمُل بذلك إيمانكم.

{وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ} (الخطوة) هي: منتهى نقل القدم من موضع لآخر. والمقصود هنا، أي: طريقه وسيره. فالشيطان لا يأمر العبد بكل المعاصي جملة واحدة، وإنما يوسوس للإنسان بمعصية معصية.. خطوة خطوة.

{الشيطان} من شَطَنَ؛ أي: بعُد عن رحمة الله، ومِن شَطَا؛ أي: غضب وحمق.

{إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ} ذُكرت هذه العداوة في أكثر من موضع في القرآن، وهذه العدواة مؤكدة توكيدًا ظاهرًا بحرف التوكيد (إنَّ)، ومؤكدة توكيدًا معنويًّا بقوله تعالى {عَدُوّٞ مُبِينٌ} بغير حروف مؤكدة ظاهرة.

{مُّبِينٌ} أي واضح؛ فعداوة الشيطان ظاهرة واضحة لا تخفى

على أي أحد، فتوعّد بني آدم بالضلال والإضلال.

قوله تعالى: {فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾}.

الله عز وجل أقام الأدلة الواضحة على عظمته ووحدانيته، وأزال الشبهات من القلوب، ومَحَا الشكوك من النفوس بالآيات البينات، وبالقرآن والسنة الجليَّة، فالله لا يؤاخذ العبد بالذنب إلا بعد البيان والحُجة، فرتب الله العقوبة بعد البيان الواضح وإقامة الحُجة، وهذا منهج أهل السنة والجماعة بخلاف بعض الفرق الضالة.

فأهل السنة والجماعة يعذرون بالجهل، بخلاف بعض الفرق الضالة كالخوارج والتكفيرين الذين يخلّدون أصحاب الكبائر في النار، ولا يعتبرون بمسألة العذر بالجهل.

{فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ما يأتي بعد كلمة (اعلموا) أمرٌ هام ينبغي الانتباه إليه؛ الله عزيز لا غالب له، ولا يُنال جنابه، ولا يعجزه الانتقام ممن زل، ولا يفوته من ضل؛ لأنه قوي عزيز، ولا ينتقم إلا بحكمة.

وفي الآية غاية الوعيد؛ لأنه لم تُذكر عقوبة محددة! فجمعت جميع المخاوف لمن علم معاني أسماء الله؛ العزيز الحكيم، فهي أبلغ في الزجر، وأشد في الوعيد، فلا حجة للعبد عند ربه أن تزل قدمه بعد ما جاءته الآيات البينات في القرآن والسنة الصحيحة.

قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾.

﴿هَلْ﴾ استفهام غرضه النفي.

﴿يَنظُرُونَ﴾ تأتي بمعنى النظر إذا عديت بحرف الجر (إلى)؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران]، وتأتي بمعنى الانتظار إذا لم تتعدَّ بحرف الجر (إلى) كما هو في الآية التي نحن بصددها، **والمعنى**: هل ينتظر هؤلاء الكفار والمنافقون ومَن على شاكلتهم إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام!

﴿ٱلْغَمَامِ﴾ السحاب، ولكن ليس كسحاب الدنيا! فالسحاب بين يدي الله، والله محيط بكل شيء، والملائكة تنزل لتحيط بالخلائق!

﴿أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية فيها: إثبات صفة الإتيان لله تبارك وتعالى كما يليق به سبحانه، وهي من صفات الأفعال التي أثبتها الله لنفسه وأثبتها له نبيه ﷺ (مثل صفات النزول والمجيء والاستواء) فيجب الإيمان بها دون تمثيل ولا تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة في الصفات، وذلك على خلاف مَن أنكرها من الأشاعرة والمعتزلة والجهمية الذين شبّهوا صفات الخالق بصفات المخلوق، فلجأوا إلى التعطيل وتأوَّلوا الصفات فقالوا: (يأتي الله) أي يأتي أمر الله!! وهذا جرم في حق الله؛ فكيف

يثبت الله سبحانه وتعالى لنفسه شيئًا ثم ينفيه عنه المشبهة والمعطلة والمؤولة؟!! ولا حول ولا قوة إلا بالله!

{ إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر}

الآية فيها من الوعيد ما تنخلع منه القلوب! فالإنسان الذي يفسد في الأرض ويتّبع خطوات الشيطان، ولا يعمل لهذا اليوم الذي يطوي الله تبارك وتعالى فيه السماء بيمينه، ويكوّر الشمس والقمر، وتتنزل الملائكة لتحيط بجميع الخلائق، وينزل تبارك وتعالى في ظلل من الغمام ليفصل بين الخلائق بالعدل، فيضع سبحانه الموازين وينشر الدواوين، وفي هذا اليوم العظيم تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدع والأهواء.

فزادنا ضعيف أمام كل هذه الأهوال، وكلنا في غفلة، فكلٌّ يجازى على حسب عمله؛ فالجنة درجات، والنار دركات، وقضي الأمر بين العباد.

والله لو تفكرنا في أهوال ذلك اليوم الذي يعض فيه الظالم على يديه لما انشغلنا بالدنيا الفانية عن الآخرة الباقية كما كان حال السلف.

قال رسول الله ﷺ: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا**»(١). أي ليس لي ألفة بها ولا محبة لها حتى أرغب فيها وأجمع ما فيها.

(١) سنن الترمذي (٢٣٧٧).

{وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ} فكل شيء في الآخرة راجع إلى الله ليفصل بين الخلائق في هذا اليوم العظيم... نسأل الله النجاة!

.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ
وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١
زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ
فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢ كَانَ ٱلنَّاسُ
أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ
أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن
قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ
قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ
وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥ ﴾

{سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ} الخطاب للنبي ﷺ. وسؤاله لبني إسرائيل غرضه التوبيخ والتقريع بسبب طغيانهم وجحودهم للآيات البينات، وليس لغرض انتظار الجواب.

وكأن الله يرشد النبي ﷺ أن الأذى الذي تَلْقاه يا محمد من المشركين ومن أهل الكتاب إنما هو دأب جميع الرسل؛ ومن هؤلاء الرسل رسل بني إسرائيل وأنبيائهم؛ فقد جاءهم موسى عليه السلام بآيات واضحة تدل على صدق نبوته ومع ذلك عبدوا العجل في حياته! وحرَّفوا التوراة بعد وفاته!!

والآية فيها: *تذكير بنعم الله. *وفيها تسلية للنبي ﷺ بأن يتأسى بالأنبياء من قبله في صبرهم على أذى أهل الشرك؛ وذلك لأن بني إسرائيل أكثر قوم نزل فيهم أنبياء! وأكثر قوم نزلت عليهم أدلة وحجج تدل على صدق ما جاءت به رسلهم، ومع ذلك كذّبوا أنبياءهم وقتلوهم!

{كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ} الاستفهام هنا: ***قيل**: للتقرير؛ أي غرضه حمل المخاطب على الإقرار؛ والمعنى: أقروا واعترفوا بالآيات. ***وقيل**: للتحقيق والتثبيت؛ فهؤلاء القوم جاءتهم آيات بينات يقينًا، ووصلت إليهم ومع ذلك جحدوها.

ومن أهل العلم من اعترض على أنها للاستفهام بقولهم (كيف يكون الاستفهام في أول الآية غرضه الاستنكار والتوبيخ، وفي

سياق الآية يكون للتحقيق؟!).

والجواب: (إن التوبيخ والتقريع لجحودهم وإنكارهم للآيات)، و(كم) لإثبات الآيات التي جحدوها من صفة النبي ﷺ التي عندهم في التوارة والقرآن الذي جاء بالأمور الموافقة للتوراة.

{ءَايَةِۭ بَيِّنَةٍۗ} هي الآيات البينات التي جحدها بنو إسرائيل منها: العصا، وإنزال المن والسلوى، والحَجَر الذي انبجست منه اثنتا عشرة عينًا، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، واليد، وإنزال التوراة، وكلام الله لموسى عليه السلام.

{وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ} **قيل**: الآيات التي أعطاها الله لبني إسرائيل. **وقيل**: جحودهم لنبوة النبي ﷺ مع علمهم الكامل أنه صادق في نبوته. **وقيل**: الإسلام. **وقيل**: كل نعمة أنعم الله بها على العباد.

وحمل اللفظ على العام أَوْلى - وإن كان السياق يتكلم عن بني إسرائيل - وذلك لأن كل من جحد نعمة الله وما جاءت به الرسل من الهدى واستبدلها بالأدنى والأحقر من أمور الدنيا فإن الله شديد العقاب.

وقوله {مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ} فيها تقريع ووصف لشناعة حاله بأن بدّل النِّعَم - التي أعظمها نعمة الهداية - بعد ما جاءته البينات الواضحات، وفيها أيضًا فائدة عظيمة وهي: أن السبب في جعل

العقوبة شديدة هو جحودهم للأدلة الواضحة المبيّنة لصدق ما جاء به الأنبياء.

{فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ} تعليل للجواب؛ فلماذا الله شديد العقاب؟ لأنهم بدّلوا نعمة الله من بعد ما جاءتهم، وكذلك كل من يبدل نعمة الله ويجحدها فله نفس العقاب. وتقدير الجواب: (ومن يبدل نعمة الله...عاقبه أشد عقوبة) أو قد يكون التقدير (أن الله شديد العقاب له).

وذكر اسم الجلالة (الله) في الآية لتربية القلوب على المهابة والخوف من الله فتنزجر وتكف عن المعاصي؛ فهو سبحانه وتعالى مع تمام عدله ورحمته ولطفه بعباده إلا أنه شديد العقاب لكل من يجحد النِّعم، فيَحْذَر الإنسان من الوقوع في مخالفة الأمر فتحصل له المهابة من العلي الأعلى.

قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٢١٢}.

قال بعض أهل العلم: إن السياق فيه محذوف تقديره (حُبُّ) أي (زين للذين كفروا حُبُّ الحياة الدنيا). وقال بعضهم: الحياة والإحياء شيء واحد؛ لذلك قد تأتي على وجه التذكير أو التأنيث: فإما أن تأتي على وجه التأنيث فتكون كاللفظ في هذه الآية، أو تأتي على وجه

التذكير فتكون أيضًا في معناها، وذلك كما في قوله تعالى {فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ} ولم يقل (جاءته)، وكما في قوله تعالى {وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ} ولم يقل أخذت.

{زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا} يخبر الله سبحانه وتعالى عن حال الكافرين الذين كفروا بآياته ورسوله ولم ينقادوا لشرعه بأنهم زُيّنت لهم الحياة الدنيا وغرتهم بزينتها؛ فَرَضُوا بها واطمأنوا لها، وصارت أعمالهم كلها لها! فأقبلوا عليها وعظّموها بل تعاظموا على أهل الإيمان واستهزأوا بهم واحتقروهم وسخروا منهم.

{وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ} أي يستهزئون بالذين آمنوا بالله!

- والدنيا دار ابتلاء يحصل فيها من الشقاء ما يصيب أهل الإيمان وأهل الكفر، ولكن شتان: فالمؤمن الصابر المحتسب يُخَفَّف عنه بإيمانه في الدنيا وفي الآخرة.

- وقد حدث هذا في عهد النبي ﷺ؛ فقد قال الله سبحانه: { إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾} [المطففين].

- والمنافقون نفاقًا عقديًّا فعلوا ذلك مع المؤمنين {ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾} [التوبة].

- وحدث أيضًا في عهد نوح عليه السلام وهو يصنع السفينة

التي أمره الله بصنعها قال تعالى: ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ﴿٣٨﴾﴾ [هود].

- وفي عهد شعيب عليه السلام ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود].

والذي يُدمي القلب أن هذا الفعل انتقل للمسلمين من حيث لا يشعرون فتجد بعضهم يسخرون من أهل الالتزام المتمسكين بالسنة!

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ فأهل الإيمان والتقوى فوقهم في المكانة: فهم في أعلى الدرجات متمتعين بجميع أنواع النعيم المقيم، وكذلك فوقهم في المكان: فهم في عليين على الأرائك ينظرون كما أخبر سبحانه وتعالى، وأما الكفار فتحتهم في المكان والمكانة؛ فهم في الدركات معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدي الذي لا ينتهي.

فائدة:

الكلام في أول الآية كان يتحدث عن (المؤمنين): ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وفي السياق انتهى بـ (المتقين) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ وذلك لأنه قد يُخيل للناس أن أي مسلم مات على الإيمان ينال هذه المكانة، والأمر ليس كذلك، بل الأمر كما وضحت الآيات أن السعادة والنعيم الدائم في الآخرة لـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أي

المؤمن التقي.

{وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ} أنواع الأرزاق مختلفة؛ فليس المال فحسب بل الأولاد والصحة وكذلك العلم وغيرهم.... ولما كانت هذه الأرزاق لا تحصل إلا بتقدير الله سواء كانت أرزاق دنيوية أو أرزاق أخروية جعل سبحانه وتعالى حظ الكافر منها في الدنيا فقط، وليس له في الآخرة من خَلَاق، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان ومحبة الله وخشيته وغير ذلك مع نعيم الآخرة فلا يناله إلا المؤمن فقط.

قوله تعالى: { كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾}.

{ٱلنَّاسُ} اسم جمع لامفرد له، والألف واللام للاستغراق؛ أي لعموم البشر، وهذا العموم عموم عرفي مبني على الغالب وليس على النادر؛ أي أن الناس كلهم أمة واحدة.

{أُمَّةٗ}بمعنى جماعة؛ فأي جماعة اتفقوا على شيء واحد (دين - لغة) يُقال عليهم أمة.

{وَٰحِدَةٗ} ذكر (واحدة) بعد (أمة) تأكيدًا للوصف بأنها أمة

واحدة يجمعها التوحيد؛ لأنه قد يتبادر إلى الأذهان أنها أمة واحدة في النسب، ولكن أراد الله أن يبين أنها كانت أمة واحدة على التوحيد وذلك لعدة أسباب:

-الآية فيها {مبشرين ومنذرين} أي بشروا بالتوحيد؛ فالله سبحانه وتعالى لا يبعث الأنبياء إلا لبشرى التوحيد؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ.. ﴿٣٦﴾} [النحل]، قال ابن عباس: (كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين).

فالأنبياء تبشر بالتوحيد، وما دامت الأمة على التوحيد فما الداعي أن يبعث الله الأنبياء! كما يدل على ذلك أيضًا أن الآية فيها محذوف تقديره: (فاختلفوا) أي أن الناس كانوا أمة واحدة فاختلفوا.. فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.

{فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} تعليل لما قبلها.

{مبشرين} لمن أطاع بكل خير.

{ومنذرين} بالوعيد الشديد لمن عصى وأعرض.

فأي سعادة وأي خير وأي بشارة للإنسان الذي أطاع الله! وأي شقاء لمن عصى وأعرض عن أمر الله!

{وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ} أنزل مع رسله (الكتب) مشتملة

على الحق الذي لا شك فيه؛ فكل نبي نزل على قومه بكتاب (سواء صحف أو غيرها).

ومن العلماء من قال: المراد بالكتاب هنا (التوراة) لقوله تعالى: { إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ.. ﴿٤٤﴾} [المائدة].

{فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ} قيل: اختلفوا (أي اليهود والنصارى) في الحق الذين أوتوه.

{وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ} في الحديث القدسي «**إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**»(١).

{مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ} واختلافهم ليس عن جهل منهم! ولكن لأنهم لا يريدون الحق، فضلّوا وأضلّوا.

{بَغۡيَۢا} أي حسدًا منهم.

{فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ} أي: عندما اختلفوا هدى الله الذين آمنوا بأن دلّهم على الحق الذي يجب أن

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٥).

يتبعوه.

{فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} من العلماء من قال: هداهم للإسلام. **وقيل:** هداهم للصلاة؛ فكانت قِبلة اليهود بيت المقدس، وقِبلة النصارى إلى المشرق، فهدى الله الذين آمنوا إلى الكعبة لتكون قبلة لهم. **وقيل:** هداهم للصيام؛ فكان الصيام بعض أيام، فهدى الله الذين آمنوا لصيام شهر رمضان. **وقيل:** ليوم الجمعة؛ فكان لليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد، فهدى الله الذين آمنوا إلى يوم الجمعة.

قال رسول الله ﷺ: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَومَ القِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الذي فُرِضَ عَلَيْهِمْ، فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فيه تَبَعٌ، اليَهُودُ غَدًا، والنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ**»(١). فيوم الجمعة عيد عند المسلمين.

*** وقيل:** اختلفوا في إبراهيم؛ فقالوا: إنه كان يهوديًّا أو نصرانيًّا!! فبَرَّأه الله مما قالوا وبيّن أنه كان حنيفًا مسلمًا ولم يكن من المشركين. إلى غير ذلك من الأمور التي هدانا الله إليها بكرمه وإحسانه من الحق الذي كان واضحًا، ولكن هم الذين جلبوا على أنفسهم هذا الاختلاف.

- ومن دعاء الرسول ﷺ في قيام الليل: «**اللَّهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطرَ السَّمواتِ والأرضِ عالِمَ الغيبِ والشَّهادةِ**

---

(١) أخرجه البخاري (٨٧٦).

أنتَ تحكُمُ بينَ عبادِكَ فيما كَانُوا فيهِ يختلِفونَ، اهدِني لما اختُلِفَ فيهِ منَ الحقِّ بإذنِكَ إنَّكَ تهدي من تشاءُ إلى صِراطٍ مستقيمٍ»[١].

فإذا أُشكل على الإنسان أمر ليس له فيه برهان، عليه بالدعاء ليهديه الله إلى الحق، فإن علم الله من الإنسان صدق نيته في رغبته لمعرفة الحق فإنه يهديه يقينًا إلى سواء السبيل.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ إضْرابٌ انتقالِي عن الكلام السّابِق؛ فكان الكلام عن الأمم السابقة وحال المؤمنين وأنه سبحانه هداهم للإيمان والحق، ثم انتقل بالكلام بعد ذلك.

- ومن العلماء من قال: مع هداية الله لهم وتميزهم عن الأمم السابقة إلا أن دخول الجنة لا بُد له من ثمن وبذل وصبر!

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ ﴿لَمَّا﴾ حرفان (لم، ما)؛ (لم) حرف نفي وكذلك (ما)، فنفيه سبحانه وتعالى بأداتين للنفي تأكيدًا للأمر؛ وهو عدم دخول الجنة بدون كَبَد.

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

{مَّثَلُ} صفة؛ أي صفة الذين خلوا من الأمم السابقة.

{ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم} هم المؤمنون الذين مضوا وأصابهم من الخوف والعذاب ما أصابهم؛ كما جاء في الحديث: (عن خَبَّاب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه: شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلَا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: «**قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فِيهَا، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ علَى رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأَمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ،..**»[١](٢). فلا بد من التمحيص.

وكذلك ما حدث مع أصحاب الأخدود من إيذاء الملك الظالم لهم لما أعلنوا إسلامهم، وحفر لهم الأخاديد وأحرقوهم فيها، فلذلك قال {مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم}.

- وأين نحن من ابتلاءات الصحابة والأمم السابقة فقد لقوا ما لقوا من العذاب والآلام وزلزلة القلوب والفقر والمرض والجوع.

{مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ} البأساء: أصل البأس الفقر. الضراء: المرض والآلام والنوائب.

فلا بُد من التمحيص لعلو الدرجات؛ فهي سنن لا تتبدل لكل من

١

(٢) صحيح البخاري (٦٩٤٣).

قام بشرع الله أن يُمتحن بالبأساء والضراء؛ فالصادق يصبر أمام الفتن ويثبت على ما هو عليه من الحق فينال السعادة الكاملة، وأما من يجعل فتنة الناس كعذاب الله وتَصُدّه عن الإيمان بالله فليس بصادق.

{حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ} حتى إنهم استبطأوا النصر من شدة ما وقع بهم من أذى.

{أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ} النصر مع الصبر، والفرج يأتي بعد الشدة، فسبحانه لا يترك عباده الموحدين.

ولو علمنا صفات الله لعرفنا أنه لا يحمل الإنسان فوق طاقته، فمهما بلغ من الأمر منتهاه من الشدة والكرب والابتلاء إلا أنه سبحانه وتعالى رحيم ودود لن يُحمل الإنسان من البلاء فوق طاقته، فمع البلاء يعطي الله العبد القدرة على التحمل والصبر والثبات.

قوله تعالى: { يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥}.

{يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ} يسأل الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ على جنس وقدر المنفَق من أموالهم؛ فيسألون عن جنس المنفق: هل هو (مال، ثياب، ذهب، طعام،..) وأما القدر: فما هو المقدار والكَم الذي يجب أن يخرج؟.

{قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ} (ما) إما أنها موصولة، وإما أن تكون شرطية:

- فإن كانت موصولة فستصبح كلمة {فَلِلْوَٰلِدَيْنِ} خبرًا.

- وإن كانت شرطية فستصبح كلمة {فَلِلْوَٰلِدَيْنِ} جواب الشرط.

{فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ} لو تأملنا في الآية فسيبدو للقارئ أن الله تبارك وتعالى أجاب عن (لِمَنْ؟)، ولم تكن الإجابة عن سؤال (ماذا؟) الذي سأل عنه الصحابة! فدلّهم الله على مصارف (الزكاة أو صدقة التطوع) - نزاع بين العلماء- ولم يُجبهم على الجنس والقدر الذي كان سؤالهم عنه!

من العلماء مَن قال: هذا من باب (الأسلوب الحكيم)؛ والذي يكون الجواب فيه إشارة للسائل على ما ينبغي أن يسأل؛ وكأن الله عز وجل يقول ما كان ينبغي أن تسألوا عن ماذا تنفقون، ولكن كان ينبغي السؤال عن لمن ستذهب النفقة! ولكن أُعترض على هذا التفسير؛ لأن الجواب جاء مطابقًا للسؤال وزيادة؛ فقد قال الله عز وجل بعدها {قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ} فهذه أول إجابة: {مِّنْ خَيْرٍ} الخير من مال، طعام،....، وزيادة على إجابة السؤال {فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ...} فدلّهم أيضًا إلى مَن ستذهب.

والزيادة هنا فيها إطناب وإسهاب للفائدة فلا يشعر معها القارئ بملل من هذه الزيادة، ولا يوجد في القرآن حرف لا فائدة له؛ فقد

يصرف الإنسان في الخير أو الشر أو المباح، لكن أراد الله سبحانه وتعالى أن يوجّههم لهذه الإجابة ليدلهم على الخير، ويجمع لهم كل جوانب الخير حتى وإن قصّروا أو لو لم ينتبهوا للسؤال عن هذا الخير؛ وذلك مثل ما جاء في السُّنة (سَأَلَ رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ، وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطِشْنَا، أَفَنَتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**»[(١)]، فكان من الممكن أن يكتفي النبي ﷺ بالإجابة على السؤال ليقول (الطَّهورُ ماؤهُ) لكنه زاد على الإجابة بقوله (الحِلُّ ميتتُه) وهذا من ذكاء المعلم والمُربِّي؛ لأن السائل قد يحتاج إلى هذه الزيادة المتعلقة بالمسألة التي سأل عنها.

{وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ} وما تفعلوا من خير قليلًا كان أو كثيرًا فإن الله به عليم؛ لا يخفى عليه منه شيء، فيعلم مَن ينفق، ولِمَن أنفق، ولماذا ينفق، يعلم النوايا وما في القلوب، لا يعزب عنه مثقال ذرة سواء في الأرض أو في السماء، وسيجازيكم عليه أحسن الجزاء بل أوفر الجزاء؛ لأنه سبحانه الشكور الذي لا يضيع عنده عمل عاملٍ من ذكر أو أنثى.

وقد أرشدت الآية إلى أهمية الإنفاق على الوالدين والأقارب لأنهم أحق الناس بالإنفاق عليهم؛ فأما الوالدين: (قال رَجُلٌ: يا رَسُولَ

---

(١) سنن أبي داود (٨٣).

اللهِ، مَن أَحَقُّ النَّاسِ بحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قالَ: «**أُمُّك، ثُمَّ أُمُّك، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ**»[(١)].

فالأب والأم لهم قدر عالٍ جدًّا عند الله، لكن الإنفاق عليهما ليس من باب زكاة الفريضة؛ لأن الأصل أن الزكاة لا تدفع إلى الوالدين، وهذه مسألة فقهية.

وأما الأقارب: فقد كان أبو طَلْحَةَ أكْثَرَ الأنْصَارِ بالمَدِينَةِ مَالًا مِن نَخْلٍ، وكان أحَبُّ أمْوَالِهِ إلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وأراد التصدق بها فكان مما قاله له النبي ﷺ: «**وإنِّي أرَى أنْ تَجْعَلَهَا فِي الأقْرَبِينَ**»[(٢)]. فبذلك يأخذ المنفِق أجر الصِلة وأجر الصدقة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) صحيح البخاري (١٤٦١).

الفهرس

من قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴿١١٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾ ٣

من قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ .... ﴿١٢٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ ٢٣

من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ .... ﴿١٢٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ ٣٩

من قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ .... ﴿١٣٥﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ ٦٠

من قوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ .... ﴿١٤٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ ٨٤

من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ .... ﴿١٤٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ ١٠٧

من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢ .... ﴿١٥٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ ١٢٥

من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ .... ﴿١٦٤﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ ١٦٠

من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ .... ﴿١٧٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُوا۟ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾﴾ ١٧٩

من قوله تعالى: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ .... ﴿١٧٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾﴾ ٢٠٥

من قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا .... ﴿١٨٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُوا۟ لِي وَلۡيُؤۡمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ ٢٣٠

من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ .... ﴿١٨٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ ٢٤٧

من قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ.... ﴿١٩١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ ٢٦٩

من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ .... ﴿١٩٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ ٢٩٧

من قوله تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ .... ﴿٢٠٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ ٣١٣

من قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ .... ﴿٢١١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ ٣٢٨

الفهرس ٣٤٤